سيغموند فرويد

الحياة الجنسية

ترجمة:

جورج طرابيشي

الحياة الجنسية

□ هل الفرويدية تفسير جنسي آحادي للإنسان وللتاريخ؟ ولكن ما طبيعة الجنس في نظر فرويد؟ وهل قيل كل شيء في الحياة الجنسية للإنسان أصلاً حتى نفسر بها سائر جوانب حياته الأخرى؟

□ إن مقالات هذا الكتاب، التي لا تدّعي لنفسها طابعاً فلسفياً، تضيف مع ذلك لبنات أخرى في بناء مفهوم الإنسان من خلال ما تُسلّطه من أضواء جديدة على جوانب معتمة في حياته الجنسية، ومنها: الجنسية الطفلية، الجنسية والحضارة، الجنسية والحب، الجنسية وعقدة أوديب، الجنسية المؤنثة، الجنسية الشاذة، الجنسية والأمراض العصابية.

دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت

سيغموند فرويد

الحياة الجنسية

ترجمة :
جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت ـ لبنان
ص . ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
فاكس ٠٩٦١-١-٣٠٩٤٧٠

الطبعة الأولى : أيار (مايو) ١٩٨٢
الطبعة الثانية : تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٣
الطبعة الثالثة : أيار (مايو) ١٩٩٩

هذه ترجمة كتاب

LA VIE SEXUELLE

PAR

SIGMUND FREUD

PRESSES UNIVERSITAIRES

DE FRANCE

PARIS 1969

الفصل الاول

الشروح الجنسية التي تعطى للاطفال

(١٩٠٧)

رسالة مفتوحة الى د . م . فورست

زميلي العزيز،

انك إذ تسالني إبداء رأيي في مسالة « الشروح الجنسية التي تعطى للاطفال » ، لا تتوقع مني، على ما افترض ، بحثاً منهجياً جامعاً يستوعب كل ما كتب في الموضوع ، على فرط تفصيله . بل تريد ان تعرف الحكم المستقل الذي يمكن ان يصدر عن طبيب خاص مثلي حمله نشاطه المهني على إيلاء المشكلات الجنسية اهتمامه البالغ . إني اعلم أنك تتبعت باهتمام جهودي العلمية ، وأنك لا تنكرني ولا تجبّني بلا دليل او برهان ، نظير ما يفعله العديد من الزملاء الآخرين ، لمجرد اني أرى في الجبلّة الجنسية ـ النفسية وفي التأذيات التي تتعرض لها الحياة الجنسية أهم مصدر للأمراض العصابية الواسعة الانتشار . وإني أعلم أيضاً أنه قد وردت مؤخراً إشارة ودية في مجلتك الى كتابي **ثلاثة مباحث في نظرية الجنس**[1] الذي شرحت فيه تركيب الغريزة

---

(١) انظر ترجمتنا لهذا الكتاب ، مع كل التعديلات التي اجراها عليه فرويد لاحقاً ، الصادرة عن دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١ . م . م .

الجنسية والاضطرابات التي يتعرض لها نمو هذه الغريزة وتطورها الى الوظيفة الجنسية .

لزام علي اذن أن أجيب عن سؤالك : هل يمكن ، بوجه عام ، ان نعطي الاطفال شروحاً بصدد الحياة الجنسية ؟ وفي اي عمر وبأية صورة نستطيع ان نفعل ذلك ؟ اسمح لي بأن أعترف لك ، باديء ذي بدء ، بأني أفهم حق الفهم ان يدور نقاش حول النقطتين الثانية والثالثة ، ولكني لا أفهم إطلاقاً ان يقع خلاف في الآراء بصدد النقطة الاولى . فما الغرض الذي يرمي اليه من يريد ان يخفي عن الاطفال ـ او عن المراهقين بالاحرى ـ مثل تلك الشروح بصدد الحياة الجنسية للكائنات الانسانية ؟ أيخشى أن يوقظ قبل الاوان اهتمامهم بهذه الامور ، قبل ان يستيقظ فيهم هذا الاهتمام عينه من تلقاء نفسه ؟ وهل يأمل بهذا الإخفاء ان يحتوي غريزتهم الجنسية الى ان يأتي اليوم الذي يتاح لها فيه ان تسلك الطرق التي يفتحها امامها النظام الاجتماعي البورجوازي وحده ؟ وهل يقصد بذلك أن يؤكد لنا ان الاطفال لن يبدوا اهتماماً بأمور الحياة الجنسية وألغازها ، ولا تفهماً لها ، ما لم يحرضهم على ذلك شخص من الخارج ؟ وهل يعتقد ان المعرفة التي يبغي أن يحجبها عنهم لا يمكن ان تصل اليهم بطريق آخر ؟ أم إنه يريدهم فعلاً وجداً ان يحكموا في المستقبل على كل ما يتصل بالجنس حكمهم على شيء دنيء وشنيع شاء ذووهم ومربوهم أن يبقوهم بمنأى عنه أطول مدة ممكنة ؟

إنني حقاً لا ادري أياً من هذه المقاصد يمكن اتخاذه سبباً لكتمان كل ما يتصل بالجنس عن الاطفال ، على نحو ما هو معمول به في الوقت الحاضر . فجميع هذه التعلات سخيفة في نظري ، ويصعب علي أن افندها تفنيداً جاداً . غير أني أذكر أني وجدت بين رسائل

المفكر الكبير وصديق الانسان مولتاتولي[٢] multatuli الى أسرته ، بعض سطور هي بحد ذاتها اكثر من مجرد جواب :

« هناك في رأيي أشياء هي بالاجمال موضع تكتم اكثر مما ينبغي . فمن الحكمة صون طهارة خيال الطفل ، لكن ليس الجهل هو ضامن هذه الطهارة . بل أني أعتقد أن إخفاء شيء من الاشياء عن الصبيان والبنات من شأنه ان يزيدهم اشتباهاً في الحقيقة . فبسائق الفضول نرانا نتطلع الى النفاذ الى كنه امور لو وجدنا من يصارحنا بها دونما إسراف في التفاصيل لما اعرناها اهتماماً كبيراً او لما اثارت اهتمامنا أصلاً . ولو كان بالإمكان الإبقاء على ذلك الجهل ، لكنت برغم كل شيء سلّمت بذلك ؛ لكن الابقاء عليه من رابع المستحيلات . فالطفل يتصل بغيره من الاطفال ؛ وتوضع بين يديه كتب تدفع به الى إعمال الفكر ؛ وتكتم ذويه بصدد ما يكون ـ رغم كل شيء ـ قد اكتشفه لن يزيده إلا توقاً الى طلب معرفة المزيد . وهذا التوق الذي لا يحظى إلا بتلبية جزئية وخفية يؤجج ضرام القلب ويفسد المخيلة ؛ وبذلك يتزلق الطفل الى حمأة الخطيئة على حين يكون الاهل ما يزالون مقيمين على اعتقادهم بأنه لا يعرف شيئاً عن الاثم »[٣]

لست ادري ان كان لأحد ان يبدي في هذا الموضوع احسن من هذا الرأي ، ولكن ربما كان في الامكان أن نضيف اليه إضافة ما . فما يدفع بالراشدين الى وقوف موقف « التكتم » من الاطفال هو بكل تأكيد التحشم المعهود لدى هؤلاء الاهل انفسهم وإحساسهم هم أنفسهم بالخطأ ؛ ولكن من المرجح ان وراء ذلك التكتم شيئاً من الجهل النظري من قبلهم ، وهو جهل تمكن مكافحته فيما لو قدمت للراشدين بعض

(٢) شاعر ومفكر هولندي ، كان فرويد يرى أن كبرى مآثره هي انه استبدل قدر الاغريق بفكرة العقل والضرورة . « م »

(٣) رسائل مولتاتولي ، نشرها و . سبوهر ، ١٩٠٦ ، م١ ، ص ٢٦ .

الشروح . فالراشدون يميلون الى الاعتقاد بصفة عامة بأن الغريزة الجنسية لا وجود لها عند الاطفال ولا تعلن عن ظهورها لأول مرة لديهم إلا مع البلوغ ، بالتوازي مع نضج الاعضاء الجنسية . وهذا خطأ فاحش ، وعليه تترتب عواقب خطيرة فيما يتصل بالنظرية والممارسة على حد سواء . والحال أنه من الميسور منتهى اليسر تصحيحه عن طريق الملاحظة والمشاهدة ، حتى إن المرء ليأخذه العجب ويتساءل كيف امكن الوقوع فيه اصلاً . والحقيقة ان الوليد يأتي الى الدنيا حاملاً معه الجنسية SEXUALITÉ، وبعض الاحاسيس الجنسية تصاحب نموه رضيعاً وطفلاً صغيراً ، والقليل القليل من الاطفال يبقون بمنأى عن الانشطة والاحاسيس الجنسية قبل البلوغ . ومن يهمه ان يطلع على عرض مفصّل لهذه الآراء ، فبوسعه الرجوع الى كتابي الآنف الذكر **ثلاثة مباحث في نظرية الجنس** ، الصادر في فيينا عام ١٩٠٥ . ومنه سيعلم أن أعضاء التناسل بحصر المعنى ليست هي الاعضاء الوحيدة في الجسم التي تتولد منها احاسيس لذّية جنسية ، وان الطبيعة التي لها جانبها من القسر والإجبار قد عملت على ان تكون الاعضاء التناسلية بالذات عرضة لإثارات محتومة في الطفولة الاولى . هذه الفترة من الحياة التي يتولد فيها قدر معين من اللذة الجنسية الحقيقية عن تنبيه نقاط معينة في الجلد (**المناطق الشهوية**) ، وعن نشاط بعض الغرائز البيولوجية ، وعن الاثارة المتبادلة في العديد من الحالات الوجدانية ، توصف بأنها فترة **الايروسية الذاتية** على حد تعبير هافلوك ايليس HAVELOCK ELLIS . وكل ما يفعله البلوغ أنه يعطي الاعضاء التناسلية الاولوية على سائر المناطق والمصادر الأخرى التي تنتج اللذة ، ومن ثم فإنه يرغم الايروسية على وضع نفسها في خدمة وظيفة التناسل . وبديهي ان هذه السيرورة قد تعطلها ضروب شتى من الكف ، فلا تقطع كامل شوطها لدى العديد من الافراد ، من

المرشحين للشذوذ والعصاب مستقبلاً . ومن جهة اخرى يستطيع الطفل ، قبل إدراكه البلوغ بزمن مديد ، ان ينجز معظم الافعال النفسية للحياة الحبية (المحبة ، التفاني ، الغيرة) . وكثيراً ما تصاحب ظهور هذه الحالات النفسية احاسيس بدنية ناشئة عن الاثارة الجنسية ، بحيث لا يعود يخامر الطفل شك في ترابط الظاهرتين . زبدة الكلام أن الطفل يكون متهيئاً ، قبل البلوغ بزمن طويل ، للحب ، خلا الإنسال . وفي مقدورنا القول بوثوق ان « التكتم » لا يحرمه سوى من القدرة على التحكم عقلياً بأفعال هو مهيأ لها نفسياً ومكيَّف لها بدنياً .

ان اهتمام الطفل عقلياً بألغاز الحياة الجنسية وظمأه الى المعرفة الجنسية يتجليان بالفعل في سن مبكرة غاية التبكير . ولئن ما امكن من قبل التقدم على نحو متواتر بمثل الملاحظات التي أتقدم بها الآن ، فليس ذلك إلا لأن الأهل كانوا وكأنما ضربت على أعينهم غشاوة فاعمتهم عن ملاحظة اهتمام الطفل هذا ، أو لانهم كانوا ، إذا تعذر عليهم الا يلحظوه ، يبادرون حالاً الى قمعه وخنقه . لقد عرفت صبياً مدهشاً له من العمر اليوم أربع سنوات كان والداه الفهيمان يحاذران من ان يقمعا بالقوة والعنف جانباً من نموه وتطوره . فقد كان هانز الصغير ، الذي لم يتعرض بالتأكيد لمحاولة للتغرير به من قبل حاضنته ، يبدي منذ بعض الوقت اعظم الاهتمام بذلك الجزء من جسمه الذي كان يطلق عليه اسم « الفرفورة »[4] ولم يكن قد تجاوز ربيعه الثالث يوم سأل أمه : « ماما ، هل لك انت ايضاً فرفورة ؟ » . فأجابته امه هذه : « بالطبع ، وماذا كنت تظن ؟ » . وقد طرح السؤال نفسه على أبيه مرات عدة . وفي ذلك العمر ايضاً ، وفيما كان يزور لأول

(٤) فرفر في لغة الاطفال بال . وفي مصر يقال طرطر . — م .

مرة اصطبلاً ، وقع نظره على بقرة تُحلب ، فهتف مذهولاً : « انظري ، انها تخرج الحليب من الفرفورة » . وقبل بلوغه الرابعة بأشهر ثلاثة راح يكتشف من تلقاء نفسه ، وبالاعتماد على ملاحظته وحدها ، جملة من الوقائع الصحيحة . فقد رأى الماء يخرج من قاطرة فقال : « انظري ، القاطرة تفرفر ، فأين فرفورتها إذن ؟ » . واستغرق بعد ذلك في التفكير ثم اضاف قوله : « للكلب وللحصان فرفورة ؛ لكن الطاولة والكرسي لا فرفورة لهما » . وأخيراً ، وفيما كانت أخته الصغرى ، ولها من العمر أسبوع واحد ، تُحمم على مرأى منه ، بدرت منه هذه الملاحظة : « ان فرفورتها لا تزال صغيرة . لكنها يوم ستكبر ستكبر هي ايضاً » (وقد نُقل إلي ان صبياناً آخرين من العمر نفسه يقفون الموقف نفسه من فارق الجنسين) . وأود هنا أن أدحض دحضاً قاطعاً احتمال ان يكون هانز الصغير طفلاً شهوانياً او حتى ذا استعداد مسبق للمرض ؛ وانما أعتقد فقط انه لا يرزح ـ وهو الذي ما خوَّفه أحد ـ تحت وطأة إحساس بالذنب ، وهو يكاشفنا من ثم بسذاجة وبراءة بما يدور في فكره[5] .

المشكلة الكبيرة الثانية التي تشغل بال الطفل ـ في سن متقدمة قليلاً بلا ريب ـ هي التالية : من أين يأتي الاطفال ؟ وغالباً ما ترتبط هذه المشكلة بمولد أخ صغير أو أخت صغيرة غير مرغوب فيهما . وهذا اقدم اسئلة الانسانية الفتية وأدقها ؛ ومن باستطاعته تأويل الاساطير والتقاليد ففي مكنته ايضاً ان يستشفه في اللغز الذي يطرحه وحش طيبة على اوديب . والأجوبة التي تعطى عنه في دور حضانة الاطفال تجرح غريزة البحث والتنقيب المستقيمة لديهم : وغالباً ايضاً ما

(5) اضافة سنة ١٩٢٤ : انظر بصدد إصابة « هانز الصغير » لاحقاً بالعصاب وشفائه منه مقال تحليل رهاب لدى صبي في الخامسة من العمر . (انظر ترجمتنا لهذا النص الذي كتبه فرويد عام ١٩٠٩ ، الصادرة عن دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٢ . ـ م ●) .

تزعزع للمرة الاولى ثقة الطفل في والديه . وعندئذ يشرع بالارتياب بالراشدين وبالاحتفاظ لنفسه بأخص اهتماماته واكثرها صميمية . وبين يدي وثيقة صغيرة يمكن ان تبين لنا كم يعذب هذا الظمأ الى المعرفة في كثير من الاحيان كبار السن من الاطفال . وهي رسالة كتبتها فتاة صغيرة لها من العمر احد عشر عاماً ونصف عام ، لا أم لها ، وقد تداولت في هذه المشكلة مع اختها الاصغر منها :

« خالتي العزيزة مالي » ،

« ارجو ان تكوني طيبة بما فيه فتكتبي لي وتعلميني كيف حصلت على بنتك كريستل وابنك بول . لا بد أنك تعلمين ذلك ما دمت متزوجة . لقد تجادلنا بالامس بصدد هذا الموضوع ونتمنى حقاً ان نعرف الحقيقة . متى ستأتين الى سالزبورغ ؟ فكما ترين يا خالتي العزيزة مالي ، فإننا لا نفهم كيف يأتي اللقلق بالاطفال[6] . وفي رأي ترودل ان اللقلق يأتي بهم في قميص . ونود بعد ذلك ان نعرف هل فعلاً يأخذهم من المستنقع ، ولماذا لا نرى أبداً اطفالاً في المستنقع أرجوك ان تخبريني ايضاً كيف يعرف الانسان مسبقاً انه سيتلقاهم . أجيبيني بصورة مفصلة » .

« مع ألف تحية وقبلة منا نحن الاثنتين » .

« حبيبتك الفضولية ليلي » .

لا أعتقد أن هذه الرسالة المؤثرة عادت على الاختين بالايضاحات المطلوبة . وتلك التي كتبت هذه الرسالة وقعت فيما بعد ضحية ذلك العصاب الذي ينشأ عن أسئلة لاشعورية لم تلقَ من جواب ، عن افكار استحواذية تستعاد وتجتر[7] .

(6) في بعض اقطار الغرب يفسر الاهل سر الولادة للاطفال بأن اللقالق هي التي تأتي بهم . ـ م ● .

(7) غير أن هذا الاجترار حل محله ، بعد بضع سنوات ، خبل مبكر .

لا اعتقد ان ثمة سبباً وجيهاً واحداً يبرر الامتناع عن تزويد الاطفال بالشروح التي يتطلبها ظمؤهم الى المعرفة . صحيح أنه إذا كان قصد المربي ان يقمع في ابكر وقت ممكن كل محاولة يقوم بها الطفل للاستقلال بتفكيره ، وذلك لصالح تلك « الاستقامة » التي يعلي الجميع من كعبها ، فلن يساعده على ذلك شيء كان يضلله على الصعيد الجنسي وان يخوِّفه في المضمار الديني . ومؤكد أن أصحاب الشكائم القوية من الاطفال يقاومون هذه التأثيرات : فهم ينضوون تحت لواء التمرد على سلطة الاهل ، ثم على كل سلطة لاحقاً . وان لم يتلقَّ الاطفال الشروح التي طلبوها ممن هم اكبر سناً منهم ، واصلوا في دخيلة أنفسهم تقليب هذه المشكلة على وجوهها وحاولوا ان يشيدوا فرضيات كلها تختلط فيها الحقيقة التي حدسوا بها اختلاطاً يسترعي الانتباه بالخطأ الفاضح، او نراهم يتهامسون فيما بينهم بمعلومات تدمغ الحياة الجنسية ، بسبب شعور الاثم الذي يعتمل في نفوس هؤلاء الباحثين الصغار ، بطابع الرهبة والبشاعة . وهذه النظريات الجنسية الطفلية جديرة بأن تُجمع وتدرس . ومنذ ذلك الحين يفتقد معظم الاطفال الموقف الصحيح الوحيد من المسائل المتصلة بالجنس ، والكثيرون منهم لا يعودون إليه بعدئذ ابداً .

يلوح ان الغالبية الكبرى من المؤلفين ، من ذكور واناث ، ممن كتبوا حول مسألة الشروح الجنسية التي تعطى للصغار قد وقفوا موقف التأييد منها . لكن اكثرية المقترحات التي تتناول الكيفية التي ينبغي ان تعطى بها هذه الشروح والزمان الذي ينبغي ان يتم فيه ذلك تتسم بالخرق الفاضح ، حتى إن المرء ليفزع الى الاستنتاج بأن هذا التنازل لم يكن سهلاً على المعنيين . ولست أعرف من كل ما كتب في الموضوع سوى استثناء واحد : تلك الرسالة التفسيرية اللطيفة التي تزعم سيدة تدعى ايما اكشتاين ECKSTEIN انها كتبتها لابنها الذي

له من العمر حوالي عشر من السنين(٨) . ومن المؤكد ، من جهة اخرى ، أن حجب كل معرفة بالمضمار الجنسي عن الاطفال لأطول مدة ممكنة ، ثم مكاشفتهم ذات يوم على حين بغتة بنصف الحقائق ، وبلغة مفخمة ومتشدقة ، ليس هو الطريقة الصالحة . وان أغلب الاجوبة عن السؤال الذي فحواه : « كيف أخبر طفلي بذلك » تترك في نفسي ، انا على الاقل ، انطباعاً مكرباً أحبذ معه لو أن الاهل لم يأخذوا على عاتقهم إطلاقاً تقديم هذه الشروح . وأهم ما في الامر ألا يصل الاطفال أبداً الى الاعتقاد بأن ذويهم يريدون ان يخفوا عنهم وقائع الحياة الجنسية وحدها دون سواها من الوقائع التي ليست في متناول افهامهم بعد . ولهذا يتعين في المقام الاول ان تعالج المسائل التي تتصل بالجنس من بادىء الامر مثلما تعالج سائر الامور الجديدة بأن تعرف . وعلى عاتق المدرسة تقع المهمة الاولى : فبدلاً من ان تتحاشى كل ما له صلة بالامور الجنسية يجب عليها ، على العكس من ذلك ، ان تدرج في برنامجها التعليمي الخاص بعالم الحيوان جميع وقائع التناسل بكل اهميتها وخطورتها وأن تلح على حقيقة ان الانسان يشاطر الحيوانات العليا في وظائفه الاساسية كافة . وبعد ذلك ، وان امتنع الاهل في البيت عن بث خوف التفكير في نفوس أولادهم ، فلن يندر ان يتكرر بتواتر غالب ما كنت استرقت السمع اليه مرة في إحدى غرف نوم الاطفال:فقد انهال صبي صغير بالتأنيب على أخته الاصغر منه قائلاً : « كيف يخطر لك ان تتصوري ان اللقلق هو الذي يأتي بالاطفال الصغار ؟ فأنت تعلمين ان اللقلق حيوان ثديي . فهل تحسبين ان اللقلق يأتي للثدييات الاخرى بأطفالها ؟ » . إن فضول الطفل لن يصل أبداً الى مستوى أعلى مما ينبغي ان أُحسِن إشباعه على نحو موائم في كل مرحلة من

(٨) ايما اكشتاين : المسألة الجنسية في تربية الاطفال ، ١٩٠٤ .

مراحل التعليم . وعلى هذا الأساس ينبغي ، عند نهاية التعليم الابتدائي (وقبل الانتقال الى التعليم الثانوي) ، أي بعد ختام الطفل السنة العاشرة من عمره ، أن يجري تنويره بصدد جميع المظاهر النوعية للجنس عند بني الانسان ، مع التوكيد في الوقت نفسه على مدلولها الاجتماعي . وسن التثبيت[٩] هو اخيراً أنسب فترة لتعليم الطفل ـ بعد ان يكون قد اطلع اطلاعاً تاماً على كل ما له صلة بالجسد ـ الواجبات الاخلاقية المقيدة لإشباع الغريزة. وهكذا يلوح لي ان هذه الخطة في شرح امور الحياة الجنسية للطفل،التي يتم تنفيذها مرحلة مرحلة وبتواصل لا انقطاع فيه ـ على ان تتولى المدرسة هذه المبادرة التثقيفية ـ هـي أحسن طريقة ممكنة إذ تأخذ في حسبانها نمو الطفل وتتفادى بذكاء الاخطار المحتملة .

وإني لأرى أن أهم تقدم تم إحرازه في مضمار تربية الطفل كان في فرنسا حيث أحلت الدولة محل كتاب التعليم الديني كتاباً في المبادىء العامة يزود الطفل بالمعلومات الاولى عن وضعيته المدنية وعن الواجبات الاخلاقية التي ستقع على عاتقه مستقبلاً . بيد ان تعليم المبادىء العامة هذه فيه من جوانب النقص ما يدعو الى الاسف ، وذلك من حيث انه لا يحيط ايضاً بميدان الحياة الجنسية . وهذه ثغرة يتعين على المربين والمصلحين ان يعملوا على سدها ! وبديهي أن شيئاً من هذا لا يمكن ان نطمح اليه في البلدان التي ما تزال التربية فيها بصورة كاملة أو جزئية بين ايدي رجال الدين . فرجل الدين لن يسلم أبداً بالتشابه في الماهية بين الانسان والحيوان ، لانه لا يستطيع ان يتنازل عن فكرة خلود النفس التي هو بأمس الحاجة اليها ليقيم

(٩) التثبيت او سر الميرون عند المسيحيين : طقس ديني يقام للطفل في اعمار مختلفة بحسب التقاليد ، وقبيل البلوغ عند بعض الاوروبيين ، لتثبيت معموديته . « م » .

المطلب الاخلاقي على أساس مكين . وهكذا يتضح لنا مرة أخرى كم نبعد عن الحكمة لو ارتضينا بسياسة الترقيع ، وكم يتعذر إنجاز إصلاح منفرد في جانب من الجوانب بدون تحويل أسس النظام برمته .

النظريات الجنسية الطفلية
(١٩٠٨)

ان المادة التي عليها بنينا الاطروحة التي ستلي جاءت من مصادر عدة . أولاً ، من الملاحظة المباشرة لما يقوله الاطفال ويفعلونه ؛ ثانياً ، مما يدلي به العصوبيون الراشدون من خلال ما يسوقونه في اثناء المعالجة التحليلية النفسية من ذكريات شعورية يحتفظون بها من عهد طفولتهم ؛ ثالثاً واخيراً ، من استنتاجات وفروض وذكريات لا شعورية تساق الى الشعور ويتم الحصول عليها بواسطة التحليل النفسي للعصوبيين .

ان يكن أول هذه المصادر الثلاثة غير كاف بحد ذاته لنقيم على اساسه معرفة كاملة بموضوعنا ، فإنما ذلك بسبب سلوك الراشدين ازاء حياة الاطفال الجنسية . فهم لا يقرون لهم بأي نشاط جنسي ، وبالتالي لا يجشمون أنفسهم مشقة ملاحظته لديهم . ويقمعون من الجهة الاخرى ما قد يسترعي الانتباه من تظاهرات هذا النشاط عينه . وهذا ما يضيّق علينا السبيل الى الاستقاء من معين هذا المصدر الذي هو أصفى المصادر واغزرها . اما فيما يتصل بالمعلومات البريئة من كل تاثير ، التي يزودنا بها الراشدون بصدد ذكرياتهم الطفلية الشعورية ، فمن الممكن توجيه اعتراض اساسي اليها ، وهو أنه ربما أصابها تزوير استرجاعي ، غير أن هذه المادة سيجري تقييمها ، على كل حال ، على

ضوء واقعة محددة وهي أن اولئك الذين يقدمونها لنا كافلين صحتها قد سقطوا لاحقاً ضحية العصاب . اما مادة ثالث المصادر فستنهال عليها كل الانتقادات المعهودة : فالتحليل النفسي ليس مما يوثق به ، كما لا يمكن التسليم بصحة الاستنتاجات التي ينتهي اليها . ولا يسعني هنا بطبيعة الحال أن أضع على حجر المحك صحة مثل هذا الحكم ، ولكن يسعني بالمقابل ان اؤكد أن جميع اولئك الذين يعرفون التقنية التحليلية النفسية ويمارسونها يثقون ثقة عميقة بنتائجها .

لست مستطيعاً ان أجزم ان نتائجي كاملة ، لكن في مقدوري فقط ان أنوه بما بذلته من جهد للظفر بها .

تبقى مسألة شائكة ، وهي أن نقرر الى اي مدى يباح لنا ان نعزو الى الاطفال جميعاً ، أي إلى كل طفل على حدة ، ما ننقله هنا عن الاطفال بصفة عامة . فمن المحقق ان ضغط التربية وتفاوت شدة الغريزة الجنسية يمكن ان يتمخضا عن فروق فردية كبيرة في سلوك الطفل الجنسي ، وأن أثرهما سيبرز بوجه خاص في الزمن الذي يظهر فيه اهتمام الاطفال بالجنس . ولهذا لم اقسم عرضي هذا بحسب اطوار الطفولة المتعاقبة ، بل اعدت تجميع ما يؤتي مفعوله في زمن متفاوت التبكير تبعاً للاطفال . وإني لعلى اقتناع على كل حال بأن ما من طفل - ان كان على الاقل صحيح العقل أو حتى على قدر من الذكاء - إلا وتشغله المشكلات الجنسية في سنوات ما قبل البلوغ .

إني لا اعير اهتماماً يذكر للاعتراض الذي يزعم ان العصوبيين يؤلفون فئة خاصة من الافراد يتسم المنتمون اليها بجبلّة انحطاطية وينبغي الامتناع بالتالي عن استخلاص نتائج معينة من طفولتهم لتعميمها على طفولة سائر الافراد .فالعصوبيون اشخاص كغيرهم من الناس ، وليس من الميسور دائماً تمييزهم بسهولة في طفولتهم عمن سيبقون في طور لاحق من العمر أصحاء معافين . وان واحدة من أثمن

النتائج التي أوصلتنا إليها مباحثنا التحليلية النفسية هي ان العصوبيين لا ينطوون على مضمون نفسي خاص ، وقف عليهم دون سواهم ، بل ان العقد التي تتسبب في مرضهم ، كما يقول ك . غ . يونغ(1) ، هي العقد عينها التي تقاومها ونكافحها . نحن الاصحاء الاسوياء من الناس . والفارق الوحيد ان الاشخاص الاصحاء يعرفون كيف يسيطرون على هذه العقد دونما أضرار جسيمة قابلة للكشف عنها عملياً ، بينما لا يفلح العصوبيون في قمع هذه العقد إلا مقابل تشكيلات بديلة باهظة الكلفة ، أي أنهم لا يفلحون في ذلك عملياً . أضف الى ذلك ان العصوبيين والاسوياء أقرب الى بعضهم بعضاً في طفولتهم مما سيكونون عليه في طور لاحق ، بحيث لا أستطيع أن أزعم أنه خاطىء ذلك المنهج الذي يفيد مما يقوله العصوبيون عن طفولتهم ليستخلص ، قياساً عليها، استنتاجات بصدد الحياة الطفلية السوية . ولكن بما أن عصابيي الغد يشفّون في جبلاتهم في اكثر الاحيان عن غريزة جنسية بالغة القوة وعن نزوع الى التبكير ، أي الى التعبير قبل الاوان عن هذه الغريزة ، فإنهم سيتيحون لنا ان نعاين على نطاق واسع النشاط الجنسي الطفلي ، وعلى نحو أحدّ وأجلى مما هو متاح في العادة لمقدرتنا على الملاحظة في قبالة غيرهم من الاطفال . ومهما يكن من أمر ، فإنه سيعز علينا أن نقدِّر القيمة الفعلية للمعلومات التي يزودنا بها راشدون معصوبون ما لم نتلقَّ ونجمع أيضاً ذكريات طفولة الاصحاء من الراشدين ،

---

(1) كارل غوستاف يونغ : طبيب عقلي سويسري (١٨٧٥ ـ ١٩٦١) ، عمل في أول الامر مع جانيت وبلولر ، ثم مع فرويد . وقد أسس في سنة ١٩١٠ الرابطة الدولية للتحليل النفسي . والصداقة التي توثقت عراها بينه وبين فرويد رشحته لأن يكون خليفته في يوم من الايام . لكنه ما لبث أن اختلف مع فرويد (١٩١٢) الى حد القطيعة . وقد صب جهوده على دراسة الرمزية والميتولوجيا والظاهرات الثقافية . وقال بـ « اللاشعور الجمعي » ، وفسر الليبيدو على انه الطاقة الحيوية ، لا الطاقة الجنسية فحسب . وكان هو الذي أوجد مصطلح « العقدة » الذي ذاع تداوله في التحليل النفسي . « م » .

على منوال هافلوك ايليس .

ان ظروفاً خارجية وداخلية غير مواتية قضت بأن تكون المعلومات التي سأعرضها متصلة بصورة رئيسية بالتطور الجنسي لجنس واحد ، هو الجنس المذكر . غير أن عرضاً كهذا الذي أقوم به هنا لا يقتصر بالضرورة على قيمته الوصفية الخالصة . فمعرفة النظريات الجنسية الطفلية ، ومعرفة الاشكال التي تتلبسها في رأس الاطفال ، يمكن ان تكون مفيدة من اكثر من زاوية ، بل مفيدة ايضاً الى حد مدهش في تفهمنا للأساطير والحكايات . على أن معرفة كهذه لا غنى عنها على الاطلاق لتصور طبيعة الاعصبة بالذات : فهنا تبقى النظريات الطفلية سارية المفعول ويكون لها تصيب غالب في الشكل الذي ستتجلى به الاعصاب .

❋ ❋

لو كان في مقدورنا ان نتعتق من شرطنا الجسماني ، وان نرى ، وقد تحولنا الى كائنات مفكرة خالصة قدمت ـ مثلاً ـ من كوكب آخر ، الى اشياء عالمنا هذا بعيون جديدة ، فلربما لن يستوقف انتباهنا شيء كأن نعاين وجود جنسين بين الكائنات البشرية : جنسين يضخمان ، على تشابههما العظيم ، الفروق بينهما بالأمارات والعلامات الخارجية . والحال أنه لا يلوح ان الاطفال يختارون هم أيضاً هذه الواقعة الأساسية منطلقاً لأبحاثهم بصدد المشكلات الجنسية . فبما أنهم يعرفون آباءهم وأمهاتهم منذ أقدم زمن يمكن أن تعيه ذاكرتهم ، فإنهم يسلمون بوجودهم كواقع لا مجال لمزيد من التنقيب فيه ، والصبي يسلك المسلك نفسه ازاء أخت صغيرة له لا يفصلها عنه سوى فارق طفيف لا يتعدى السنة او السنتين . وفي حال كهذه فإن فضول الاطفال الى المعرفة لا يستيقظ من تلقاء نفسه كما لو أنه حاجة طفلية الى السببية ، وانما تشحذه الغرائز الاناتية التي تسيطر عليهم متى ما وجدوا أنفسهم ـ

لنقل بعد ختام سنتهم الثانية ـ في مواجهة طفل جديد يأتي الى الدنيا . اما الاطفال الذين ما وقع نظرهم قط على طفل غريب جاء يحتل مكانه في غرفة نومهم ، فإنهم قادرون بدورهم ، بما يتأتى لهم أن يلاحظوه في بيوت اخرى ، على ان يضعوا انفسهم في الموقف نفسه . وبانتهاء تلك المرحلة التي كان فيها والداه يقفان عليه كل عنايتهما ، وسواء أعاش هذه النهاية فعلاً ام توجس منها خيفة بحق ، فإن إرهاصه بأنه سيتوجب من الآن فصاعداً ، والى الابد ، أن يشاطر القادم الجديد كل ما يملكه سيوقظ لديه ، ولا بد ، حياة الوجدان وسيشحذ قدرته على التفكير . ويبدي الطفل الاكبر سناً حيال مزاحمه عداء لا يخفي نفسه ، بل يفرّج عنه من خلال أحكام لا دماثة فيها ولا وداعة ، ومن خلال رغبات كهذه : « ليأخذه اللقلق » ، وما شابه ؛ وقد لا يحجم حتى عن محاولة الاعتداء على حياة ذلك الراقد في مهده الذي لا حول له ولا قوة . وبصفة عامة ، ان كان فارق العمر كبيراً جاء التعبير عن هذا العداء الأولي أقل حدة ؛ كذلك فإنه اذا ما تقدم العمر بالطفل قليلاً ولم يأته اخ أو أخت ، فقد ترجح لديه كفة الرغبة في رفيق يشاركه اللعب ، على نحو ما تأتى له ان يلحظ ذلك في بيوت اخرى .

بحافز من هذه المشاعر ومن هذه الهموم ، يطفق الطفل ابتداء من ذلك الحين بالاهتمام بمشكلة الحياة الأولى والكبرى ويطرح على نفسه السؤال التالي : **من اين يأتي الاطفال** ؟ وهو سؤال يعني في الحقيقة أول ما يعنيه : من اين جاء ، بوجه خاص ، هذا الطفل الذي عكر علي صفوي ؟ وان صدى هذا السؤال ـ اللغز الكبير يترجّع ، على ما يتراءى لنا ، في عدد كبير من الغاز الاساطير والخرافات ؛ بل ان السؤال نفسه هو ، مثله مثل كل بحث ، نتاج لإلحاحية الحياة ؛ كما لو ان الفكر أنيطت به مهمة تلافي تكرار تلك الخبرات التي هي مبعث جزع شديد . لكن لنفترض ان فكر الطفل انعتق بسرعة من تأثير

المشاعر والهموم ، وتابع اشتغاله كغريزة بحث وحب استطلاع مستقلة . فإن لم يكن الطفل تعرض لتخويف مبالغ فيه ، فإنه مهتدٍ عاجلاً أو آجلاً الى الطريق الاقصر : طلب جواب من والديه أو من الاشخاص الذين يمثلون بالنسبة اليه مصدر العلم والمعرفة . لكن هذا طريق مسدود . فالطفل يفوز إما بجواب تهربي وإما بتوبيخ على رغبته في المعرفة ؛ أو قد يتم التخلص منه بجواب ذي هالة ميتولوجية مؤداه ، كما الحال في البلدان الجرمانية ، ما يلي : ان اللقلق هو الذي يأتي بالاطفال ، وإنه يذهب للاتيان بهم من الماء . ولي من الاسباب ما يحملني على الافتراض أن عدد الاطفال الذين لا يقنعهم هذا الحل اكبر بكثير مما يتصور الاهل ، وأن هذا الجواب يقابل منهم بشك قوي ، حتى وان لم يجهروا به دوماً . وإني أعرف طفلاً ، له من العمر سنوات ثلاث ، ما ان تلقى تفسيراً كذاك حتى اختفى عن الانظار ، على هلع شديد من مربيته : وقد عثر عليه فيما بعد عند حافة المستنقع الكبير المجاور للقصر حيث هرع يبحث عن الاطفال في الماء . واعرف طفلاً آخر ما كان في وسعه ان يسمح لشكه بتجاوز حدود معلومة : فهو يعلم أن ليس اللقلق هو الذي يأتي بالاطفال ، وانما ... مالك الحزين . ويلوح لي من كثير من المعلومات التي تجمعت عندي ان الاطفال يأبون تصديق نظرية اللقلق ، ولكنهم بعد أن يُخدعوا ويُصدوا لمرة اولى تبدأ تنتابهم الشكوك والظنون بأن في الامر شيئاً محظوراً يحتفظ به « الكبار » لأنفسهم . ولهذا السبب يحيطون بحوثهم اللاحقة بالسرية . ولكنهم بذلك يكونون قد عاشوا اول موضوع لـ « صراع نفسي » ، وهذا بقدر ما تتواجه آراء يذهب اليها تفضيلهم المبني على إحساس غريزي ، ولكنها ليست « حسنة » في نظر الكبار ، مع آراء أخرى مبنية على سلطة هؤلاء « الكبار » ، ولكنها ليست مناسبة لهم ، هم الصغار . وقد يتحول هذا الصراع النفسي سريعاً الى « انفلاق نفسي » ، إذ يغدو

أحد الرأيين ـ وهو ذاك الذي يتمشى مع « طيبة » الصبي الصغير وان اقتضى إيقاف التفكير ـ هو الرأي الواعي السائد ، على حين ان الراي الثاني ، الذي يكون عمل البحث والتنقيب قد رفده اثناء ذلك بأدلة جديدة ولكن محرومة من حقها في أن تؤخذ بعين الاعتبار ، يمسي هو الرأي المقموع ، « اللاشعوري » ، وعن هذا السبيل تتكون عقدة العصاب النووية .

لقد اتاح لي مؤخراً تحليل صبي صغير في ربيعه الخامس(٢) ـ وهو تحليل شرع به أبوه قبل أن يضعه في متناولي لانشره ـ ان اتحقق على نحو غير قابل للدحض من صحة فكرة طالما كانت ساقتني إليها التحاليل النفسية للراشدين . فأنا أعلم الآن أن التحول الذي يطرأ على الأم في فترة الحمل لا يدق عن نظر الطفل الثاقب ، وأن الطفل قادر تماماً خلال فترة من الزمن على استشفاف العلاقة الصحيحة بين تضخم جسم امه وبين مجيء طفل جديد . وفي الحالة المشار اليها كان الصبي الصغير قد بلغ من العمر ثلاثة اعوام ونصف عام حين ولدت اخته ، وأربعة أعوام وتسعة أشهر حين بدر منه من التلميحات التي لا يكاد يتطرق اليها الشك ما ينمّ عن أنه عارف بالحقيقة . بيد ان هذا الاكتشاف الذي توصل إليه في زمن مبكر للغاية ظل محفوظاً في دخيلة نفسه ، ثم ما لبث ان كُبِت ونُسي فيما بعد ، بالتوازي مع المصائر اللاحقة للبحث الجنسي عند الطفل .

هكذا نرى أن « خرافة اللقلق » لا تجد محلاً لها بين النظريات الجنسية الطفلية : بل على العكس من ذلك ، فملاحظة الحيوانات ، التي نادراً ما تخفي حياتها الجنسية والتي يشعر الطفل أنه قريب منها غاية القرب ، تعزز شكوك الطفل وريبه . وما ان يكتشف الطفل بعد

(٢) هو هانز الصغير الذي تقدمت الاشارة اليه في المقال السابق . « م » .

ذلك ان الوليد يتكون وينمو في جسم الام ـ وهو يتوصل الى هذا الاكتشاف ايضاً بصورة مستقلة ـ حتى يكون الطريق قد أمسى امامه ممهداً لحل المعضلة التي كان جعلها من اول الأمر محكاً لقوة تفكيره . بيد أنه يتعطل عن كل تقدم لاحق بفعل جهل لا سبيل الى تمويهه والتلطيف منه بشيء ، ومن جراء نظريات يفرضها عليه فرضاً المستوى الذي وصل اليه تطور جنسيته بالذات .

ان هذه النظريات الجنسية التي سأتناولها بالفحص الآن تتصف جميعها بسمة لافتة للنظر . فعلى الرغم من ضلالها الفاضح ، فإن كل نظرية منها تحتوي على شذرة من الحقيقة الخالصة ؛ وهي مشابهة من هذا المنظور لتلك الحلول التي توصف بانها « عبقرية » والتي يحاول الراشدون أن يجدوها للمعضلات التي يطرحها الوجود والتي تتجاوز العقل البشري . وأما هذا الجانب السديد والصحيح منها فمرده الى ان تلك النظريات نشأت في أصلها عن مقومات الغريزة الجنسية التي تفعل فعلها في بدن الطفل ايضاً : والحق أن فرضيات كتلك لم تأت نتيجة لقرار نفسي عسفي أو لصدفة الانطباعات والخبرات ، بل تولدت عن مقتضيات الجبلّة الجنسية ـ النفسية ؛ ولهذا يسعنا ان نتكلم عن نظريات جنسية طفلية نمطية ، ولهذا ايضاً نلتقي تصورات مغلوطة واحدة لدى جميع الاطفال الذين يكون لنا الى حياتهم الجنسية منفذ .

ترتبط أولى هذه النظريات بواقعة إغفال الفوارق بين الجنسين ، وهو الاغفال الذي ذكرنا من البداية انه السمة المميزة لموقف الطفل . إن هذه النظرية تنسب الى **جميع الكائنات الانسانية** ، **بمن فيها الكائنات الانثية** ، **قضيباً** ، كذاك الذي يعرفه الصبي الصغير من خلال جسمه بالذات . وفي هذا التكوين الجنسي الذي يفترض بنا أن نعده « سوياً » ، يمثل القضيب بالنسبة الى الطفل منذ ذلك الحين المنطقة

الشهوية القائدة ، الموضوع الجنسي الايروسي الذاتي الاولي ، والقيمة التي يخلعها عليه تجد انعكاسها المنطقي في عدم قدرته على تصور شخص مشابه لذاته بدون ذلك العنصر الاساسي . فحين يقع نظر الصبي الصغير على الاجزاء التناسلية لاخت صغيرة له ، تنمّ عباراته عن أن حكمه المسبق والمنحاز قد استحكم لديه بما يكفي للتعسف في تأويل الادراك البصري ؛ فبدلاً من أن يتحقق من فقدان العضو لدى اخته ، يقول بصورة **مطردة وقياسية** ، وعلى سبيل المواساة والمصالحة : السبب في ذلك أنه ... ما يزال صغيراً ؛ لكنها يوم ستكبر ، سيكبر معها . ويعاود تصور المرأة ذات القضيب ظهوره لاحقاً في أحلام الراشد : ففي حالة من التهيج الجنسي الحلمي يبطح ارضاً امرأة ما ويعريها من ثيابها ، ويهم بالجماع ، فإذا بمرأى قضيب تام تمام النمو محل الاعضاء التناسلية الانثية يضع حداً للحلم وللتهيج . والخناثى الكثيرات اللائي تعج بهن آداب العصور القديمة الكلاسيكية يقدمن نسخة طبق الاصل عن هذا التصور الذي لا مفر من ان يكون تمثّل لكل طفل في يوم من الايام . وبوسعنا ان نلاحظ ان هذا التصور لا يجرح مشاعر غالبية الناس العاديين. على حين ان الاشكال الخنثية للاعضاء التناسلية التي تسمح الطبيعة أحياناً بإنتاجها بصورة واقعية تقابل من الناس بأشد النفور في الغالب .

إذا « تثُبت » تصور المرأة ذات القضيب هذا لدى الطفل ، وقاوم جميع المؤثرات الحياتية اللاحقة ، وقضى على المرء بالعجز عن التخلي عن القضيب لدى موضوعه الجنسي ، فإن هذا الفرد لا مندوحة له ، حتى ولو قاد حياة جنسية سوية ، عن ان يصير جنسياً مثلياً وعن ان يبحث عن مواضيعه الجنسية بين الذكور الذين يذكرونه ، بما يتصفون به من سمات بدنية ونفسية اخرى ، بالمرأة . اما المرأة الواقعية ، المرأة كما سيتعرفها في طور لاحق من عمره ، فستبقى على

الدوام مستحيلة بالنسبة اليه كموضوع جنسي ، لانها تفتقد الى عنصر الاثارة الجنسية الاساسي ، بل قد تغدو موضوع كره ومقت عنده ان اقترنت صورتها بخبرة اخرى من خبرات الطفولة . والطفل الذي يتسلط عليه في المقام الاول تهيج القضيب لا يلبث ان يتعود على اجتناء لذة من تهييج هذا القضيب بيده ؛ فإن ضبطه أهله او الاشخاص الذين يقومون على أمره متلبساً بهذا الجرم توعدوه بقطع عضوه فتمتلىء نفسه ذعراً . ويتناسب مفعول هذا « التهديد بالخصاء » مع القيمة المعزوة الى هذا الجزء من الجسم : ومن ثم يكون بالغ العمق ودائم الأثر . وتنطق الاساطير والخرافات بما يعتمل في حياة الطفل الوجدانية من تمرد وثورة ، وتنم عن مشاعر الرعب المرتبطة بعقدة الخصاء ؛ ولسوف يبقى الوعي في طور لاحق من العمر على نفوره من تذكر هذه العقدة . والحال أن أعضاء المرأة التناسلية متى ما وقع نظر الجنسي المثلي عليها في زمن لاحق وتمثلت في تصوره مبتورة منقوصة ، أيقظت في نفسه ذلك التهديد ، فاستكره مرآها بدل ان ان يلتذ به . ولا سبيل الى تغيير اي شيء في رد الفعل هذا ، حتى ولو تأكد الجنسي المثلي عن طريق العلم من ان فرضيته الطفلية ، التي تصور بموجبها ان للمرأة ايضاً قضيباً ، ليست سخيفة ولا متهافتة الى الحد الذي كان يظن . فقد أقر علم التشريح بأن البظر ، في داخل الفرج ، هو العضو المناظر للقضيب،كما امكن لعلم وظائف أعضاء العمليات الجنسية ان يضيف ان هذا القضيب الصغير ،الذي لا يكبر،يسلك في طفولة المرأة فعلاً كما لو أنه قضيب حقيقي:فهو مركز الإثارات التي تدفع بالبنت الصغيرة الى لمسه ، وقابليته للتهيج تخلع على نشاط البنت الجنسي طابعاً ذكرياً ، ولا بد في سنوات البلوغ من موجة كبت وقمع لتتمكن المرأة من الظهور بعد إجلاء هذه الجنسية الذكرية . والحال ان الوظيفة الجنسية مصابة لدى الكثيرات من النساء بالضمور ، إما لأن

البظر حافظ بعناد على قابليته للتهيج ، فيبقين باردات الحس في اثناء الجماع ، وإما لأن الكبت اشتط اكثر مما ينبغي ، مما يلغي شطراً من مفعوله عن طريق تشكيل هستيري من البدائل . وهذا كله ليس من شأنه ان يطعن في صحة النظرية الجنسية الطفلية التي تفترض ان المرأة ، مثلها مثل الرجل ، تحوز قضيباً .

من اليسير علينا ان نلاحظ ان البنت الصغيرة تشاطر أخاها تقديره تماماً ؛ فهي تبدي اهتماماً كبيراً بذلك الجزء من جسم الصبي الصغير ؛ لكن سرعان ما يقلب على هذا الاهتمام الحسد . فالبنت الصغيرة تشعر انها مغبونة ، وتقوم بمحاولات للتبول بنفس الوضعية التي يتبول بها الصبي الصغير بحكم امتلاكه القضيب الكبير ؛ وحين تقمع في نفسها هذه الرغبة : كم كنت أحبذ لو كنت صبياً ، فإننا نعلم ما النقص الذي يفترض بهذه الرغبة ان تتداركه .

لو كان في مقدور الطفل ان يتبع ما يشير به عليه تهيج القضيب ، لاقترب قليلاً من حل المعضلة التي تؤرقه . فأما أن الطفل ينمو في جسم الأم فما هذا ، كما هو بادٍ للعيان ، بتفسير كافٍ . إذ كيف يدلف اليه ؟ وما الذي يعطيه إشارة البدء بالنمو ؟ وأما أن للأب ضلعاً بالامر ، فهذا قريب الاحتمال ، ولاسيما أنه يقول ان الطفل هو ايضاً طفله[٣] . ومن جهة اخرى ، فإن للقضيب ايضاً ، بدون ادنى ريب ، نصيبه في تلك العمليات الغامضة ، والشاهد على ذلك ما يطرأ عليه من تهيج طوال فترة إعمال الفكر . وترتبط بهذا التهيج نوازع قهرية لا يملك لها الطفل تأويلاً ؛ نوازع غامضة ، مبهمة ، الى إتيان فعل من افعال العنف : الولوج ، التحطيم ، ثقب ثقوب في كل مكان . ولكن ما يكاد الطفل يهم على هذا النحو بسلوك الطريق الصحيح بأن

(٣) انظر بصدد هذه النقطة تحليل طفل في الخامسة من العمر (« هانز الصغير ») .

يصادر على وجود المهبل ويتعرف في فعل ولوج قضيب الأب في الأم الفعل الذي به يتكون الطفل في جسم الأم ، حتى يتوقف عند هذه النقطة عن البحث وقد أسقط في يده : فهذا البحث يصطدم بالنظرية التي تنص على ان الام تحوز قضيباً نظير الرجل ، ومن ثم يبقى الطفل على جهل بالتجويف الذي يستقبل القضيب . وقد يطيب للناس ان يعتقدوا ان إخفاق الطفل في مجهوده التفكيري يسهل عليه نبذ هذا التفكير ونسيانه . غير ان هذا الاجترار الفكري وهذا الشك هما في الواقع النموذج الاول المحتذى لكل عمل فكري لاحق يتصل بحل المعضلات . والفشل الاول يكون له مفعول شالٌ على مدى العمر .

ان الجهل بوجود المهبل يحكم ايضاً على ثانية النظريات الجنسية بالعجز عن الفوز باقتناع الطفل . فإن كان الطفل ينمو في جسم الام ثم يخرج منه ، فليس لذلك سوى سبيل واحد ، وهو الفتحة المعوية . **فالطفل لا بد على هذا الاساس ان يُفرغ كما يُفرغ الغائط او البراز** . وان عاد الطفل في السنوات التالية الى تقليب السؤال عينه على وجوهه بينه وبين نفسه ، أو تناقش بصدده مع طفل آخر ، فقد تظهر عندئذ الى حيز الوجود معلومات جديدة ، ومنها الافتراض ان الطفل يخرج من السرة التي تنفتح او ان البطن تُشق ليستخرج منها الطفل ، على نحو ما يقع للذئب في حكاية الفتاة ذات القبعة الحمراء . ويفصح الاطفال عن هذه النظريات جهاراً ويحتفظون منها فيما بعد بذكرى شعورية ؛ فلا تعود تحتوي على ما يصدم المشاعر . وهؤلاء الاطفال انفسهم ينسون عندئذ أنهم كانوا يؤمنون في السنوات السابقة بنظرية أخرى عن الولادة ينتصب في سبيلها الآن عائق حديث الظهور ، هو عائق كبت المقومات الجنسية الشرجية . فمن قبل كان البراز شيئاً يمكن الكلام عنه بلا خجل في حجرة الاطفال ، ولم يكن الطفل يومذاك يقف بمنأى الى هذا الحد عن نوازعه الجبلّية المحبة

للبراز ؛ ولم يكن بالتالي من المهانة له ان يأتي الى العالم مثلما تأتي كومة من كومات الروث التي لم يقم دونها بعد حاجز القرف والتقزز . والحق أن النظرية المخرجية[4] ، التي تبقى صحيحة بالنسبة الى ضروب عدة من الحيوان ، كانت النظرية الوحيدة الاقرب الى الطبيعة التي امكن لها ان تفرض نفسها على الطفل باعتبارها قريبة من الحقيقة .

لكن كان من المنطقي تماماً في هذه الحال ان ينكر الطفل على المرأة امتياز الإنجاب المؤلم . فلئن كان الاطفال يأتون الى الدنيا عن طريق الشرج ، فبوسع الرجل ان ينجب مثله مثل المرأة . ومن ثم يستطيع الصبي الصغير بدوره أن يتوهم أنه ينجب هو الآخر أطفالاً دون أن يكون ثمة داعٍ لأن نعزو اليه بسبب ذلك ميولاً مؤنثة . فهو بذلك لا يدلل إلا على الحضور الذي لا يزال فعالاً لإيروسيته الشرجية .

ان لبثت نظرية الولادة المخرجية مقيمة في الشعور في السنوات التالية للطفولة ، وهذا يحدث احياناً ، فإنها تحمل معها ايضاً حلاً للمسألة المتصلة بأصل الاطفال ، لكنه يكون هذه المرة حلاً لا يتصف من الأصالة بشيء . فالامور تجري هنا كما في الحكايا . فحسب المرء ان يأكل شيئاً بعينه حتى ينجب طفلاً . والمريضة العقلية تبث الحياة من جديد في تلك النظرية الطفلية عن الولادة . ومثل ذلك أن مريضة بالهوس اقتادت الطبيب حين كان يقوم بجولته الى ركن في زنزانتها حيث وضعت كومة من البراز ، وقالت له ضاحكة : « هوذا الطفل الذي انجبته اليوم » .

اما ثالثة النظريات الجنسية النمطية فتخطر للاطفال حين يتسنى لهم ، بطريق المصادفة البيتية ، ان يشهدوا عملية الاتصال الجنسي

(٤) نسبة الى المخرج : وهو الفتحة المشتركة للمسالك البولية والمعوية والتناسلية لدى بعض الفقاريات ، وبخاصة الطيور . « م » .

بين والديهم ، أو بتعبير أصح اجزاء منقوصة منها . ومهما يكن الجزء الذي يعرض منها في هذه الحال لإدراكهم ـ وضعية كل من الوالدين ، الصوت الذي يصدر عنهما ، أو أي تفصيل آخر مشابه ـ فإن التصور الذي يتوصلون إليه في الاحوال جميعاً هو ذاك الذي يمكن لنا ان نسميه **التصور السادي للجماع** : فهم يرون الى الجماع وكأنه عملية عنف يفرضها الطرف الاقوى على الطرف الاضعف ، ويماثلون بينه ، وبخاصة الذكور منهم ، وبين تجربة المصارعة التي غالباً ما تقدم لهم صورة عنها العلاقات بين الاطفال ، والتي لا تخلو من مسحة من الاثارة الجنسية . وما تسنى لي أن اتحقق من ان الاطفال يتعرفون في ما لاحظوا وقوعه بين والديهم تلك القطعة الناقصة اللازمة لحل احجية الاطفال . بل تبدى لي ان الاطفال كانوا في غالب الاحيان يجهلون هذه العلاقة ، وذلك على وجه التحديد نتيجة لتأويلهم فعل الحب على انه فعل عنف . غير ان هذا التصور السادي للجماع يوحي هو نفسه وكأنه تكرار لذلك الدافع القهري الغامض الى مزاولة نشاط كان يرتبط ، في زمن التفكير الاول بلغز أصل الاطفال ، بتهييج القضيب . وليس لنا ان نستبعد كذلك احتمال ان يكون الدافع القهري السادي الاول ، الذي كاد الطفل يحزر معه سر الجماع ، قد ظهر هو نفسه تحت تأثير ذكريات أشد إبهاماً عن العلاقات بين الوالدين ، تلك الذكريات التي تلقى الطفل مادتها حين كان لا يزال يشاطر ، في سنوات طفولته الاولى ، والديه غرفة نومهما ، دون أن يكون قد اعطاها يومئذ قيمتها[5] .

(٥) يؤكد رتيف دي لا بروتون في سيرته الذاتية التي نشرها سنة ١٧٩٤ ، السيد نيقولا ، هذا التأويل السادي الخاطىء للجماع في اثناء كلامه عن انطباع يعود تاريخه الى السنة الرابعة من عمره .

ان هذه النظرية السادية عن الجماع التي ستضلل ، وقد عُزلت على هذا النحو ، البحث عند النقطة عينها التي كان سيسعه فيها الاهتداء الى ادلة ، ما هي بدورها إلا تعبير عن احد المقومات الجنسية الفطرية ، وهو مقوم يتفاوت في قوة ظهوره بحسب الاطفال ، ومن ثم فهي صحيحة الى حد ما : فهي تحزر جزئياً ماهية الفعل الجنسي وصراع الجنسين، الذي يسبقه . ولا يندر كذلك ان يتمكن الطفل من إسناد تصوره الى إدراكات حسية عارضة يلتقطها من جهة اولى بصورة صحيحة ، ولكنه يؤولها من الجهة الاخرى ومن جديد تأويلاً خاطئاً ، بل معكوساً . وبالفعل ، إن المرأة تنفر في العديد من الحالات من المجامعة الزوجية التي لا تعود عليها بأي لذة ، بل فقط بخطر حمل جديد : ومن الممكن في هذه الحال أن توحي الام للطفل المفروض فيه أنه مستسلم للرقاد (أو المتظاهر بالنوم) بانطباع لا سبيل الى تأويله حقاً إلا على أنه فعل دفاع ضد فعل عنف . وفي حالات اخرى ، فإن الزواج بجملته هو الذي يقدم للطفل المنتبه مشهد صراع مستديم تفصح عنه انفجارات صوتية حانقة وحركات عدوانية : ومن ثم لن يعجب الطفل ان استمر هذا الصراع ليلاً ايضاً وان استخدمت فيه الاساليب عينها التي يلجأ اليها في العادة مع علاقاته مع إخوته وأخواته أو مع رفاقه في اللعب .

وان وقع نظر الطفل على بقع دم في سرير والدته أو ملابسها الداخلية ، رأى فيها ايضاً توكيداً لتصوره . فهي عنده بمثابة دليل على ان والده ارتكب ليلاً عدواناً جديداً ضد الام ، على حين اننا نميل نحن الى تفسير بقعة الدم هذه على انها دليل بالاحرى على وقفة في العلاقات الجنسية . وان العديد من ظاهرات « الخوف من الدم » التي تبدو وكان لا تفسير لها لدى العصبيين قابلة في الواقع للتفسير على ضوء ذلك الربط . وخطأ الطفل هنا ينطوي مرة أخرى على شذرة من

الحقيقة : فبقعة الدم تكون بالفعل ، في بعض المواقف المعلومة ، بمثابة مؤشر الى العلاقة الجنسية الاولية .

وبالارتباط مع المعضلة التي لا حل لها ، معضلة معرفة من أين يأتي الاطفال ، يشغل الطفل فكره بمسألة اخرى : ما كنه تلك الحالة التي يوصف الفرد فيها بأنه « متزوج » ، وما مؤداها : وإجابته عن هذا السؤال تختلف باختلاف الكيفية التي يربط بها بين الانطباعات العارضة التي يمده بها والداه وبين الانطباعات التي تمده بها دوافعه الغريزية الخاصة والتي تكون موسومة بعد بقدر من اللذة . بيد ان القاسم المشترك بين هذه الاجابات كافة هو أن الطفل يتوقع من حالة التزوج إشباعاً لذياً ويفترض انه لا داعي بعدها للخجل من مثل هذا الاشباع . واكثر ما لاقيته من التصورات شيوعاً التصور الذي يفترض ان « الواحد يتبول امام الآخر » ؛ ومن صيغ هذا التصور واحدة تريد ان تسوق ، فيما يبدو ، المزيد من المعرفة في إطار رمزي : « الرجل يتبول في قصرية المرأة » . وفي أحيان أخرى يكمن معنى الزواج في ما يلي : « الواحد يري الآخر مؤخرته » (دونما خجل) . وفي حالة محددة أفلحت فيها التربية في تأخير المعرفة الجنسية زمناً طويلاً ، خطرت لفتاة في الرابعة عشرة من العمر ـ عرفت الحيض من زمن ـ فكرة ان حالة الزواج قوامها « خلط الدم » ، وبما أن اختها الصغيرة لم تكن قد حاضت بعد ، فقد حاولت المغتلمة الفتية الاعتداء على صديقة لها قدمت لزيارتها ـ وكانت قد سارّتها بأنها حائض ـ لترغمها على « خلط الدم » ذاك .

ان الآراء الطفلية بصدد طبيعة الزواج ، التي كثيراً ما تبقى محفوظة في الذاكرة الواعية ، لها أهمية كبيرة في تفهم الأعراض في حال الاصابة بعصاب لاحقاً . وأول ما تفصح هذه الآراء عن نفسها في العاب الاطفال حين يقلد هؤلاء حالة الزواج : وقد تتلبس الرغبة في

الزواج لاحقاً شكل تعبير طفلي ، فتتبدى في رهاب تتعذر معرفته على حقيقته في اول الأمر او في عرض متاظر[٦] .

تلكم هي في تقديري أهم النظريات الجنسيـة النمطية التي يبتدعها الاطفال بصورة عفوية في السنوات الاولى من طفولتهم ، غير متأثرين إلا بالمقومات الغريزية الجنسية وحدها . وإني أعلم أني ما وفقت الى تقديم مادة كاملة ، ولا إلى بيان علاقة هذه المادة ببقية حياة الطفل بياناً كاملاً ايضاً لا ثغرات فيه . على أنه بوسعي بعد أن استكمل هنا بعض النقاط التي لن يخفى ـ اذا لم أفعل ـ ما بها من نقص على كل شخص مطلع . ومن ذلك مثلاً النظرية المهمة التي تقول ان الطفل يُنجب عن طريق القبلة،وهي نظرية تشي في وضوح بغلبة الفم كمنطقة شهوية . وهذه النظرية ، على حد خبرتي ، وقف على الاناث حصراً ، وكثيراً ما نلتقيها كعامل مسبب للمرض لدى الفتيات التي خضـع لديهن البحث الجنسي لضـروب بالغـة القوة من الكف في طفولتهن . وقد توصلت احدى مريضاتي من خلال انطباع عارض الى نظرية « الترخيم » ؛ وهذه ، كما هو معلوم ، عادة دارجة لدى بعض الاقوام ، والغرض منها في ارجح الظن مقاومة الشك ، الذي لا يقطع دابره بتمامه أبداً ، بصدد الأبوة . فقد أقام خال تلك المريضة ، وكان لا يخلو من غرابة اطوار ، في البيت عدة ايام متوالية بعد ولادة طفله ، وكان يستقبل زواره بالروب دي شامبر ، ومن ثم استنتجت مريضتي ان الوالدين كليهما شاركا في الولادة ، وأنه كان عليهما بالتالي لزوم الفراش .

عند بلوغ الاطفال السنة العاشرة أو الحادية عشرة تبدأ تتوارد

(٦) أبعد ألعاب الاطفال دلالة بالنسبة الى العصاب اللاحق « لعبة الدكتور » ولعبة « البابا والماما » .

عليهم المعلومات المتصلة بالمسائل الجنسية ، فمن قيض له من الاطفال ان يترعرع في جو اجتماعي أقل ضغطاً وتزمتاً ، أو أتاحت له ظروف مواتية أن يلاحظ بعض الملاحظات ، لا يتردد في ان يروي للآخرين ما يعرفه ، لان ذلك يشعره بنضجه وتفوقه . وما يعلمه الاطفال عن هذا السبيل هو الحقيقة في اغلب الاحيان ، أي أنه يتكشف لهم على هذا النحو وجود المهبل ووظيفته . ولكن فيما عدا ذلـك فإن الشـروح والتفاسير التي يتناقلونها عن بعضهم بعضاً كثيراً ما يخالطها الخطأ وتُشحن برسابات من النظريات الجنسية الطفلية القديمة ، وهي لا تكون كاملة ابداً ولا كافية لحل المعضلة الاولى . فكما الجهل بالمهبل في اول الأمر ، فإن الجهل بالمني هو الذي يحول دون فهم المسألة برمتها . فالطفل لا يستطيع ان يرهص بأن مادة أخرى غير البول يفرزها عضو الرجل . ولا يندر ان تسخط « الفتاة البريئة » ، في ليلـة عرسهـا بالذات ، على زوجها لانه « يتبول فيها » . والمعلومات التي تتناهى الى الاطفال في سنوات ما قبل البلوغ تمد البحث الجنسي عندهم بزخم جديد ؛ غير ان النظريات التي يبتدعها الاطفال عندئذ لا تعود تتسم بتلك السمة النمطية والاصلية التي كانت تميز النظريات الابتدائية في الطفولة الاولى حين كان في مقدور المقومات الجنسية الطفلية ان تجد تعبيرها في نظريات دون ان يصيبها كف أو يطرأ عليها تحول . ولم تبد لي الجهود الفكرية اللاحقة لفك الالغاز الجنسية جديرة بأن تُجمع وتصنف : فهي ما عادت تلعب ذلك الدور الممرض الذي كان لها ان تلعبه فيما مضى . وبديهي ان وفرتها وقف في المقام الاول على طبيعة التفسير المتلقى . اما أهميتها فتكمن بالاحرى في كونها توقظ الآثار التي باتت لاشعورية من تلك المرحلة الاولى للاهتمام الجنسي ، بحيث لا يندر ان يرتبط بها نشاط جنسي استمنائي وشطر من الانفصال الوجداني عن الوالدين. ومن هنا كانت إدانة المربين الذين يرتئون ان

تفسيراً كذاك يعطى في تلك السنوات قمين بأن « يفسد » الاطفال .

ان من شأن بعض الامثلة ان توضح ما العناصر التي يتواتر ترددها في تاملات الاطفال المتأخرة بصدد الحياة الجنسية . فقد سمعت فتاة من زميلاتها في المدرسة أن الرجل يعطي المرأة بيضة ، فترخمها في جسمها . كما ان صبياً تناهى الى مسمعه ايضاً كلام عن البيضة ، فماثل بين هذه « البيضة » وبين اللفظ السوقي الذي يطلق على الخصية[٧] ، وراح يضرب اخماساً بأسداس ليعلم كيف يتأتى لمحتوى كيس الخصيتين ان يتجدد باستمرار . ويندر ان تقطع التفاسير شوطاً كافياً لوضع حد للشكوك الاساسية بصدد العمليات الجنسية . ومن ذلك ان البنات كثيراً ما يطرق أسماعهن قول من يقول ان الاتصال الجنسي لا يحدث إلا مرة واحدة ، ولكنه يدوم زمناً طويلاً جداً ، اربعاً وعشرين ساعة ، وان سلسلة الاطفال جميعاً تنتج عن هذه المرة الوحيدة ! وقد يداخلنا الاعتقاد بأن الطفل استقى معرفته في هذه الحال من عملية التناسل لدى بعض الحشرات ؛ غير انه لا شيء يؤيد صحة هذا الافتراض ، بل تبدو النظرية وكأنها ابتكار عفوي . وتجهل بنات أُخَر بفترة الحمل ، بالحياة في جسم الام ، فيفترضن ان الطفل يأتي الى الدنيا حالاً بعد ليلة المعاشرة الاولى . وقد اتخذ مرسيل بريفو[٨] في كتابه **رسائل نساء** من هذا الخطأ الذي تتورط فيه الفتاة موضوعاً لقصة شائقة . ويعسر علينا استنفاد موضوعات هذا البحث الجنسي المتأخر عند الاطفال أو عند المراهقين الذين لبثوا مقيمين عند الطور الطفلي ، وهي بالاجمال ليست عديمة الفائدة ، ولكنها تخرج عن

---

(٧) البيضة بالالمانية EI ،والخصية HODE ،ولكن العامة يسمون بالالمانية الخصية بيضة ، تماماً كما يفعل العامة بالعربية . « م » .

(٨) مرسيل بريفو : كاتب فرنسي (١٨٦٢ ـ ١٩٤١) ، له روايات سيكولوجية ، ومن أشهرها انصاف العذارى . « م » .

نطاق اهتمامي ، ولا يتعين علي هنا إلا ان أشير الى ان الاطفال يختلقون أشياء خاطئة كثيرة بغية نقض معرفة أقدم وأفضل لكنها باتت مكبوتة ولاشعورية .

ان الكيفية التي يتصرف بها الاطفال ازاء المعلومات التي تعطى لهم لها أهميتها هي الاخرى . فالكبت الجنسي يكون قد قطع لدى العديدين منهم شوطاً قصياً ، فتتلاشى لديهم الرغبة في سماع أي شيء ، ويفلحون في البقاء على جهلهم حتى في السنوات اللاحقة ، ظاهرياً على الاقل ، إلى أن يزيح التحليل النفسي للمعصوبين النقاب عن المعرفة النابعة من الطفولة الاولى . وإني أعرف ايضاً اثنين من الصبيان ، واحدهما في العاشرة وثانيهما في الثالثة عشرة من العمر ، تلقيا بكل تأكيد شروحاً جنسية ، ولكنهما ردا دعوى حامل المعلومات اليهما بقولهما : من الممكن ان يتصرف ابوك وغيره هذا التصرف ، لكنني على يقين تام بأن أبي لن يقدم على فعل شيء من هذا . على أنه مهما تنوعت مسالك الاطفال المتأخرة هذه حيال إشباع حب الاستطلاع الجنسي الى المعرفة ، فمن المباح لنا ، فيما يتصل بسنوات الطفولة الاولى ، ان نصادر على وجود سلوك متشاكل تماماً ، وأن نفترض أنهم كانوا في ماضي أيامهم يبذلون أشق الجهود ليكتشفوا ما يفعله الوالدان معاً كيما يأتي الاطفال .

الاخلاق الجنسية « المتحضرة » والمرض العصبي في الازمنة الحديثة (١٩٠٨)

يركز ف . اهرنفلز EHRENFELS في كتابه الصادر حديثاً **الاخلاق الجنسية**[1] على الفارق بين الاخلاق الجنسية « الطبيعية » والاخلاق التي يقال لها « المتحضرة » . وفي رأيه ان الاخلاق الجنسية « الطبيعية » هي تلك التي تتيح لقوم من الاقوام البشرية ان يحافظ بصورة مستديمة على عافية جيدة وعلى مقدرته على الحياة ، على حين ان الاخلاق الجنسية « المتحضرة » هي تلك التي تحفز من يتقيدون بها على بذل مجهود ثقافي كثيف ومنتج . والمقارنة بين الخاصية **التكوينية** والخاصية **الثقافية** لدى شعب من الشعوب قمينة بأن تبرز أسطع الإبراز هذا التضاد . وإني إذ أحيل القارىء الى كتاب ف . اهرنفلز مباشرة ليصل الى تقييم افضل لهذا التيار المهم من تيارات الفكر ، أود هنا ان أستخلص منه فقط ما يمكن ان يتصل بمساهمتي الخاصة .

إنه لمن اليسير أن نفترض أن الافراد ، متى ما سادت أخلاق جنسية متحضرة ،اصطدموا بمعوقات شتى تبهظ بوطأتها على صحتهم ومقدرتهم على الحياة ، وأن الأذى الذي يتحمله هؤلاء الافراد من جراء التضحيات المفروضة عليهم يبلغ في خاتمة المطاف درجة يشكل معها خطراً يتهدد بصورة غير مباشرة هدفهم الثقافي . ويعزو ف . اهرنفلز ايضاً الى الاخلاق الجنسية السائدة في مجتمعنا الغربي المعاصر جملة بكاملها من الأضرار ، ولا يجد محيصاً عن تحميل تلك تبعة هذه . ولئن اقر بانها مسوغة تماماً من أجل تقدم الحضارة ، فإنه يرى ايضاً أن إصلاحها ضرورة لازبة . وعنده ان السمة المميزة للاخلاق الجنسية المتحضرة المهيمنة علينا هي إخضاع حياة الرجل الجنسية لمطالب الجنس المؤنث وشجب كل صلة جنسية غير الصلة الجنسية الزوجية في اطار الزواج الاحادي . وصحيح بعد ذلك أن أخذ الفارق الطبيعي بين الجنسين بعين الاعتبار يحتُم الاعتدال في معاقبة الرجل على زيغه والتسليم له بازدواجية الاخلاق كامر واقع . بيد ان مجتمعاً يعرِّض نفسه للشبهة بحكم هذه الاخلاق المزدوجة لا يمكنه ان يدفع بـ « حب الحقيقة والاستقامة والانسانية »[2] الى ما وراء حد ضيق معلوم ، ويكون لزاماً عليه ان يحرض أعضاءه على تمويه الحقيقة وعلى صبغ الاشياء بصبغة زاهية كاذبة وعلى خداع أنفسهم وخداع الآخرين . ومما يزيد في ضرر الاخلاق الجنسية المتحضرة انها تشل ، بحكم تبريرها للزواج الاحادي ، عامل **الانتخاب الذكوري** ، وهو العامل الوحيد الذي يمكن لنا ان نتوقع ان يكون له تاثيره الايجابي على تحسين التكوين الجبلِّي للانسان ، على اعتبار ان **الانتخاب الحيوي** مقلَّص الى اضيق حدوده لدى الشعوب المتحضرة باسم حب الانسانية وعلم الصحة .

والحال ان طبيبنا يغفل ، في تعداده للأضرار التي يلقي بتبعتها

(١) **مسائل اساسية في حياة الاعصاب والنفس** ، نشره ل . لوينفيلد ، م ٥٦ ، فسبادن ١٩٠٧ .

(٢) **الاخلاق الجنسية** ، ص ٣٢ وما بعدها .

على عاتق الاخلاق الجنسية المتحضرة ، عن ضرر سنعمد هنا الى مناقشة مدلوله بالتفصيل . وأعني به ذلك التزايد ، الممكن عزوه الى تلك الاخلاق ، في العصبية الحديثة ، اي في تلك الامراض العصبية التي تنتشر انتشاراً سريعاً في مجتمعنا المعاصر . فقد يتفق ان يلفت مريض عصبي انتباه الطبيب الى التعارض الواجب عليه ان يلاحظه في نشوء المرض بين الـجبلّة والمطلب الثقافي بقوله مثلاً : « لقد صرنا في أسرتنا جميعنا من العصبيين لاننا أردنا ان نكون أحسن مما نستطيع ان نكونه بحكم أصلنا ومنبتنا » . وكثيراً ما يتفق ايضاً أن تشحذ تفكير الطبيب ملاحظته أن اولئك الذين يقعون ضحايا المرض العصبي هم بالتحديد أسلاء آباء من أصول قروية بسيطة وسليمة ، متحدرين من أسر خشنة وقوية ، قدموا الى المدينة الكبيرة وكانهم من الغزاة الفاتحين وأتاحوا لأولادهم ان يرتقوا في أجل وجيز من الزمن الى أعلى مستوى ثقافي . بيد ان أطباء الأعصاب في المقام الاول هم بانفسهم الذين أعلنوا قوة العلاقة بين « تزايد العصبية » والحياة المتحضرة الحديثة . اما كيف يبررون هذا الترابط ، فهذا ما سنراه من خلال تمحيصنا بعض مقتطفات من تصريحات مراقبين مشاهير .

قال و . إرب[٢] : ERB « المسألة الاساسيـة أن نعرف هـل ازدادت أسباب العصبية في حياتنا الحديثة بما فيه الكفاية لتعلل الزيادة الكبيرة في هذه العصبية . وعن هذا السؤال نستطيع ان نجيب بالايجاب بلا تردد ، على نحو ما سيتبين لنا فيما لو القينا نظرة خاطفة على أشكال حياتنا المعاصرة .

« إنه ليتضح لنا حالاً من جملة من الوقائع العامة ان الفتوحات الخارقة للأزمنة الحديثة ، والاكتشافات والاختراعات في الميادين كافة ، والمحافظة على وتيرة التقدم في مواجهة المزاحمة المتعاظمة ، ما امكن الوصول اليها إلا لقاء مجهود فكري عظيم ولا يمكن الحفاظ عليها إلا مقابل هذا الثمن . وإن ما يتطلبه الكفاح في سبيل الحياة من الانتاجية من قبل الفرد قد زاد زيادة مرموقة ؛ وهو لا يستطيع تلبية هذا المطلب إلا إذا جنّد قواه الفكرية قاطبة. وفي الوقت نفسه ارتفعت حاجات الفرد ومطامحه في الاستمتاع بمباهج الحياة في الاوساط كافة . ورتعت في ترف منقطع النظير شرائح من السكان ما كان لها من منفذ اليه في ماضي الزمن ؛ وطغت موجة اللاتدين والتذمر والجشع على دوائر لا تني في اتساع من المجتمع. وانقلبت شروط المواصلات رأساً على عقب بنتيجة التعاظم الهائل في حركة المرور والنقل ، وبفضل شبكة البرق والهاتف العالمية ؛ فكل شيء يتم الآن بسرعة وعجلة ، فيكون السفر في الليل ، والعمل والاتصال في النهار ؛ وحتى « رحلات الاستجمام » صارت مصدر تعب للجهاز العصبي . وباتت الأزمات السياسية والصناعية والمالية الكبرى تطال بالإثارة دوائر من المجتمع أوسع بكثير مما في الماضي . وعمّ بين الناس طراً الاهتمام بشؤون الحياة السياسية ؛ فالصراعات السياسية والدينية والاخلاقية ، والنشاطات الحزبية ، والحملات الانتخابية ، والجمعيات والروابط التي تتكاثر تكاثراً هائلاً ، هذا كله يهيج العقول ، ويرغم الفكر على بذل جهود جديدة بلا انقطاع ، ويأكل من وقت الاستجمام والنوم والراحة . وقد أضحت الحياة في المدن الكبيرة تتصف بمزيد من الرهافة والجلبة معاً . فالاعصاب مرهقة ، والناس تطلب متفرجاً لها عن طريق زيادة المحفزات وطلب المثير من المتع والملذات ، مما لا يتأتى عنه سوى مزيد من التعب . ويولي الادب الحديث اهتمامه الاول للمشكلات التي تتطلب اكثر من غيرها إعمال الفكر ، والتي تثير الاهواء كافة وتحرك الشهوانية وتتغنى بحب اللذة وبازدراء كل مبدأ خلقي وكل مثل اعلى ؛

(٢) حول تزايد العصبية في عصرنا ، ١٨٩٥ .

ويعرض هذا الادب لذهن قارئه حالات مرضية ، ومشكلات تتصل بالامراض النفسية الجنسية ، ومعضلات ثورية ، وما الى ذلك . والموسيقى الصاخبة والملحة التي تحقن بها مسامعنا بمقادير كبيرة تثير الاعصاب وتهيج الاذان . كما تهيج العروض التمثيلية الحواس كافة وتأسرها . وحتى الفنون الجميلة باتت تيمم شطر ما هو منفر ، بشع ، مستكره ، وشطر ما يثير ويهيج ، ولا تتردد هي الاخرى في ان تضع تحت ابصارنا ، بأمانة تدعو للحنق والسخط ، أبشع ما ينطوي عليه الواقع وأشنعه .

« إن هذا الوصف الاجمالي كاف بحد ذاته ليرينا كم من الأخطار تحف بالتطور الثقافي الحديث : على انه بوسعنا استكماله بتفاصيل اخرى ايضاً ! » .

وقال بنسفانغر[4] BINSWANGER: « لقد حُددت مواصفات النوراستينيا على انها في المقام الاول مرض عصري ، وقد حسب بيرد BEARD ، الذي ندين له باول وصف مميز لها ، أنه اكتشف بذلك مرضاً عصبياً جديداً تطور وانتشر بوجه خاص فوق الارض الاميركية . وبديهي أن هذا الفرض كان مغلوطاً . بيد انه ليس من قبيل المصادفة والاتفاق ان يكون طبيب اميركي هو أول من تنبه للسمات المميزة لهذا المرض وتمكن من تحديدها : فهذه واقعة تشهد دون أدنى شك على الترابط الوثيق بين هذا المرض وبين الحياة العصرية بما يصاحبها من ركض محموم وراء المال والممتلكات ، ومن تقدم خارق في الميدان التقني تحولت معه جميع معوقات الانتقال الزمانية والمكانية الى محض اوهام » .

(٤) باثولوجيا النوراستينيا وعلاجها ، ١٨٩٦ .

وقال كرافت ـ إيبنغ[5] KRAFT-EBING : « ان طراز حياة عدد غفير من الناس المتحضرين يتصف في أيامنا هذه بجملة من العوامل المضرة بالصحة ، مما يتيح لنا ان نفهم بسهولة ويسر الانتشار المحتوم للعصبية ، إذ ان هذه العوامل المؤذية ، تؤثر في المقام الاول وفي الغالب من الاحيان في المخ . ولقد طرأت خلال السنوات العشر الاخيرة تحولات بعيدة المدى على الاوضاع السياسية والاجتماعية للأمم المتحضرة ـ وبخاصة في مضمار التجارة والصناعة والزراعة . وقد ترتبت عليها تبدلات مهمة في المهنة والوضعية المدنية والملكية ، وهذا على حساب الجهاز العصبي الذي يتعين عليه أن يلبي تنامي المتطلبات الاجتماعية والاقتصادية بمضاعفته من إنفاق الطاقة مع أن ما يعتاضه عنها لا يفي بالغرض على الاطلاق » .

ان موضع اعتراضي على هذه النظريات ـ وعلى كثير غيرها مما يبدو مشابهاً لها ـ ليس كونها مغلوطة ، بل كونها عاجزة عن تقديم تفسير واف لخصوصيات ظهور الاضطرابات العصبية ، وكونها تغفل على وجه التعيين اهم عامل اتيولوجي[6] على الاطلاق . وان ضربنا صفحاً عن الاشكال اللامتعينة واللامحدودة لـ « العصبية » ، ووضعنا نصب أعيننا الاشكال المميزة لـ « حالة المريض العصبي » ، وجدنا أن تأثير الحضارة الضار يقتصر في جوهره على القمع المؤذي للحياة الجنسية لدى الشعوب (او الطبقات) المتحضرة من قبل الاخلاق الجنسية « المتحضرة » المهيمنة على هذه الشعوب .

لقد سعيت الى سوق الأدلة على هذا المدّعى في جملة من المقالات

(٥) العصبية والحالات النوراستينية ، ١٨٩٥ ، ص ٢ (في « الوجيز الاختصاصي في علم الامراض والعلاج ») .

(٦) الاتيولوجيا : علم الاسباب بصورة عامة ، ويبحث اسباب المرض بصورة خاصة . « م » .

المتخصصة[7] . ولن اكرر هنا ما سبق لي قوله : لكني اريد ان اعرض اهم الحجج التي اوصلتني اليها ابحاثي .

ان ملاحظة سريرية ثاقبة ، تبيح لنا ان نميز مجموعتين من حالات المرض العصبي : **الاعصبة** بحصر المعنى **والاعصبة النفسية**[8] . فالاضطرابات (الاعراض) في الاعصبة الاولى ، سواء افصحت عن نفسها بعوامل بدنية او بعوامل نفسية ، تبدو من طبيعة سمية ؛ ومسلكها جميعها مماثل تماماً لمسلك الظاهرات التي تصاحب إسرافاً أو حرماناً من بعض السموم العصبية . وهذه الاعصبة ـ التي تجمع في غالب الاحيان تحت اسم النوراستينيا ـ قد تنجم ، من غير ان تقتضي مساهمة مرض وراثي ، عن بعض المؤثرات الضارة للحياة الجنسية ؛ وبالفعل ، إن شكل المرض يطابق أتم المطابقة نمط الاذى حتى إنه ليسعنا في كثير من الاحيان استنتاج الاتيولوجيا الجنسية الخاصة دفعة واحدة من الصورة السريرية . وبالمقابل ، لا يوجد تطابق مطرد وقياسي من الطراز نفسه بين الشكل الذي يتخذه هذا المرض العصبي وبين المؤثرات الضارة الاخرى للحضارة ، وهي المؤثرات التي يحمّلها المؤلفون المشار اليهم تبعة المرض . وعلى هذا نستطيع ان نعلن أن العامل الجنسي هو العامل الأساسي الذي يتسبب في نشوء الاعصبة بحصر المعنى .

اما في الاعصبة النفسية فإن تأثير الوراثة أهم شأناً ، وما يتسبب في نشوئها اقل شفافية . غير ان طريقة خاصة في الاستقصاء ، تعرف باسم التحليل النفسي ، اتاحت لنا أن نتحقق من ان اعراض هذه الاضطرابات (الهستيريا ، العصاب الوسواسي ، الخ) **نفسية المنشأ** ومتعلقة بنشاط العقد التمثلية اللاشعورية (المكبوتة) . وقد مكّنتنا هذه الطريقة عينها من معرفة هذه العقد اللاشعورية وبينت لنا ان لها ، إجمالاً ، مضموناً جنسياً : فمصدرها يكمن في الحاجات الجنسية للأشخاص غير الحاصلين على إشباع ، وهي تمثل بالنسبة الى هؤلاء الاشخاص نوعاً من بديل عن الاشباع . وعلى هذا يتعين علينا ان نرى في جميع العوامل المضرة بالحياة الجنسية ، التي تقمع نشاطها وتنقل أهدافها ، عوامل مسبِّبة للمرض في حالة الاعصبة النفسية ايضاً .

وبديهي ان قيمة التمييز النظري بين الاعصبة السمية والاعصبة النفسية المنشأ لا يطعن فيها واقع أننا نعاين لدى معظم المرضى العصبيين اضطرابات منشؤها سمي ونفسي على حد سواء .

ومن يكن على استعداد الآن ليبحث معي عن اتيولوجيا المرض العصبي في المقام الاول في المؤثرات الضارة التي تتعرض لها الحياة الجنسية ، فلن يمانع في تتبع الشروح التالية التي ترمي الى إدراج موضوعة ازدياد العصبية في سياق أهم وأشمل .

ان حضارتنا قائمة ، بصفة بالغة العمومية ، على قمع الدوافع الغريزية . فقد تنازل كل فرد عن جزء من ملكيته ، من سلطانه المستقل ، من نوازع شخصيته العدوانية وميولها الثأرية ؛ وانما من هذه التقدمات تتألف الملكية الثقافية المشتركة للخيرات المادية والخيرات الفكرية . وإذا استثنينا إلحاحية الحياة ، فإن العواطف العائلية ، النابعة من الايروسية ، هي التي دفعت بالافراد فرادى الى ذلك التنازل . وقد تم هذا التنازل تدريجياً في مجرى تطور الحضارة ؛ وقد صادق الدين على كل تقدم على حدة ؛ فالجزء الذي تنازل عنه كل

(7) مجموعة مقالات مقتضبة حول نظرية الاعصبة . فيينا ١٩٠٦ .

(8) الاعصبة النفسية التي يميزها فرويد عن الاعصبة بحصر المعنى او الاعصبة السمية أو الراهنة تشمل الاعصبة التحويلية (الهستيريا الحصرية والهستيريا التحولية والعصاب الوسواسي) والاعصبة النرجسية . اما الاعصبة الراهنة ، التي ينبغي البحث عن أسبابها في حاضر المريض ، لا في ماضيه ، فتشمل العصاب الحصري والنوراستينيا وهجاس المرض . « م » .

فرد من إشباع دوافعه الغريزية قُدِّم قرباناً للآلهة ؛ اما الرصيد المشترك الذي تجمع على هذا النحو فقد خلعت عليه الصفة « الحرمية » . وكل من يعجز ، بحكم تكوينه الجبلّي غير المرن ، عن المشاركة في قمع الغريزة هذا يضع نفسه في موقف المعارض للمجتمع بوصفه « جانحاً » أو « مبعداً » ، وذلك بقدر ما لا يستطيع ان يفرض نفسه على هذا المجتمع عينه بوصفه عظيماً من العظماء ، بوصفه « بطلاً » بحكم مركزه الاجتماعي وكفاءاته الرفيعة .

من المرجح ان الغريزة ، او بالاحرى الغرائز الجنسية ـ إذ أن الاستقصاء التحليلي يفيدنا ان الغريزة الجنسية مركّبة من عناصر عدة ، من غرائز جزئية ـ اكمل تشكيلاً لدى الانسان منها لدى معظم الحيوانات العليا ؛ وهي على كل حال اكثر ثباتاً لدى الانسان ، لانها أحرزت نصراً شبه كامل على الدورية التي يبدو انها أسيرتها لدى الحيوانات . وانها لتضع تحت تصرف المجهود الثقافي كمية هائلة من القوى ، وهذا في أرجح الظن بحكم السمة البارزة التي تتسم بها ، وأعني قدرتها على نقل هدفها دون أن تخسر شيئاً يذكر من قوتها . ويطلق اسم القدرة على **الإسماء**[٩] على هذه القابلية لقايضة الهدف الذي هو في الاصل جنسي مقابل هدف آخر لا يعود يصدق عليه الوصف بأنه جنسي ، لكنه على صلة قربى نفسية بالاول . وبالتعارض مع هذه القدرة على النقل التي فيها تكمن قيمة الغريزة الجنسية ، قد يحدث ان تتعرض هذه الاخيرة لتثبيت بالغ القوة يلغي صلاحتها للاستعمال وقد يحطها الى ما يسمى بالشذوذ . وأغلب الظن ان القوة الأصلية للغريزة الجنسية متفاوتة بتفاوت الافراد ؛ ومن المحقق أن ما تكرسه للإسماء متقلب . ويلوح لنا ان الجبلّة الفطرية لكل فرد هي

(٩) او التصعيد SUBLIMATION « م » .

صاحبة القول الأول في تحديد مقدار الغريزة الجنسية القابل لدى كل فرد للإسماء وللاستخدام . كما تفلح الحياة والمؤثرات الفكرية التي يتعرض لها الجهاز العقلي في تزويد الإسماء بكمية اضافية . ومن المؤكد ان عملية النقل هذه لا يمكن ان تستمر الى ما لا نهاية ، مثلما لا تستطيع آلاتنا الاستمرار الى ما لا نهاية ايضاً في تحويل الحرارة الى عمل ميكانيكي . ويبدو ان مقداراً معلوماً من الاشباع الجنسي المباشر لا غنى عنه لمعظم التنظيمات : وان لم يتوافر هذا المقدار من الإشباع ، الذي يتفاوت كمه من فرد الى آخر ، كان عقاب ذلك تظاهرات يتعين علينا ان نصنفها ، لما تلحقه من ضرر بالوظيفة ولما تتسم به من طابع إيلامي ذاتي ، في عداد الحالات المرضية .

ان آفاقاً أرحب تنفتح امامنا اذا أخذنا بعين الاعتبار ان الغريزة الجنسية لدى الكائنات الانسانية لا ترمي إطلاقاً في الاصل الى خدمة التناسل ، وانما هدفها كيفيات معينة في الحصول على اللذة[١٠] . وبهذه الصورة تتظاهر في طفولة الانسان حيث تدرك هدفها في الحصول على اللذة لا في الاعضاء التناسلية وحدها ، بل كذلك في نقاط اخرى من الجسم (المناطق الشهوية) ، فيسعها على هذا النحو ان تعزف عن كل ما لا يمثل لها موضوعاً مستحباً . ونطلق على هذا الطور اسم طور **الايروسية الذاتية** ، ونوكل الى التربية مهمة وضع حد له لأن تطاوله وامتداده في الزمن من شأنهما أن يجعلا الغريزة الجنسية عصية على كل رقابة وغير قابلة للاستعمال لاحقاً . على هذا المنوال يتحول تطور الغريزة الجنسية من الايروسية الذاتية الى الحب الموضوعاني[١١] ،

(١٠) انظر **ثلاثة مباحث في نظرية الجنس** ، ١٩٠٥ [انظر الترجمة العربية ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١ . « م »] .

(١١) انظر بصدد هذا النعت « الموضوعاني » الحاشية رقم ٥ في مقال « الترجمة : مدخل » في الصفحة ١١٥ من هذا الكتاب . « م » .

ويتنقل من استقلال المناطق الشهوية الى تبعيتها لزعامة الاعضاء التناسلية العاملة في خدمة الإنجاب . وفي مجرى هذا التطور يقع كف على جزء من الاثارة الجنسية التي يمد بها الفرد جسمَه بالذات . فلا يعود صالحاً للاستخدام لوظيفة التناسل ، ويكون مصيره ، بتعبير افضل ، الإسماء . على هذا النحو تتأتى القوى القابلة للاستخدام من قبل المجهود الثقافي ، في شطرها الاكبر ، من قمع تلك العناصر من الاثارة الجنسية التي توصف بأنها **منحرفة** .

بالإحالة اذن الى تاريخ تطور الغريزة الجنسية نستطيع تمييز ثلاث مراحل من الحضارة : مرحلة أولى يكون فيها نشاط الغريزة الجنسية حراً ، حتى خارج نطاق الاهداف التناسلية ، ومرحلة ثانية يقمع فيها كل شيء في الغريزة الجنسية خلا ما يفيد منها التناسل ؛ ومرحلة ثالثة يكون فيها التناسل المشروع هو الهدف الجنسي الوحيد المأذون به . وتتطابق هذه المرحلة الثالثة مع اخلاقنا الجنسية « المتحضرة » الراهنة .

ان اتخذنا تلك المرحلة الثانية مستوى للقياس ، لم نجد بدأ من ان نلاحظ بادىء ذي بدء ان عدداً من الناس لا ينطبق عليهم ، لأسباب تتعلق بتنظيمهم ، هذا القياس . فما ذكرناه لتونا عن تطور الغريزة الجنسية من الايروسية الذاتية الى الحب الموضوعاني ، لا يتحقق لدى فئة بكاملها من الناس إلا بصورة منقوصة وغير جذرية ، وتكون نتيجة هذه الاضطرابات في النمو والتطور كيفيتين في الحيدان عن الجنسية السوية ، أي الجنسية التي هي مفيدة للحضارة : وهذان الانحرافان يسلكان ازاء بعضهما بعضاً مسلك الموجب والسالب على وجه التقريب . فهناك أولاً ـ وباستثناء الاشخاص الذين تكون لديهم الغريزة الجنسية بصفة عامة متضخمة النمو وغير قابلة لان تُكف ـ الفئات المختلفة من **المنحرفين** الذين حال عندهم التثبيت الطفلي على

هدف جنسي مؤقت دون أيلولة الزعامة الى وظيفة التناسل . وهناك بعد ذلك **الجنسيين المثليين** او **المنقلبين** الذين يحيد عندهم الهدف الجنسي ، على نحو لم تتوضح بعد خفاياه كله ، عن الجنس المقابل . وان تكن مضرة هذين الشكلين من اضطرابات النمو أقل حجماً مما كان يمكن لنا أن نتوقع ، فلا بد ان تعزو هذا التخفيف الى التركيب المعقد للغريزة الجنسية الذي يتيح للحياة الجنسية ان تتخذ بعد شكلاً نهائياً قابلاً للاستخدام حتى وان يكن عنصر او اكثر من عناصر هذه الغريزة قد استبعد من نموها . بل كثيراً ما تتميز جبلّة الاشخاص المصابين بالانقلاب ، أي الجنسيين المثليين ، بكون غريزتهم الجنسية قابلة منتهى القابلية للإسماء الثقافي .

ان تكن الانحرافات والجنسية المثلية جامحة ، وعلى الاخص ذات طابع حصري ، يمسِ المصابون بها تعساء ولا فائدة ترتجى منهم اجتماعياً ، وهذا ما يرغمنا على ان نتعرف في المطالب الثقافية للمرحلة الثانية مصدراً للعذاب لشطر من البشرية . ومصير هؤلاء الاشخاص الذين يشذون بحكم جبلّتهم بالذات عن الآخرين متعدد الوجوه وقد يختلف تبعاً لاختلاف نصيبهم من الغريزة الجنسية قوة او ضعفاً . ففي الحالة الاخيرة ، أي عندما تكون الغريزة الجنسية ضعيفة بوجه الاجمال ، يوفق المنحرفون الى قمع النوازع التي تضعهم في موضع التناقض مع المتطلبات الاخلاقية لمرحلتهم الثقافية قمعاً تاماً . لكن تلك هي التجلية الوحيدة التي يقتدرون عليهم من الناحية الفكرية ، لانهم يستنفدون في قمع غرائزهم الجنسية القوى التي كانوا سيجندونها لولا ذلك في خدمة المجهود الثقافي . وهكذا تراهم مكفوفين في عالمهم الداخلي ومشلولين في العالم الخارجي . وقد يقع لهم ما سنقوله لاحقاً بصدد الاستنكاف الجنسي الذي تتطلبه من الرجال والنساء المرحلة الحضارية الثالثة .

أما إن كانت الغريزة الجنسية قوية ، وفي الوقت نفسه منحرفة ، فثمة مخرجان ممكنان : الأول ـ ولن نطيل الوقوف عنده ـ ان يبقى الاشخاص المعنيون منحرفين ، ويتعين عليهم من ثم أن يتحملوا تبعة حيداتهم عن المستوى الثقافي ؛ والثاني اكثر إثارة للاهتمام بكثير ، وهو التالي : قد يتوصل هؤلاء الاشخاص ، تحت تأثير التربية والمتطلبات الاجتماعية الى ضرب من القمع لغرائزهم المنحرفة ، ولكن هذا القمع ما هو في الحقيقة بقمع ، بل نكون اقرب الى الصواب لو اسميناه إحباطاً في القمع . فصحيح أن الغرائز الجنسية لا تتظهّر عندئذ الى الخارج بصفتها هذه ـ وذلك هو وجه النجاح ـ لكنها تتظهر بأساليب اخرى تعادل في ضررها، بما تنزله من اذى بالفرد نفسه وبالمجتمع الذي لا يعود هذا الفرد بقادر على ان يفيده بشيء، الضرر الذي كان سينشأ عن الإشباع الفعلي للغرائز المقموعة : وهنا تحديداً يكمن فشل هذه السيرورة التي تكون نتيجتها على المدى الطويل اكثر من مجرد موازنة نجاحها . وتؤلف الظاهرات البديلة التي تنتج هنا من جراء قمع الغريزة ما نطلق عليه اسم العصبية . وعلى الاخص اسم الاعصبة النفسية (انظر مستهل مقالنا هذا) . وينتمي المعصوبون الى الفئة التالية من الناس : فنظراً الى الطابع الشَموس لتنظيمهم نراهم لا يتوصلون ، تحت ضغط المطالب الثقافية ، إلى قمع غرائزهم إلا بصورة ظاهرية ، وبفشل متكرر ، ولهذا السبب لا يتأتى لهم أن يواصلوا المساهمة في الاعمال الثقافية إلا لقاء إنفاق كبير في القوى وإفقار داخلي كبير هو الآخر ، أو قد يضطرون بين الحين والآخر الى التوقف بسبب مرضهم . وقد وصفت الاعصبة بأنها « السالب » من الانحرافات لأن الحاثات المنحرفة تتظهر فيها ، بعد كبتها ، بدءاً من اللاشعور النفسي لانها تشتمل في حالة « الكبت » على نوازع المنحرفين الايجابيين نفسها .

تفيدنا الخبرة أنه يوجد بالنسبة الى غالبية الناس حد لا تستطيع جبلّتهم ان تمتثل ، في حال تخطيه ، لمطلب الحضارة . فكل من يبغي ان يكون أعظم نبلاً مما تتيحه له جبلته يسقط ضحية العصاب ؛ ولو ظلت متاحة له امكانية البقاء على دونيته ، لكان شعر بأنه احسن حالاً . وان ملاحظة الاشخاص الذين ينتمون الى جيل واحد تثبت في كثير من الاحيان وعلى نحو لا لبس فيه صحة الفكرة القائلة ان العلاقة ما بين الانحراف والعصاب هي علاقة الموجب بالسالب . فكثيراً ما يتفق على صعيد الاخوة والاخوات ان يكون الاخ منحرفاً جنسياً ، بينما تكون الاخت ، وهي المحبوة باعتبارها أنثى بغريزة أضعف قوة ، مصابة بعصاب ، ولكن أعراضها تفصح عن النوازع عينها التي تفصح عنها انحرافات اخيها النشيط جنسياً . ومن هذا المنطلق نفسه يكون الرجال ، في كثير من الأسر ، أصحاء إجمالاً ، ولكنهم منحللو الاخلاق الى حد غير مرغوب فيه اجتماعياً ، بينما تكون النساء نبيلات وعلى قدر مفرط من الرهافة ، ولكن مصابات في الوقت نفسه بأمراض عصبية خطيرة .

انه لوجه صارخ من وجوه ظلم المجتمع ان يتطلب المستوى الثقافي من الناس جميعاً مسلكاً جنسياً واحداً ، مع ان بعضهم يستطيع الاضطلاع به بلا جهد بفضل تنظيمه ، بينما يتعين على بعضهم الآخر ان يتحمل أبهظ التضحيات النفسية في سبيل ذلك . وإن هذا لإجحاف لا سبيل الى الخلاص منه في غالب الاحيان إلا بالامتناع عن التقيد بالمبادىء الاخلاقية .

لقد كان الاساس الذي انطلقنا منه حتى الآن هو مطالب ما افترضنا أنه المرحلة الحضارية الثانية التي تشجب كل نشاط جنسي مدموغ بالانحراف وتبيح بالمقابل الاتصال الجنسي الموصوف بالسواء . وقد رأينا أنه في ظل هذا التوزيع للحرية والتقييد الجنسيين يُنحى

بعض الأفراد ويُعزلون باعتبارهم منحرفين ، ويُدفع ببعضهم الآخر ، ممن يجاهدون كيلا يكونوا منحرفين ، مع ان جبلتهم كانت تقتضي أن يكونوا من المنحرفين ، الى حضن الامراض العصبية . ويسير علينا الآن ان نتكهن بما سيحدث ان فرض المزيد من القيود على الحرية الجنسية وان رفع المطلب الثقافي الى مستوى المرحلة الثالثة . أي ان شُجب كل نشاط جنسي لا تجري ممارسته ضمن نطاق الـزواج المشروع . فعدد الاشخاص الاقوياء الذين يعارضون جهراً وعلانية المطلب الثقافي سيزداد زيادة كبيرة ، كما سيزداد بالمقدار نفسه عدد الاشخاص الضعفاء الذين اذا ما حوصروا بين ضغط المؤثرات الثقافية والمقاومة الصادرة عن تكوينهم الجبلي ، لم يكن أمامهم من مـلاذ يهربون إليه سوى الحالة المرضية العصابية .

لنحاول الآن ان نجيب عن أسئلة ثلاثة تبرز هنا :١ ـ ما العبء الذي يفرضه على الفرد المطلب الثقافي للمرحلة الثالثة ؟ ٢ ـ هل في مقدور الاشباع الجنسي المأذون به ان يقدم تعويضاً مقبولاً عن العزوف الذي يُرغم عليه الفرد إرغاماً ؟ ٣ ـ ما العلاقات بين الأضرار التي يحتمل أن تنشأ عن هذا العزوف وبين استثماره الثقافي ؟

ان الاجابة عن السؤال الاول تتصل بمشكلة كثيراً ما وجدت من يعالجها ، ولن يكون في مستطاعنا ان نستنفدها هنا ، اقصد مشكلة الاستنكاف الجنسي . فمرحلتنا الحضارية الثالثة تقتضي من الفرد الفرد من كلا الجنسين الاستنكاف الى حين الزواج ، والاستنكاف على مدى الحياة من كل من لا يتزوج زواجاً مشروعاً . وما يحلو للسلطات أن تؤكده من أن الاستنكاف الجنسي ليس ضاراً ولا عسيراً التقيد به ، قد حظي ايضاً بتأييد عدد جمّ من الاطباء . إلا أنه من المباح لنا ان نقول إن مهمة السيطرة على حاثة بمثل قوة حاثة الغريزة الجنسية عن طريق آخر غير إشباعها قد تتطلب تجنيد كل طاقات الكائن البشري .

وإن أقلية من الناس فقط تتوصل الى هذه السيطرة عن طريق إسماء القوى الغريزية الجنسية وتحويلها عن الاهداف الجنسية الى اهداف ثقافية اسمى وارفع ، وهذا لا يتأتى لها على كل حال إلا على نحو متقطع ، وبمنتهى الصعوبة والعسر في شرخ الصبا والشباب . أما بقية الناس فيسقط اكثرهم ضحية العصاب او يعانون من ضرر ما . وتدل التجربة ان معظم الافراد الذين منهم يتألف مجتمعنا لا تؤهلهم بنيتهم لفريضة الاستنكاف . وان كان بعض الافراد يمرضون بمجرد فرض تقييد ما جنسي عليهم ، فإن مطالب الاخلاق الجنسية لحضـارتنا الراهنة تدفع نحو أشكال من المرض اكثر تبكيراً واشد خطورة ؛ والحق اننا لا نعرف طريقة للوقاية من الخطر الذي يتعرض له النزوع الجنسي السوي من جراء قصور في الجبلّة أو اضطرابات في النمو افضل من الإشباع الجنسي ذاته . وكلما كان عند الفرد استعداد مسبق للعصاب قلّ تحمله للاستنكاف ؛ فالغرائز الجزئية ، التي ما أخذت مجراها الى التطور السوي ، بالمعنى الذي تكلمنا عنه آنفاً ، تغدو بنتيجة ذلك اعصى على الكف . ولكن حتى من قيض لهم ان يحافظوا على عافية جيدة ، في الشروط المطلبية للمرحلة الحضارية الثانية ، لن يكون امام اكثرهم منجى في هذه الحال من السقوط فريسة العصاب . ذلك ان القيمة النفسية للإشباع الجنسي تتعاظم طرداً مع الحرمان منه ؛ فالليبيدو(١٢) الذي كان في حالة ركود بات مقتدراً الآن على اكتشاف هذه او تلك من النقاط الضعيفة التي يندر ان تخلو منها بنية الحياة

(١٢) الليبيدو : كلمة لاتينية الاصل تعني النزوة ، الهوى ، الشهوة ، الشهية ، الحاجة الطبيعية ، الخ . وكان مول أول من أعاد إحياءها . وعنه اقتبسها التحليل النفسي ، ولكن سرعان ما وقع انشقاق بصدد تفسيرها : فعلى حين انها ظلت تعني عند فرويد قوة الغريزة الجنسية والطاقة الجنسية ، حددها يونغ بأنها طاقة نفسية حيوية .

الجنسية[١٢] وعلى شق طريقه من خلالها للظفر بإشباع بديل عصابي في صورة عرض مرضي . ومن له إلمام بالشروط التي تتسبب في وقوع الانسان ضحية المرض العصبي فلن يعز عليه ان يقتنع بأن تزايد الأمراض العصبية في مجتمعنا ناجم عن زيادة القيود الجنسية .

هذا يقودنا حالا الى مسألة معرفة ما اذا كان الاتصال الجنسي في الزواج الشرعي قمينا بالتعويض تعويضا كاملا عن الحظر المفروض عليه قبل الزواج . وإن المادة التي بين أيدينا تبيح لنا أن نجيب عن هذا السؤال بالسلب ، ولكنها من الوفرة بحيث لا نجد محيصا عن لزوم الايجاز الشديد في عرضها . ولنتذكر باديء ذي بدء بأن أخلاقنا الجنسية المتحضرة تقيد ايضا الاتصال الجنسي ضمن نطاق الزواج بالذات ، إذ تفرض على المتزوجين من الناس الاكتفاء بعدد محدود للغاية في غالب الاحيان من الأنسال . ويكون من نتيجة ذلك ان الزواج لا يوفر اتصالا جنسيا مُرضياً إلا لسنوات معدودات ، هذا إلى أنه لا بد ان نطرح منها ايضا الزمن الذي يتعين في أثنائه الامتناع عن معاشرة المراة لأسباب تتعلق بقواعد الصحة ، وبعد تلك السنوات الثلاث أو الاربع أو الخمس ينكث الزواج بما كان قطعه من وعد باشباع الحاجات الجنسية،لأن جميع الوسائل التي امكن الاهتداء إليها حتى الآن لمنع الحمل تفسد المتعة الجنسية ، وترنق حساسية الطرفين المرهفة،أو تؤثر مباشرة كعوامل إمراضية : والخوف من نتائج العلاقات الجنسية يقلص اولا التوادُّ الجسماني المتبادل بين الزوجين ، ثم يقلص بعد ذلك ايضا ، في غالب الاحيان ، ارتباطهما المعنوي الذي يفترض به ان يرث الهوى الأول الجامح . ولا يلبث الاحباط الجسدي والخيبة النفسية ، اللذان يؤول اليهما مصير غالبية الزيجات ، ان يعود

(١٢) باللاتينية في النص : VITA SEXUALIS . «م» .

بالزوجين الى الوضع الذي كانا عليه قبل الزواج : ولا يكون تغير شيء سوى انهما خسرا وهماً وبات لزاما عليهما من جديد ان يجندا طاقتهما للسيطرة على غريزتهما الجنسية وتحويلها عن هدفها . ولا جدوى من البحث في مدى نجاح الرجل - الذي قد بلغ أوج نضجه - في هذه المهمة . وتدلنا الخبرة انه غالبا ما يلجأ في هذه الحال الى تلك الشذرة من الحرية الجنسية التي يخصه بها ، وان في صمت وعلى مضض، الدستور الجنسي المتزمت . وما الاخلاق الجنسية «المزدوجة» السارية المفعول في مجتمعنا بالنسبة الى الرجال ، الا اعتراف دامغ بأن المجتمع الذي استن تلك الأحكام لا يؤمن هو نفسه بامكانية التقيد بها . بيد ان الخبرة تفيد أيضا بأن النساء ، اللائي لم يُقسم لهن الا نصيب زهيد من القدرة على إسماء الغريزة ، وذلك باعتبارهن حاملات المصالح الجنسية للبشرية ، النساء اللائي يستطعن في أغلب الظن أن يجدن بغيتهن من الاشباع لدى طفلهن الرضيع باعتباره موضوعا جنسيا ، وان كان يعجزهن ان يلقين مثل هذا الاشباع لدى طفل ينمو ويكبر ، أقول : ان الخبرة تفيد ايضا بأن هؤلاء النساء ، اللائي يخيب الزواج آمالهن ، يسقطن فريسة أعصبة قاسية تنغص عليهن حياتهن كلها . والحق أن الزواج ، في ظل الشروط الحضارية الراهنة ، كف منذ زمن بعيد عن ان يكون ذلك الدواء الناجع الشافي لاضطرابات النساء العصبية : ولئن كنا نحن الاطباء لا نزال نوصي به في مثل هذه الاحوال ، فاننا نعلم حق العلم مع ذلك ان الفتاة لا بد ان تكون صاحبة صحة جيدة جدا كيما « تتحمل » الزواج ، وإننا ننصح زبائننا الذكور بمنتهى الصراحة بالامتناع عن الزواج من فتاة عانت قبل زواجها من اضطرابات عصبية . فدواء العصبية الناجمة عن الزواج سيكون الخيانة الزوجية بالاحرى : ولكن بقدر ما تكون المراة تلقت تربية صارمة ، تنصاع بقدر اكبر من الجد لمتطلبات الحضارة ، وتفزع

فزعا أشد من مثل ذلك الحل ، ولا تجد ملاذا تلوذ به في هذا النزاع بين رغائبها وبين حس الواجب لديها سوى العصاب مرة اخرى . فلا شيء يحمي فضيلتها بمثل ذلك الامان سوى المرض . وعلى هذا فان حالة الزواج ، التي يفترض بها أن تكون التعلة التي يتصبر بها الرجل المتحضر عن غريزته الجنسية في ريعان شبابه ، لا يمكن ان تلبي المطالب التي تترتب على قيامها هي ذاتها ؛ ومن ثم فلا مجال لان يكون في مقدورها التعويض عن العزوف السابق .

ولكن حتى من يسلم معنا بالاضرار التي تتسبب فيها الاخلاق الجنسية المتحضرة يمكن ان يحتج ، ردا على سؤالنا الثالث ، بأن المكسب الثقافي الذي يتأتى من مثل هذا التقييد الجنسي المفرط يعوض في اغلب التقدير تعويضا وافيا عن تلك الأضرار التي لا تضرب بقسوة وصرامة سوى اقلية من الناس. وانني لاسلم بعجزي عن موازنة الخسارة بالربح هنا ؛ لكن في وسعي ، فيما يتصل بتقدير الخسائر ، ان اتقدم بجملة من الاعتبارات . فلو عدنا الى موضوعة الاستنكاف التي عرضت لها من بعض جوانبها ، لكان علي ان اؤكد ان الاستنكاف يتسبب في اضرار اخرى غير تلك التي تنجم عن الأعصبة ، وان خطورة هذه الأعصبة لم تقدر في اغلب الاحيان حق قدرها .

إن ما تنزع اليه تربيتنا وحضارتنا من تأخير لنمو الجنسية والنشاط الجنسي لا يكون في بادىء الامر ضارا على وجه التحقيق ، بل يغدو ضروريا اذا أخذنا بعين الاعتبار كم يتأخر الزمن بالشباب المنتمين الى الطبقة المتعلمة كيما يقتدروا على كفاية انفسهم وكسب رزقهم . وهذا يعيد الى أذهاننا بالمناسبة الترابط الوثيق بين مؤسساتنا الثقافية كافة وبين صعوبة تغيير جزء منها بدون تغييرها كلها . والاستنكاف بعد السنة العشرين من العمر لا يمكن الا ان يترتب عليه ضرر للفتى الشاب ، حتى وان لم يفض الى المرض العصبي . صحيح

ان ثمة من يقول ان الكفاح ضد هذه الغريزة القوية وما يقتضيه من تشديد لجميع القوى الاخلاقية والجمالية لحياة النفس « يسقي » الخُلُق ، وهذا يصدق على بعض العرائك والامزجة التي تتميز بتنظيم مؤات . ولتضف الى ذلك ان تمايز الطبائع الفردية الذي بات سمة بالغة البروز من سمات عصرنا ما كانت لتتاح له هذه الامكانية لولا التقييد الجنسي . لكن الكفاح ضد الشهوانية يستنفد في الغالبية العظمى من الاحوال كل الطاقة المتاحة للشخصية ، وهذا على وجه التعيين في الوقت الذي يكون فيه الفتى بحاجة الى قواه جميعا ليحتل لنفسه مكانا في المجتمع وليفوز بتصيبيه منه . وطبيعي ان الصلة بين الإسماء الممكن والنشاط الجنسي اللازم تختلف باختلاف الافراد ، وكذلك باختلاف المهن . فالفنان المستنكف ظاهرة شبه مستحيلة ، بينما ليس العالم الشاب المستنكف بالظاهرة النادرة. فبوسع الاخير ، نتيجة لاستنكافه ، ان يحرر قواه برسم بحوثه ، على حين ان القدرة الخلاقة لدى الاول ستجد حافزا قويا في ارجح الظن في تجربته الجنسية . وبصفة عامة ، لم يتولد لدي اقتناع بأن الاستنكاف الجنسي يساعد على تأهيل رجال عمليين ذوي عزيمة واستقلال ، او مفكرين اصلاء ، أو قادة تحرير ، أو مصلحين حكماء ؛ بل الاغلب ان تكون حصيلته أناسا مستقيمين وضعفاء لا يلبثون ان يذوبوا لاحقا في الجمهرة الكبرى التي من عادتها ان تمتثل ، ولو على مضض، لتوجيهات الاقوياء من الافراد .

ان النتائج المتحصلة عن الجهود الاستنكافية تعبر ايضا عن واقع ان الغريزة تركب رأسها ، كما يقال ، ولا تأتمر في سلوكها بغير أمر نفسها . فالتربية المتحضرة ترمي فقط الى قمع الغريزة بصورة مؤقتة الى حين الزواج ، ومن ثم ترخي لها العنان لتستغله على الوجه المرام. غير ان التدابير المتشددة تفلح اكثر من التدابير المقسطة في لجم

الغريزة. ومن ثم فقد يجاوز القمع الحد في شدته ، فتكون نتيجته ـ وهي نتيجة غير مرغوب فيها ـ ان تصاب الغريزة الجنسية بضرر مستديم لا يبارحها حتى بعد تحريرها . ولهذا فان الاستنكاف المطلق في فترة الشباب ليس في كثير من الاحيان خير إعداد للزواج بالنسبة الى الرجل . وهذا ما تدركه النساء بحسهن ، فيؤثرن من بين المتقدمين لطلب أيديهن اولئك الذين سبق لهم ان تصرفوا كرجال مع نساء أخريات . كذلك فان الاضرار التي ينزلها بشخصية المرأة مطلب الاستنكاف المشدد الى حين الزواج ملموسة بقوة هي الاخرى . وظاهر للعيان ان المهمة التي تأخذها التربية على عاتقها لتقمع شهوانية الفتاة الى حين الزواج ليست بالمهمة الميسورة ، بل لا بد لها من اللجوء الى أصرم التدابير . فهي لا تحظر كل اتصال جنسي ولا تعلق قيمة كبرى على صون عفة الانثى فحسب ، بل تبعد ايضا عن الكائن الذي في سبيله الى ان يصير امرأة كل اغراء وتبقيه اسير الجهل المطبق بواقع الدور الذي هو من نصيبه ، ولا تسمح له بأية بادرة حب لا يكون مآلها الى زواج . وتكون نتيجة ذلك انه متى ما اذنت السلطة الوالدية للبنات على حين بغتة بالوقوع في شباك الحب ، لا تكون الفتيات قد تهيأن لذلك نفسيا ، فيقبلن على الزواج من دون أن يستوثقن من مشاعرهن وعواطفهن . وبحكم هذا الارجاء المصطنع لوظيفة الحب ، لا تخبيء الفتيات للرجل الذي احتفظ لهن برغبته كلها إلا خيبة وإحباطاً : فهن ما زلن عاطفيا أسيرات لوالديهن الذين قمعوا بسلطانهم الغريزة الجنسية لديهن ، كما أنهن يتصرفن جسديا مع أزواجهن تصرف الباردات ، فيتعذر على الرجل الوصول الى أية متعة جنسية رفيعة القيمة حقا . لست أدري ان كان نموذج المرأة المخدرة الحس موجودا ايضا خارج نطاق التربية المتحضرة ، لكنني أعتقد أن ذلك محتمل . ومهما يكن من أمر ، فان التربية تكوّن على وجه التحقيق هذا الطراز

من النساء ، وهؤلاء النساء اللائي يحبلن بلا لذة لا يبدين فيما بعد ميلا الى الانجاب بكثرة وفي الألم . وهكذا فان الاعداد للزواج يحبط اهداف الزواج بالذات. ومتى ما تقلبت المرأة في وقت لاحق على تأخر نموها واستيقظت لديها ، وهي في أوج وجودها كأنثى ، قدرتها الكاملة على الحب ، تكون علاقتها بزوجها قد تدهورت وتردت منذ عهد بعيد ؛ ولا يبقى أمامها من تعويض ، وهي التي ارتضت الخنوع الى ذلك الحين ، غير ان تختار بين رغبة متأججة بلا إشباع أو الخيانة او العصاب .

ان سلوك الرجل الجنسي هو في كثير من الاحيان **نموذج اول** لسائر أنماط الاستجابات الاخرى في العالم. فالرجل الذي يأخذ غلابا موضوعه الجنسي، سيبدي بكل تأكيد عزيمة مماثلة لا تتزعزع في نشدان اهداف اخرى ، اما من يمتنع بالمقابل ، ولأسباب شتى ، عن إشباع غرائزه الجنسية القوية ، فسيكون مسلكه في سائر مجالات حياته مسلك تساهل وخنوع اكثر منه مسلك قوة وعزيمة. ولو أخذنا الجنس المؤنث بجملته ، لأمكن لنا ان نلحظ بسهولة ان الحياة الجنسية هي النموذج الاول لممارسة وظائف اخرى . فالتربية تحظر على النساء الاهتمام عقليا بالمشكلات الجنسية مع أن حب الاستطلاع لديهن نحوها متأجج ؛ وهي تخيفهن وتبث الذعر في نفوسهن إذ تعلمهن ان حب الاستطلاع هذا ليس من الانوثة في شيء ، بل هو علامة استعداد مسبق للخطيئة . ومن ثم تلقي التربية في قلوبهن خوف التفكير ، فتفقد المعرفة قيمتها في انظارهن ؛ ويمتد حظر التفكير الى ما وراء الدائرة الجنسية ، جزئيا من جراء تداعيات وترابطات محتومة ، وجزئيا بصورة آلية ، شأنه في ذلك شأن حظر التفكير ، الديني المصدر ، الذي يفرض على الرجل ، او شأن الولاء الاعمى الذي تطلبه السلطة من رعاياها الصالحين ، وانني لا أرى الرأي الذي ذهب اليه

موبيوسMŒBIUS ، في كتاب له هو مثار لاعتراضات كثيرة، من ان « ضعف المرأة العقلي الفيزيولوجي » قابل للتفسير بالتعارض البيولوجي بين العمل الفكري والنشاط الجنسي . بل ارى على العكس من ذلك ان الدونية الفكرية ، التي هي حقيقة واقعة لا مماراة فيها لدى الكثيرات من النساء ، ينبغي ان ترد الى ما يفرض عليها، على نحو ما يتطلب القمع الجنسي ، من كف عن التفكير.

حين نعالج مسألة الاستنكاف ، لا يجري التمييز بجلاء ووضوح بين شكلين من اشكاله : الاستنكاف عن كل نشاط جنسي والاستنكاف عن العلاقات الجنسية مع الجنس الآخر . فالكثيرون من الافراد ممن يتباهون بأنهم أفلحوا في رفع أنفسهم الى مصاف المستنكفين ، لا يتوصلون الى ذلك في الحقيقة الا بطريق الاستمناء او بمساعدة إشباعات مشابهة تتصل بالنشاط الايروسي الذاتي في الطفولة الاولى . لكن بسبب هذا الرابط على وجه التحديد لا تكون هذه البدائل عن الاشباع الجنسي اطلاقا عديمة الاذى : فهي توجد لدى الفرد استعدادا مسبقا للاصابة بالاشكال المتعددة للاعصبة والاذهنة التي يتحدد شرطها الاول بنكوص الحياة الجنسية الى اشكالها الطفلية . ولا يتجاوب الاستمناء بتاتا ، بالأصل ، مع المتطلبات المثالية للاخلاق الجنسية المتحضرة ، بل هو يزج بالشباب في منازعات مع المثل الاعلى مماثلة لتلك التي تزج بهم فيها التربية والتي يبغون تحاشيها عن طريق الاستنكاف . ناهيك عن انه مفسدة للخلق ، أولا **بالعادات السيئة** ، إذ يعلِّم الفرد ان يبلغ اهدافا ذات شأن بسهولة محببة الى النفس ، ودونما تعب ، أي وفق مبدأ **النموذج الاول الجنسي** ، بدل ان يجند في سبيلها مقدارا كثيرا من الطاقة . وثانيا بالخيالات التي تصاحب الإشباع ، اذ يرفع الموضوع الجنسي الى درجة من الامتياز والكمال لا يسهل الوصول الى مثلها في الواقع . حتى ان كاتبا فكاهيا

(كارل كراوس KRAUS في الصحيفة الفييناوية FACKEL(١١)) امكن له ، بقلب الحجة ، ان يعبر عن الحقيقة تعبيرا تهكميا بهذه العبارة : ما الجماع الا بديل غير كاف عن الاستمناء !

لقد تضافرت قوة مطلب الحضارة وصعوبة فريضة الاستنكاف لتجعلا من تحاشي اجتماع الاعضاء التناسلية لكلا الجنسين جوهر مبدأ الاستنكاف ولتحثا على انماط اخرى من النشاط الجنسي ، مما يعدل في الواقع نصف امتثال له . والحق انه منذ ان سقطت العلاقات الجنسية السوية ضحية اضطهاد بالغ القسوة من قبل الاخلاق ، وكذلك من قبل علم اصول الصحة ـ من جراء احتمالات العدوى ـ تعاظمت الاهمية الاجتماعية على نحو لا يقبل جدالا لذلك النمط من العلاقات بين الجنسين الذي يوصف بالانحراف والذي تضطلع فيه اجزاء اخرى من الجسم بدور الاعضاء التناسلية . وهذه الانشطة لا يمكن ان توصف بأنها غير مؤذية نظير ضروب اخرى من الشطط في المعاشرة الجنسية، بل هي تستأهل الادانة على الصعيد الخلقي لأنها تخفض تلك العلاقة الجادة التي هي علاقة الحب بين كائنين بشريين الى مستوى لعبة لطيفة غير ذات شأن ولا تحتاج الى مشاركة النفس . وثمة عاقبة أخرى لتفاقم صعوبة سوق حياة جنسية سوية ، وهي انتشار الاشباع الجنسي المثلي ! إذ لا مفر من ان تضيف الى قائمة الجنسيين المثليين بحكم تنظيمهم ، والجنسيين المثليين الذين صاروا كذلك في طفولتهم ، الجمهرة الكبرى من اولئك الذين طرقوا في سن النضج سبيل الجنسية المثلية الفرعي على اثر انسداد المجرى الرئيسي لتصريف طاقتهم الليبيدوية .

ان جميع هذه العواقب المحتومة واللاقصدية لمطلب الاستنكاف

---

(١١) المشعل . م .

يجمع بينها قاسم مشترك واحد وهو أنها تتسبب في تدهور جوهري في التمهيد للـزواج الذي يفترض به مع ذلك ، من وجهة نظر الاخلاق الجنسية ، ان يكون الوريث للنوازع الجنسية . فجميع الرجال الذين اشبعوا الليبيدو عندهم بطريق آخر غير الطريق السوي وبشروط اخرى غير الشروط السوية ، باللجوء الى الاستمناء او الى ممارسات جنسية منحرفة ، تجلت قوتهم في الزواج منقوصة . كذلك فان النساء اللائي لا يتبقى امامهن سوى شبيه هذه الوسائل لحماية بكارتهن يسلكن سلوك المخدَّرات في العلاقات الجنسية ضمـن نطاق الـزواج. وهذا الزواج ، الذي يبدأ بنقص في القدرة على الحب لدى الطرفين ، يكون أسهل قابلية للفصم بعد من سواه . ومن جراء هذا النقص في قدرة الرجل على الحب ، لا تفوز المرأة باشباع وتبقى مخدرة ، مع ان استعدادها للبرودة ، الناجم عن تربيتها ، كان يمكن التغلب عليه بخبرة جنسية مكينة . ويصعب على مثل هذين الزوجين تحاشي النسل اكثر مما يصعب على زوجين صحيحين ؛ لأن الرجل الموهن القوة يتحمل بعسر موانع الحمل ، وبما ان العلاقات الجنسية هي مصدر الاكراهات كافة في هذه الحال ، فسرعان ما يتم العزوف عنها للخروج من المأزق ، ولو كان في ذلك هدم لأساس كل حياة زوجية .

إني أناشد العارفين بالامور ان يؤكدوا اني لا ابالغ إطلاقا ، وانني على العكس أصور وضعا لا يقل خطورة عن أوضاع اخرى مشابهة ، ناهيك عن انه وضع متواتر يمكن ان يلاحظ دوماً وتكرارا . والحق ان غير اهل العلم لا يمكن لهم ان يتصوروا كم يندر أن نلاقي رجالا ذوي قوة جنسية سوية ، وكم يكثر ان نلتقي البرودة لدى النصف المؤنث من أزواج المتزوجين الواقعين تحت هيمنة الاخلاق الجنسية التي ترفع حضارتنا لواءها ؛ كما يشق عليهم أن يتصوروا كم يرتبط الزواج بالنسبة الى الزوجين كليهما بضروب العزوف والامتناع ،

والام تتقلص الحياة الزوجية ، تلك السعادة التي طالما كانت موضع اشتهاء ! لقد سبق أن ذكرت ان المخرج الأجلى للعيان في هذه الظروف هو المرض العصبي؛ غير أنه يودي ان ابين ايضا كيف يؤثر مثل هذين الزوجين ايضا على ولدهما الوحيد أو على أولادهما القليلي العدد .

وقد يحسب المرء ان المسالة هنا مسألة انتقال في الوراثة ، ولكن لو أنعمنا النظر فيها لتبين لنا أن الأمر ناجم عن تأثير انطباعات وخبرات طفلية قوية . فالمرأة المعصوبة ، التي لا يوفر زوجها لها الاشباع ، أم شديدة القلق على ابنها ، مسرفة أشد الاسراف في توفير الحماية له ، فهي تحول باتجاهه حاجتها الى الحب وتوقظ فيه تبكيرا جنسيا . وسوء التفاهم بين الزوجين يثير حياة الطفل الوجدانية ، فتنتابه بقوة ، منذ نعومة أظفاره ، مشاعر الحب والكره والغيرة . وتلقى القوة القامعة دعما ومؤازرة من التربية الصارمة التي لا تسمح بأي نشاط للحياة الجنسية التي تبكر على هذا النحو غاية التبكير في الاستيقاظ ؛ وصراع كهذا في سن مبكرة كهذه ينطوي على كل ما هو ضروري ليشعل فتيل المرض العصبي الذي يدوم مدى الحياة .

أعود الآن الى ما سبق لي توكيده من انه عندما يدور الكلام عن الاعصبة فنادرا ما تؤخذ بعين الاعتبار خطورتها بكامل مداها . ولا اقصد بذلك الاستهانة التي تقابل بها هذه الحالات ، والاستخفاف الذي تُنحى به من قبل الاهل ، وكذلك من قبل الاطباء الذين يؤكدون بثقة واعتداد ان بضعة أسابيع من العلاج بالمياه الباردة أو بضعة اشهر من الراحة والاستجمام قد تكون كافية لازالتها . فهذه محض آراء صادرة عن أطباء وغير أطباء جهلة ، ومجرد كلمات يقصد بها على الاخص مواساة المريض ومده بأسباب العزاء لردح من الزمن . ونحن نعلم على العكس ان العصاب المزمن ، حتى وان لم يقض قضاء مبرما على كل قدرة على العيش ، يشكل عبئا باهظا على مدى الحياة ، مثله الى

حد ما مثل السل او المرض القلبي . ولقد كان من الممكن إغضاء النظر عن هذا الموقف لو كان المرض العصابي يستبعد من نطاق النشاط الحضاري عددا ضئيلا فقط من الافراد الضعفاء ، ويبيح بالمقابل للباقين ان يسهموا بقسطهم فيه ، ولو لقاء آفات ذاتية خالصة . والحال انه لزام علي ، على النقيض من ذلك،أن ألفت الانتباه الى واقع أن العصاب ، اينما تجلى وأيا يكن الشخص الذي نلتقيه لديه ، قادر دوما على إحباط المشروع الحضاري وإفشاله ، وعلى الاضطلاع بعمل القوى النفسية المقموعة ، عدوة الحضارة . وعلى هذا فان المجتمع ، الذي يدفع ثمن الانصياع لاوامره ونواهيه البعيدة المدى تزايدا في العصبية ، لا يمكنه تسجيل اي كسب لقاء التضحية . بل هو في الواقع لا يحرز اي كسب . لنتأمل مثال امرأة لا تحب زوجها لأن الشروط التي دشن بها زواجها وتجربتها في الحياة الزوجية لم تمدها بأي سبب للتدله بحبه ، وهذا مع أنه كان بودها حقا لو تحبه لأن ذلك وحده يستجيب لمثل الزواج الاعلى الذي قامت كل تربيتها على أساسه . وعلى هذا فانها ستقمع في داخل نفسها جميع النوازع التي تريد الافصاح عن الحقيقة ومعارضة تطلعاتها المثالية ، وستبذل قصاراها بوجه خاص لتقوم بدور الزوجة المحبة المراعية . وستكون نتيجة هذا القمع الذاتي مرضا عصابيا ، وفي أجل قصير من الزمن سيكون هذا العصاب قد اخذ لها بثأرها من ذلك الرجل الذي لا تحبه وسبب له من الهموم وضروب عدم الرضى بقدر ما كان سيسببه له الاعتراف بواقع الحال . وان هذا لمثال نموذجي على تجليات العصاب . وبوسعنا ان نلحظ إحباطا مماثلا في التعويض ، حتى بعد قمع نوازع اخرى مناوئة للحضارة لكنها ليست ذات طابع جنسي مباشر . ومن ذلك ، مثلا ، أن من صار طيبا طيبة مفرطة من جراء القمع القوي لنزوعه الجبلي الى القسوة والصرامة يعاني في وقت لاحق من نزف شديد في الطاقة يعجز

معه عن إنجاز أي شيء مما تتطلبه نوازعه التعويضية ، ويؤول به الحال في خاتمة المطاف الى ان يصير اقل طيبة مما لو كان لم يقمع ميوله .

زد على ذلك ان تقييد النشاط الجنسي يقترن اجمالا ، بالنسبة الى شعب من الشعوب ، بتزايد في قلق الحياة وجزع الموت ، مما يخلّ بقدرة الفرد على الاستمتاع وباستعداده لمواجهة الموت لهدف من الاهداف . ويتجلى ذلك في تقلص ميله الى الانجاب ، وتكون نتيجته استبعاد هذا الشعب او هذه المجموعة من الاشخاص من المساهمة في بناء المستقبل . وهذا كله يبيح لنا ان نتساءل عما اذا كانت اخلاقنا الجنسية « المتحضرة » تستأهل التضحيات التي تفرضها علينا ، وعلى الاخص ان كانت الحبال التي تشدنا الى مذهب المتعة قوية الى حد يتعذر معه علينا ألا ندرج مقدارا معينا من الاشباع والسعادة الفرديين في عداد أهداف تطورنا الثقافي . وبديهي ان ليس على عاتق الطبيب تقع مهمة التقدم بمشاريع للاصلاح ، لكن خيل إلي مع ذلك أنه في مقدوري التنويه بإلحاحية مثل هذه الاصلاحات من خلال التوسع بالعرض الذي قدمه ف. اهرنفلز عن الاضرار التي تتسبب فيها اخلاقنا الجنسية « المتحضرة » ، والاشارة الى دورها في انتشار العصبية في الازمنة الحديثة .

الفصل الرابع

مساهمات في علم نفس الحياة الحبية

(١)

طـراز خاص من الاختيـار الموضـوعاني لـدى الرجـل (١٩١٠)

تركنا للشعراء حتى الآن مهمة تصـوير « الشـروط المحدّدة للحب » ، أي الشروط التي بموجبها يختار الناس موضوعهم والكيفية التي يوفقون بها بين خيالاتهم والواقع . وبالفعل ، يتحلى الشعراء بصفات تؤهلهم للاضطلاع بمثل هذه المهمة : ومنها في المقام الاول حساسية مرهفة تتيح لهم ان يدركوا خلجات نفس الآخرين الخفيـة ، وشجاعة لا يترددون معها في إطلاق الحرية للاشعور لينطق بمايشاء. بيد أن ثمة شيئا ماينتقص، من المنظور المعرفي ، من قيمة ما يبوحون لنا به . فلزام على الشعراء ان يستثيروا لذة فكرية وجمالية معينة ، وكذلك بعض عواطف ومشاعر محددة : ومن ثم لا يسعهم ان يمثلوا الواقع كما هو ، بدون تعديله : ففرض عليهم ان يعزلوا بعض جوانبه ، وأن يخفوا بعض مظاهره المحرجة ، وان يلطفوا صورته الاجمالية ، وأن يسـدوا ثغراتـه . تلكم هي امتيازات مـا يسمى بـه الحريـة الشعرية » . وهم لا يستطيعون ، فضلا عن ذلك ، ان يولوا اهتماما يذكر لأصل الحالات النفسيـة التي يصفونهـا في صورة نـاجزة ولتطورها . ومن ثم ، ألا يتعين على العلم ، بيده الأثقل وزنا ولقاء قدر اقل من المتعـة الجمالية ، ان يهتم بهذه المواضيع التي سبقه الشعراء

الى صياغتها والتي تخلب ألباب الانسانية منذ آلاف السنين ؟ والحق ان من شأن هذه الملاحظات ان تبرر ما عقدنا عليه النية من إخضاع الحياة الحبية نفسها لمعالجة علمية صارمة . افلا يمثل العلم عزوفا عن مبدأ اللذة هو اكمل ما يقتدر عليه نشاطنا النفسي ؟

* * *

تسنح لنا في اثناء المعالجات التحليلية النفسية فرص شتى لجمع معطيات عن حياة العصوبين الحبية . وقد نتذكر عندئذ أننا لاحظنا او حُدِّثنا عن سلوك مماثل لدى افراد هم بالاجمال أسوياء او حتى لدى اشخاص يشذون عن المألوف . ومتى ما توفرت لنا مادة نستطيع ان نصنف معهـا هذه المعطيات ، تهيأ لنا ان نستخلص بمزيد من الجلاء طـرزا متمايزة . وسأصف باديء ذي بدء طرازا من طرز اختيار الموضوع لدى الرجل ، لانه يتسم بجملة من « الشروط المحدّدة للحب » التي يبدو تواجدها معا عصيا على الفهم ، بل باعثا عـلى الحيرة والبلبلة، ولأنه يقبل تفسيرا تحليليا نفسيا بسيطا .

١ ـ أول هذه الشروط المحددة للحب ينبغي أن يوصف بأنه نوعي خالص : فحسبنا ان نلتقيه حتى نشرع بالبحث عن المواصفات الاخرى للطراز . ولنطلق عليه اسم شرط **الثالث المغبون** TIERS LÉSÉ : وهو يقتضي الا يختار الفرد ابدا موضوعا لحبه امرأة ما تزال حرة ، وبعبارة أخرى ، فتاة او امرأة وحـيدة وانما حصـرا امرأة يستطيع رجل آخر ، أزوجا كان ام خطيبا أم صديقا ، ان يدعي أن له فيها حق ملكية . وقد يبدو هذا الشرط في العديد من الحالات محتوما الى حد تبقى معه المراة في باديء الأمر بعيدة عن حقل الانتباه أو حتى مزدراة ما دامت غير مملوكة لأحد . لكنها سرعان ما تغدو موضوعا لهوى جامح حالما تدخل في واحدة من العلاقات المشار اليها مع رجل آخر .

٢ ـ قد يكون الشرط الثاني أقل ثبوتا ، ولكنه يبعث على قدر مماثل من الدهشة هو الآخر . ولا يتحقق الطراز بتمامه إلا اذا انضاف هذا الشرط الى الاول ، مع أنه كثيرا ما يلوح وكأن الشرط الاول يمثُل بمفرده . ومؤدى الشرط الثاني هذا ما يلي : ان المرأة العفيفة وفوق الشبهات لا يكون لها أبدا تلك الجاذبية التي من شأنها ان ترفعها الى مرتبة الموضوع الحبي : فمثل هذه الجاذبية وقف على المرأة التي تحيط بحياتها الجنسية بصورة او بأخرى سمعة سيئة ، أي المرأة التي يستباح الشك في وفائها أو أهليتها للثقة . ومن الممكن لهذه السمعة الاخيرة ان تتفاوت على نطاق واسع ، فتتراوح من الظلال الخفيفة التي تتلبس سمعة امرأة متزوجة غير نفور من المغازلة الى سلوك العاهرة او فتاة الحب التي لا تتكتم بصدد تعدد علاقاتها . ومهما يكن من أمر ، فان الرجال الذين ينتمون الى الطراز الذي نحن بصدده لا يسعهم استغناء عن قدر ولو طفيف من هذا القبيل . وفي مقدورنا ان نطلق على هذا الشرط تسمية فجة في صراحتها ، هي **حب المومس** .

وكما أن الشرط الاول يتيح لميول حب المصارعة والعدوان ان تحظى بمبتغاها من الاشباع من خلال الرجل الذي تسلب منه زوجته المحبوبة ، كذلك فان الشرط الثاني ، الذي يطلب من المرأة ان تتصف بقدر من العهر ، ذو صلة بالدور الفعال **للغيرة** التي تبدو وكأنها بمثابة حاجة لعشاق هذا الطراز . فعندما يتأتى لهم ان يغاروا ، فحسب ، يدرك هواهم أوجه ، وتحظى المرأة بكامل قيمتها في نظرهم ، وهم لا يفوتون ابدا فرصة من شأنها أن تتيح لمثل تلك المشاعر القوية ان تنتابهم . وأعجب ما في الأمر ان هذه الغيرة ليست موجهة ضد المالك المشروع للمرأة المحبوبة ، وانما ضد غرباء ، ضد دخلاء جدد ممن يستطيعون ان يلقوا الشبهات على المرأة المحبوبة . وفي الحالات المشتطة لا يظهر العاشق اية رغبة في امتلاك المرأة لنفسه وحده ، ويلوح وكأن

العلاقات المثلثة الاطراف تطيب له الى أبعد حد . فأحد مرضاي ، وكان قد عانى أشد المعاناة من جهالات سيدة قلبه ، لم يبد مع ذلك اي اعتراض على مشروع زواجها ؛ بل على النقيض من ذلك ، فقد عمل على تيسيره بجميع الوسائل الممكنة ؛ ولم يظهر ازاء الزوج أدنى غيرة على مدى السنوات التالية . وفي حالة نمطية اخرى ، أبدى المريض غيرة شديدة حيال الزواج في اولى علاقاته الغرامية ؛ وأرغم معشوقته على قطع كل صلة زوجية لها بزوجها ، ولكنه سلك في علاقاته العديدة التالية مسلك غيره ولم ير في الزوج مصدر ازعاج ومضايقة .

والفقرات التالية لن تصف الشروط المطلوب توافرها في الموضوع الحبي ، بل سلوك العاشق حيال موضوع اختياره .

٣ ـ في الحياة الحبية السوية تتعين قيمة المرأة بنزاهتها الجنسية وتنخفض كلما تدانت الى صفات المومس . والحال ان النساء المتصفات بهذه الصفات هن اللائي يحظين من الرجال المنتمين الى الطراز الذي نحن بصدده بالمعاملة باعتبارهن مواضيع حبية **رفيعة القيمة كل الرفعة** : وبيِّن ان هذا السلوك يشذ في ظاهره عن السلوك السوي شذوذا يبعث على الدهشة . وتقترن العلاقات الحبية بهؤلاء النساء بانفاق عظيم في الطاقة النفسية ، إذ تبلغ حدا من التطرف تنحّي معه الاهتمامات الاخرى كافة : وتستأثر هؤلاء النساء بالحب كله وحدهن : ومطلب الوفاء الذي يفرضه الرجل على نفسه يتجدد تكرارا كلما اصطدم بما ينقضه على صعيد الواقع الفعلي . وتتسم العلاقات الحبية التي نحن بصدد وصفها بطابع **قهري** بارز كل البروز ، وهذا الطابع هو في الحقيقة ، والى حد ما ، خاصية كل حالة من حالات الهوى الحبي . بيد ان الوفاء وقوة العلاقة لا يبيحان لنا ان نستنتج أن صلة حب واحدة من هذا النوع تملأ كل الحياة الحبية للشخص المعني أو لا تقع له الا مرة واحدة في حياته هذه . بل على

العكس من ذلك ، فعلى مدى حياة من ينتمون من الأفراد الى هذا الطراز تتكرر مثل تلك الاهواء مرارا عدة ، حاملة الخصائص نفسها ، وكأن الهوى الواحد منها نسخة طبق الأصل عن الآخر . وحتى المواضيع الحبية يمكن لها ، بتأثير شروط خارجية معينة ، وعلى سبيل المثال تغيير مكان الاقامة أو الجوار ، أن ينوب بعضها مناب بعضها الآخر حتى ليصل بها الأمر الى **تشكيل سلسلة طويلة** .

٤ ـ إن اكثر ما يثير عجب المراقب لدى هذا الطراز من العشاق ميلهم السافر الى **إنقاذ** المراة المحبوبة . فالرجل راسخ الاقتناع بأن المراة المحبوبة بحاجة اليه ، وأنها ستفقد بدونه كل سيطرة اخلاقية على نفسها ، وستسقط سريعا الى مستوى يرثى له . وعلى هذا فهو ينقذها بقدر ما لا يتخلى عنها. وقد تجد نية الانقاذ هذه ما يبررها في بعض الحالات الخاصة حين يمكن التذرع بأن المراة المحبوبة ليست أهلا للثقة من وجهة النظر الجنسية وبأن مركزها الاجتماعي مهدد ؛ ولكن هذه النية تبقى ظاهرة للعيان حتى حيثما لا تفلح في العثور على أساس من الواقع تستند اليه . فقد عرفت رجلا ينتمي الى الطراز الذي نحن بصدد وصفه ، برع كل البراعة في غزو قلوب محبوباته بفن في الحوار والاغواء لا يضاهى ، ومع ذلك ما كان يدخر جهدا في العلاقة الغرامية التالية لكي يدفع بحبيبة الساعة الى طريق « الفضيلة » بالاستعانة بمقالات من تأليفه .

لو ألقينا نظرة شاملة على مختلف قسمات اللوحة كما رسمناها ـ الشرط الذي يتطلب ألا تكون المراة المحبوبة حرة ، والشرط الذي يماثل بينها وبين المومس ، والقيمة الرفيعة المسبغة على المراة المحبوبة ، والحاجة الى الغيرة ، والوفاء الذي يمكن ان يتجدد بسهولة مع كل موضوع من المواضيع المؤلفة لسلسلة ـ لاستبعدنا احتمال استخلاصها كلها من مصدر واحد . ومع ذلك ، لو تعمقنا في التحليل النفسي لتاريخ

حياة الاشخاص المشار اليهم ، لتوصلنا الى ذلك بسهولة ويسر. فهذا الاختيار ذو الطابع الخاص للموضوع وهذا السلوك الحبي الغريب لا يختلفان في الاصل النفسي عن الاختيار والسلوك اللذين نلتقيهما في الحياة الحبية للفرد السوي : فمصدرهما كامن في تثبيت محبة الطفل على الأم ، وهما يمثلان واحدا من مخارج هذا التثبيت . ولا تطالعنا الحياة الحبية السوية الا بعدد محدود من السمات التي تنم على نحو لا يتطرق اليه الشك عن النموذج الأموي في اختيار الموضوع ـ ومن قبيل ذلك ، مثلا ، اصطفاء الذكور الشباب لنساء ناضجات السن ـ على اعتبار ان الليبيدو يكون قد انفصل بسرعة نسبيا عن الام . اما في الطراز الذي نحن بصدده ، فان الليبيدو قد طال مكوثه على العكس عند الأم ، حتى الى ما بعد ابتداء البلوغ ، بحيث ان المواضيع الحبية التي يقع عليها الاختيار لاحقا تحافظ على بصمة السمات الأموية وتغدو جميعها بدائل أموية يمكن تعرّفها بسهولة . والمقارنة مع تشكل القحف لدى الوليد تفرض نفسها هنا : فعندما تطول مدة الولادة ، لا بد ان يأتي قحف الطفل متطاولا وكأنه صب في قالب المضيق السفلي لحوض الأم .

يتعين علينا الآن ان نسوق من الحيثيات ما نبرر به حكمنا بأن السمات المميزة للطراز الذي نحن بصدده ـ الشروط المحددة للحب والسلوك الحبي ـ تدين بأصلها فعلا للتشكيل الاموي . وهذه مهمة سهلة نسبيا فيما يتصل بالشرط الاول : لاحرية المرأة ، او شرط الثالث المغبون . فيسير علينا ان ندرك حالا ان الأم تخص الاب في نظر الطفل الذي يترعرع ضمن نطاق أسرته ، وأن هذه الواقعة تغدو في نظر هذا الطفل عنصرا غير قابل للانفصال عن الماهية الاموية ، وأن الثالث المغبون ان هو إلا الأب بشخصه ، وتندرج في سياق الطفولة ايضا سمة اخرى ، وهي المغالاة في التقييم التي ترفع المراة المحبوبة

الى مصاف كائن فريد ، منقطع النظير ، لا يمكن لأي كائن آخر ان ينوب مناب ، وذلك لأن المرء لا تكون له سوى أم واحدة ، ولان الصلة بالأم تقوم على أساس حدث لا يمكن ان يحوم حوله شك ولا سبيل لان يتكرر .

ان يكن مفروضا في المواضيع الحبية ، في الطراز الذي نصفه ، ان تكون في المقام الاول بدائل عن الأم ، فلن يشق علينا ان نفهم كونها تؤلف سلسلة ، حتى وان تناقضت هذه الواقعة تناقضا ظاهريا ومباشرا مع شرط الوفاء. فالتحليل النفسي يفيدنا من خلال أمثلة اخرى أيضا أن المتعذر استبداله الذي يفعل فعله في اللاشعور يتجلى في كل موضوع من المواضيع التي تؤلف سلسلة لامتناهية ـ وهي لامتناهية لان كل بديل يورث حسرة على غياب الاشباع الذي اليه تصبو النفس. وعلى هذا المنوال فان اللذة الجشعة التي يطرح بها الطفل الاسئلة في طور معين من سنه قابلة للتفسير بواقع ان لدى الاطفال سؤالا وحيدا يريدون طرحه ، وان كان لا يتخطى شفاههم أبدا ؛ وعلى هذا المنوال ايضا ، فان ميل الكثيرين من المعصوبين الى الثرثرة والهذر قابل للتفسير بما يضغط على صدورهم من سر يلحف عليهم بالبوح به ، وان كانوا لا يجهرون به أبدا برغم الاغراءات كافة .

وبالمقابل فإن الشرط الثاني المحدِّد للحب ، وهو الشرط الذي يوجد صلة قربى بين الموضوع المختار وبين المومس ، يبدو وكأنه يتنافى بقوة مع أي استنباط بدءاً من العقدة الامومية . فالراشدون يطيب لهم ان يتصوروا في فكرهم الشعوري الأم في صورة شخص ذي نقاء أخلاقي ناصع ، وربما لا شيء يجرح المشاعر ويهيض الكرامة ان جاء من الخارج ، ويخلف في النفس وقعاً موجعاً مراً ان نبع من الداخل ، كالشك الذي يلقى حول صفة الأم تلك . بيد أن هذا التنافي الباتر بين الأم والمومس هو على وجه التحديد الذي سيحدو بنا الى دراسة تاريخ

تطور هاتين العقدتين والصلة اللاشعورية بينهما ، وذلك على ضوء ما عرفناه منذ أمد طويل من أن ما يتبدى في الشعور منفلقاً الى حدين متناقضين يؤلف في الغالب من الاحيان كياناً واحداً في اللاشعور . وعلى الاثر يعود بنا بحثنا الى العهد الذي يحوز فيه الطفل لأول مرة معرفة كاملة بما فيه الكفاية بالعلاقات الجنسية بين الراشدين.. وذلك عند مشارف البلوغ . فالمعلومات الفجة التي يتلقاها عندئذ والتي ترمي بلا مواربة الى إثارة ازدرائه واشمئزازه ، تضعه على بيِّنة من سر الحياةالجنسية ، وتقوّض سلطة الراشدين بحكم تنافيها مع انفضاح امر نشاطهم الجنسي . وأعظم وقع تخلفه هذه الكشوف في نفس المطلع الجديد على الأسرار هو ما اتصل منها بالعلاقة بين والديه . فهو كثيراً ما يميل الى نفي هذه العلاقة نفياً قاطعاً بقوله مثلاً : « ربما كان أهلك وغيرهم يفعلون أشياء من هذا القبيل معاً ، ولكن هذا مستحيل بالنسبة الى اهلي » .

ان « للشروح الجنسية » لازمة نادراً ما تنفصل عنها : وهي المعرفة بوجود بعض نساء يتخذن من الممارسة الجنسية حرفة لهن ويجلبن على أنفسهن من جراء ذلك الازدراء العام . ومثل هذا الازدراء لا يمكن ان يكون غريباً عن فكر الغلام : فهو لا يساوره حيال اولئك التعيسات سوى مزيج من الانجذاب والاشمئزاز ، حالما يعلم أن في مقدورهن أن يولجنه هو ايضاً الى الحياة الجنسية التي كان يتصورها الآن وكأنها امتياز موقوف على « الكبار » . وفيما بعد ، ومتى ما انقطع لديه دابر كل شك في ما يقال له ، وحين يمسي متعذراً عليه ان يتمسك بفكرة ان والديه استثناء لا تسري عليه قاعدة ذلك النشاط الدنيء ، يقول بينه وبين نفسه ، محاكماً الامور بفجة كلبية ، إن الفارق بين الام والمومس ليس كبيراً الى ذلك الحد ، وذلك ما دامتا تفعلان الشيء عينه في خاتمة المطاف . وبالفعل ، توقظ فيه التفاسير التي تلقاها الآثار

الذاكرية للانطباعات والرغبات التي يرجع تاريخها الى طفولته الاولى ، وتنشط من جديد بدءاً من هذه الآثار بعض الحاثات النفسية . ويطفق يشتهي الأم نفسها ، بالمعنى الذي تكشف له ، ويبغض من جديد اباه وكأنه غريم ينهض عائقاً أمام رغبته :ويسقط، كما تقول ، تحت سلطان عقدة اوديب . إنه لا يغفر لامه ويعتبر أنها خانته إذ خصت أباه،لا هو نفسه ، بحظوة المعاشرة الجنسية . ولا يكون لهذه الحاثات من مآل ، ان لم ينقض أمرها بسرعة ، غير ان تتابع مجراها في التخييلات؛ ومضمون هذه التخييلات ، مهما تنوعت أشكالها ، نشاط الام الجنسي ، والتوتر الذي يصاحبها يجد حلاً له بيسر فائق في الاستمناء . وتحت ضغط المفعول المتضافر الذي تمارسه بصورة ملحفة هاتان القوتان الحافزتان ، الاغتلام والظما الى الانتقام ، تكون تخييلات خيانة الأم هي المأثورة بفارق كبير على ما سواها : والعشيق الذي تقترف معه الام خيانتها يتشح بصورة شبه دائمة بملامح أنا الصبي ، وبتعبير أدق ، ملامح الشخصية الذاتية المسبغ عليها هالة من المثالية والمرفوعة - وقد ادركت مدارك الرجال - الى مستوى الأب . وما كنت وصفته في غير هذا المكان باسم « الرواية العائلية »[1] يتضمن الصيغ العديدة التي تتشكل بدءاً من هذا النشاط التخييلي، وكذلك تداخلها مع اهتمامات أنانية شتى يعرفها الصبي في ذلك العمر . وبما أننا استكملنا دراسة هذا الجزء من النمو النفسي ، فلن يكون في مستطاعنا بعد الآن أن تدرج في عداد الوقائع المتناقضة والعصية على الفهم كون الشرط الذي يزاوج بين المرأة المحبوبة والمومس قابلاً للاستنتاج مباشرة من العقدة

---

(١) أ . رانك : اسطورة ميلاد البطل ، ١٩٠٩ : كتابات في علم النفس التطبيقي ، الدفتر٥، طبعة ١٩٢٢ (كان مقال فرويد « الرواية العائلية للعصابي » قد نشر بلا عنوان في كتاب رانك المشار اليه هنا . « م ») .

الامومية . وطراز حياة الرجل الحبية الذي نصفه هنا يحمل آثار تاريخ هذا النمو ويمكن فهمه ببساطة على أنه تثبيت للغلام على تخييلات سن البلوغ ، هذه التخييلات التي وجدت في زمن لاحق منفذاً لها في نهاية المطاف الى واقع الحياة . وما من مانع يحول دون التسليم بأن المثابرة في سن البلوغ على الاستمناء قد اسهمت في تثبيت هذه التخييلات .

أما الصلة بين هذه التخييلات التي تمكنت من السيطرة على الحياة الحبية الفعلية وبين الميل الى إنقاذ المرأة المحبوبة فتبدو وكأنها مجرد صلة رخوة ، سطحية ، قابلة للإرجاع الى أساس شعوري . فالمرأة المعشوقة ، بنزوعها الى التقلب وعدم الوفاء ، تعرض نفسها لأخطار : فمن المفهوم من ثم ان يبذل عاشقها قصاراه ليدرأ عنها شر هذه الاخطار بسهره على فضيلتها وبمعارضته نوازعها الشريرة . بيد ان دراسة الذكريات الستارية[٢] والتخييلات والاحلام الليلية تدل على اننا هنا بإزاء عملية « عقلنة » ، موفقة كل التوفيق ، لدافع لاشعوري ، عقلنة شبيهة ، في مجال الحلم ، بالصياغة الثانوية[٣] الناجحة . والواقع ان الدافع الى الانقاذ له مدلوله وتاريخه الخاصان . فهو فسيلة مستقلة بذاتها من العقدة الأموية[١] ، او بتعبير أدق ، من

---

(٢) الذكرى الستارية : ذكرى يتذكرها المريض في التحليل النفسي بوضوح ودقة وكثافة ، وتكون في الظاهر واهية الاهمية . وهي في الواقع تشكل بديلاً لتمويه بعض التخييلات والاستيهامات اللاشعورية . وقد عزا اليها فرويد ، من حيث أنها تمثل السنوات المنسية من الطفولة ، قيمة معادلة لقيمة المضمون الظاهر في الاحلام من حيث انه تشكيل بديل عن الافكار الكامنة . « م » .

(٣) الصياغة الثانوية : هي الطور الثاني من عمل الحلم بعد سيرورات التكثيف والنقل والتشخيص ، وقوامها إخراج المضمون الظاهر للحلم إخراجاً منطقياً . « م » .

(١) النسبة الى الام بالعربية هي الأمي ، ولكن بالنظر الى التباس هذا النعت (دلالته على الجاهل غير المتعلم) ، فقد تجاوزنا قواعد النسبة والاشتقاق ، وقلنا « اموي » بدلاً من « امي » . « م » .

العقدة الوالدية . فحين يطرق مسامع الطفل قول من يقول له إنه يدين بحياته لوالديه ، وإن أمه منحته الحياة ، تعتمل في نفســه جنباً الى جنب حاثات عطف ومحبة وحاثات تكافح لتجعل منه رجلاً كبيراً ، رجلاً مستقلاً ، وتتولد عن اجتماعهما رغبة رد في تلك الهدية الى والديه وفي إهدائهما مقابلها هدية تعادلها قيمة . فالامور تجري هنا كما لو أن الصبي المغتاظ يقول بينه وبين نفسه : لست بحاجة الى شيء يأتيني عن طريق أبي ، وبودي ان أرد إليه كل ما كلفته إياه . وعلى الاثر يستغرق في التخيلات التي تصور له انه **ينقذ اباه من خطر يتهدد حياته** ، فيبرىء على هذا النحو ذمته نحوه . وكثيراً ما يتحول هذا التخييل الى شخص الامبراطور او الملك او اي عظيم من العظماء ؛ ومن شأن هذا التحريف ان يجعله قابلاً لأن يصير شعورياً ، بل صالحاً للاستخدام من قبل الشاعر . وحين يكون الأب هو موضوع تخييل الإنقاذ ، فإن معنى التحدي هو الذي ترجح الى حد بعيد كفته ؛ امــا إذا كان موضوعه الام ، فإنه يتلبس في معظم الاحيان دلالة حنو ومحبة . فالام منحت الطفل الحياة ، وليس من اليسير مقابلة هذه الهدية الفريدة في نوعها بأخرى تعادلها قيمة . ولكن عن طريق تغيير بسيط في المعنى ـ وهو تغيير ميسور أمره في اللاشعور ، ويشبه على صعيــد الشعور الانزلاق من مفهوم الى آخر ـ يكتسب إنقاذ الام مدلول إعطائها طفلاً او استيلادها طفلاً يكون بطبيعة الحال صورة طبق الاصل عن الغلام نفسه . وهذا المدلول لا يباين مباينة اكبر مما ينبغي المعنى الأصلي لفعل « انقذ » ، ومن ثم فإن تغيير المعنى لم يكن جزافياً . فالأم أعطتك حياة ، حياتها بالذات ، وانت تعطيها مقابلها حياة أخرى ، حياة طفل يشبه ذاتك أعظم الشبه . ويعرب الابن عن اعترافه بالجميل برغبته في ان ينجب من الام ابناً يكون شبيهه : وهكذا يتماهى ، في تخييل الانقاذ ، تماهياً تاماً مع الأب . فجميع دوافع الحنو والمحبة والاعتراف

بالجميل والغلمة والتحدي والاستقلال الذاتي تحظى بإشباعها عبر رغبته الوحيدة في ان **يكون هو نفسه اباه** . ولا يتلاشى عنصر الخطر هو الآخر في اثناء تغيير المعنى ؛ فالولادة هي بالتحديد ذلك الخطر الذي نجا منه الابن بجهود الأم. والولادة هي الخطر الاول الذي يتهدد الحياة ، مثلما هي النموذج الأول لجميع الاخطار التي ستلي والتي يساورنا حيالها الحصر ، وأرجح الظن ان تجربة الميلاد هي التي خلفت فينا ذلك الدفق من الوجدان الذي نطلق عليـه اسم الجزع[*] . ومكدوف ، بطل الاسطورة الاسكتلندية الذي لم تضعه امه ، بل استخرج من جسمها ، لم يعرف بنتيجة ذلك الجزع .

لقد اصاب ارتميدوروس[٦] ، وكان في العصور القديمة مفسر منامات ، كبد الحقيقة حين قال ان الحلم يتغير مغزاه تبعاً لـشخص الحالم . وبمقتضى القوانين الناظمة للتعبير عن الافكار اللاشعورية ، فإن معنى فعل « أنقذ » يمكن ان يتغير تبعاً لكون صاحب تخييل الانقاذ امرأة او رجلاً . فبالنسبة الى الرجل يمكن أن يعني الانقاذ إنجاب طفل ، أي ان يكون هذا الرجل هو علة ولادته ، كما يعني بالنسبة الى المرأة ان تضع طفلاً .

هذه المعاني المختلفة لفعل « أنقـذ » يمكن تعرفها بوضوح في الاحلام والتخييلات على ضوء ارتباطها بالماء بوجه خاص . فحين يرى رجل في المنام أنه ينتشل امرأة من الماء ، فهذا معناه انه يجعل منها أماً ، وهذا معناه بدوره بمقتضى التأملات التي سبقت انه يجعل منها امه . وحين تنتشل امرأة كائناً ما (طفلاً) من الماء ، فإنما تدلل

(*) او الحصر بلغة التحليل النفسي التقنية . « م » .

(٦) ارتميدورس الافسسي : مؤلف كتاب **تفسير الاحلام** في خمسة مجلدات ، وكان يعتقد أن الاحلام وحي من الآلهة واستباق للغيب . وقد نقل اسحق بن حنين كتابه من الاغريقية الى العربية بعنوان كتاب **تعبير الرؤيا** . « م » .

بذلك ، مثلها مثل ابنة فرعون في قصة موسى[٧] ، على أنها امه ، اي تلك التي أنجبته .

وقد يتفق ايضاً ان ينطوي تخييل الإنقاذ ، ان كان الأب موضوعه، على معنى المحبة. فهو يعبر في هذه الحال عن رغبة المتخيل في ان يكون الأب ابناً له، اي في ان يكون له ابن شبيه بالاب. وانما بسبب جميع هذه العلائق بين فكرة الانقاذ والعقدة الوالدية يؤلف الميل الى إنقاذ المراة المعشوقة سمة أساسية من سمات طراز الحب الذي نصفه هنا .

ولا يبدو لي ضرورياً هنا ان أبرهن على صحة منهجي هذا الذي أرمي منه فقط ، على نحو ما فعلت حين عرضت **الايروسية الشرجية** ، الى ان أستخلص من مادة الملاحظات والمشاهدات طرزاً متطرفة وواضحة الحدود والمعالم . وفي الحالين كليهما يوجد عدد اكبر بكثير من الافراد ممن يتعذر علينا أن نلحظ لديهم سمات طرازنا هذه إلا على نطاق محدود أو في صورة أقل وضوحاً . ومن الواضح انه لن يتأتى لنا ان نقيّم هذه الطرز تقييماً صحيحاً ما لم نعرض السياق الذي تندرج فيه بتمامه .

(٢)

حول أعم تخفيضات الحياة الحبية

(١٩١٢)

- ١ -

متى ما تساءل المحلل النفسي عن الآفة التي بسببها يطلب الناس في اكثر الاحيان معونته ، فإنه لا يملك إلا أن يجيب ، اذا نحى جانباً

(٧) أ . رانك ، مصدر آنف الذكر .

الحصر في مختلف أشكاله وصوره : هي العنة النفسية. فهذا الخلل الغريب يصيب ذوي الجبلّة الليبيدوية القوية من الناس . وتتظاهر علائمه في ان الاعضاء التنفيذية للوظيفة الجنسية تأبى إتمام الفعل الجنسي ، بالرغم من أنه قد يثبت فيما بعد كما من قبل انها سليمة ومؤهلة لأداء وظيفتها . وبالرغم من وجود نزوع نفسي قوي الى إتمام هذا الفعل . وأول خطوة نحو فهم هذه الحالة يخطوها المريض نفسه حين يكتشف ان هذا الخور لا يتجلى إلا في محاولاته مع اشخاص بعينهم ، على حين أنه لا يعاني من شيء من هذا القبيل مع اشخاص آخرين . وعندئذ يفطن الى ان كف قوة رجولته ناجم عن سمة خاصة يتسم بها الموضوع الجنسي ، وقد يصرح أحياناً انه يحس بأن ثمة قوة تعتقله من داخل نفسه ، وأن ثمة إرادة مضادة تفلح في إعاقة قصده الشعوري . لكنه لا يستطيع أن يخمن ما كنه هذا العائق الداخلي وما السمة الخاصة للموضوع التي عنها ينشأ . فان تكررت خبرته بمثل هذا التقصير ، فقد يقدر في أرجح الظن ، بمقتضى تلك العملية المعروفة التي يقال لها الربط الكاذب ، ان ذكرى المرة الاولى هي التي فرضت ، بما تمثله من حصر باعث على الاضطراب ، تكرار إحباط المحاولات التالية ؛ أما تلك المرة الاولى عينها فيردها الى انطباع يزعم انه ساوره « مصادفة واتفاقاً » .

لقد سبق لباحثين عدة ان كتبوا ونشروا دراسات تحليلية نفسية عن العنة النفسية[٨] . وبوسع كل محلل نفسي ان يؤكد صحة ما ورد فيها من ايضاحات ، بالاستناد الى خبرته السريرية الخاصة . فالامر

(٨) م شتاينر : العنة الوظيفية لدى الرجل وعلاجها ، ١٩٠٧ ؛ ف . شتيكل : حالات الحصر العصبية وعلاجها ، فيينا ١٩٠٨ (الطبعة الثانية ١٩١٢) ؛ فيرنتزي : التأويل والعلاج التحليليان للعنة الجنسية النفسية لدى الرجل ، في مجلة الطب العصبي والعقل ، ١٩٠٨ .

يتعلق فعلاً بالتأثير الكاف الذي تمارسه بعض العقد النفسية التي لا تقع في متناول معرفة الفرد . والمضمون الغالب لهذه المادة الإمراضية هو ، في الاعم الغالب ، التثبيت المحرمي اللامتغلب عليه على الام او الاخت . وينبغي ، فضلاً عن ذلك ، ان نأخذ بعين الاعتبار تأثير الانطباعات والخبرات المؤلمة العارضة ، ذات الصلة بالنشاط الجنسي الطفلي ، والعوامل التي تنتقص ، بصفة بالغة العمومية ، من الليبيدو الذي كان مفروضاً فيه ان ينصب على الموضوع الجنسي المؤنث(٩) .

إن اخضعنا لدراسة تحليلية معمقة حالات من العنة النفسية المحققة ، فهاكم ما نعلمه عن السيرورات الجنسية النفسية التي تتحكم بهذه الحالات . فاساس الآفة هنا مرة اخرى - وربما كما في جميع الاضطرابات العصابية - كف في تاريخ تطور الليبيدو نحو تشكله النهائي الذي في مقدورنا وصفه بأنه سوي . فثمة تياران لم يلتقيا هنا ، علماً بأن اجتماعهما وحده يكفل سلوكاً حبياً سوياً كل السواء : وبوسعنا تمييز هذين التيارين واحدهما من الآخر بالقول إن أولهما هو تيار **المحبة** ، وثانيهما هو **التيار الشهواني** .

الاقدم عهداً بين هذين التيارين هو تيار المحبة . ومصدره الزمني سنوات الطفولة الاولى ؛ ويتكون بالاستناد الى اهتمامات غريزة حفظ الذات ، وينصب على افراد الأسرة والاشخاص الذين يتولون الطفل بالعناية . ويسوق معه من البداية طمياً من الغرائز الجنسية ، ومن مقومات الاهتمام الايروسي التي تشف عن نفسها بقدر متفاوت من الوضوح من عهد الطفولة ، والتي يكتشفها التحليل النفسي في زمن لاحق لدى العصوبيين في الحالات كافة . ويتناظر هذا التيار مع **الاختيار الموضوعاني الطفلي الاولي** . وهو يبين لنا ان الغرائز

(٩) ف . شتيكل ، مصدر آنف الذكر ، ص ١٩١ وما يليها (الطبعة الالمانية) .

الجنسية تلقى مواضيعها الاولى بالاستناد الى تقييمات الغرائز الانوية ، تماماً مثلما تأتي خبرة الاشباعات الجنسية الاولى بالاستناد الى الوظائف الجسمانية اللازمة لصون الحياة . و « محبة » الوالدين والاشخاص الذين يتعهدون الطفل بالعناية ، هذه المحبة التي نادراً ما لا تشي بطابعها الايروسي (« الطفل دمية ايروسية ») ، لها دور كبير في زيادة مساهمة الايروسية في توظيفات الغرائز الانوية لدى الطفل وفي رفع هذه التوظيفات الى مستوى لا مناص من أخذه بعين الاعتبار في النمو اللاحق ، وعلى الاخص متى ما ساهمت في ذلك بعض الظروف الاخرى .

ان تثبيتات المحبة هذه تستمر على امتداد الطفولة ، وما تنفك تجرف معها قدراً من الايروسية التي تتحول ، بنتيجة ذلك ، عن اهدافها الجنسية . والحال انه متى ما أزفت ساعة البلوغ ، انضاف اليها التيار « الشهواني » القوي الذي لا يخطىء بعد الآن اهدافه . وهذا التيار لا يتخلف ابداً على ما تشير الظواهر عن سلوك الطرق السابقة ، وعن توظيف شحنات ليبيدوية اقوى بكثير في مواضيع الاختيار الاولي الطفلي . ولكنه إذ يصطدم هنا بالعقبة التي تكون قد نُصبت في غضون ذلك ، أي حاجز المحارم ، فإنه سيبدي ميلاً الى الاهتداء في ابكر وقت ممكن الى الممر الذي يتيح له الانتقال من هذه المواضيع غير المواتية ، في الواقع ، الى مواضيع اخرى اجنبية يمكن معها للمرء ان يحيا حياة جنسية فعلية . هذه المواضيع الاجنبية سيجري اختيارها بدورها وفق نموذج (صورة) المواضيع الطفلية ، لكنها ستشد إليها المحبة التي كانت متعلقة بالمواضيع السابقة . فالرجل يترك أباه وأمه - كما يأمر الانجيل - ويلحق زوجته ؛ وعندئذ تتلاقى المحبة والشهوانية . واعلى درجات الهوى الحبي الشهواني ستستتبع اعلى مستوى من التقييم النفسي (مغالاة الرجل في تثمينه

السوي للموضوع الجنسي) .

ثمة عاملان محدَّدان اثنان قد يقضيان بالاخفاق على هذا التقدم في مجرى تطور الليبيدو . أولاً كمية **الاحباط الفعلي** التي ستعترض سبيل الاختيار الموضوعاني الجديد وستنتقص من قيمة هذا الاخير في نظر الفرد . وبالفعل ، ما معنى أن يتجه المرء نحو الاختيار الموضوعاني ما دام لا حظ له على الاطلاق في ان يتمكن من اختيار شيء مناسب ؟ والعامل الثاني هو كمية **الجاذبية** التي يمكن ان تبديها المواضيع الطفلية المطلوب هجرها ، وهذه الكمية تتناسب طرداً مع التوظيف الايروسي الذي شحنت به في اثناء الطفولة . وان يكن هذان العاملان على قدر كاف من القوة ، شرعت الاوالية العامة لتشكيل العصاب بالاشتغال . فالليبيدو يشيح عن الواقع ، فيحتكره النشاط التخييلي (الانطواء على الذات) ، فيعزز صور المواضيع الجنسية الاولى ويتثبت عليها . لكن حظر المحارم يرغم الليبيدو الميمم شطر هذه المواضيع على البقاء أسير اللاشعور . فإذا بالتيار الشهواني ، التابع الآن للاشعور ، يتظاهر في افعال استمنائية ، ويسهم من ثم في تعزيز ذلك التثبيت . ولا يغير في واقع الامر شيئاً ان يكون التقدم ، الذي باء بالفشل في الواقع ، قد تحقق الآن في الخيال ، وان تكون قد نابت مناب المواضيع الجنسية الخيالية ، في المواقف التخييلية التي تفضي الى إشباع استمنائي ، مواضيع اجنبية . فعن طريق مثل هذه البدائل يمكن للتخييلات ان تغدو شعورية ، ولكن لا يكون قد تحقق أي تقدم على الاطلاق في وضعية الليبيدو الفعلية .

على هذا النحو قد يتفق ان ترتبط كل شهوانية الفتى ، في اللاشعور ، بمواضيع محرمية ، أو بعبارة اخرى ان تتثبت على تخييلات محرمية لاشعورية . وتنجم عن ذلك عندئذ عنة مطلقة : وقد تتواكب هذه العنة مع ضعف فعلي ، تم اكتسابه في آن واحد ، في

الاعضاء التي تمارس الفعل الجنسي .

لا ضرورة ، كيما تنشأ العنة النفسية بحصر المعنى ، لأن تتحقق جميع هذه الشروط بدقة تامة . فليس من المحتم ان يخضع التيار الشهواني خضوعاً تاماً للمصير الذي يرغمه على الاختباء خلف تيار المحبة ؛ بل لا بد ان يبقى على قدر كافٍ من القوة أو أن يفلت من الكف بالقدر الذي يكفي أيضاً ليشق لنفسه جزئياً طريقاً الى الواقع . بيد أن أظهر العلائم والدلائل تتيح لنا أن نتحقق من ان النشاط الجنسي عند امثال هؤلاء الاشخاص ليس محمولاً بتمام قوة الدفع النفسي . فهذا النشاط متقلب ، سهل تعكيره ، أخرق في التنفيذ في كثير من الاحيان ، ولا يظفر إلا بقدر زهيد من المتعة . لكن اول ما يحتاجه هو أن يتجنب تيار المحبة . وعلى هذا المنوال يفرض انحداد ما نفسه في الاختيار الموضوعاني . فالمواضيع الوحيدة التي ينشدها التيار الشهواني الذي بقي فاعلاً نشيطاً ، هي المواضيع التي لا تذكره بالاشخاص المحرميين المحظورين عليه ؛ فإذا ما ثار في نفس الشخص انفعال من شأنه ان يفضي الى تثمين نفسي عالٍ ، لم يتمخض عن إثارة للشهوانية ، بل صب في مشاعر حنو ومحبة لا مفعول ايروسي لها .

والحق ان الحياة الحبية عند أمثال هؤلاء الاشخاص تظل موزعة (منفلقة) بين اتجاهين يجسدهما الفن في الحب السماوي والحب الارضي (او الحيواني) . فحيثما أحبوا ما اشتهوا ، وحيثما اشتهوا ما استطاعوا ان يحبوا . فهم يبحثون عن مواضيع لا حاجة بهم الى أن يحبوها ، وذلك كيما يبقوا شهوانيتهم على مبعدة من مواضيع حبهم : وبمقتضى قوانين « الحساسية العقدية » و « عودة المكبوت » يطرأ ذلك القصور الغريب في نوعه الذي هو العنة النفسية متى ما كان الموضوع ، الذي وقع عليه الاختيار لتحاشي زنى المحارم ، منطوياً على سمة ، غير بارزة في الغالب من الاحيان ، تعيد الى الذاكرة الموضوع المطلوب

تحاشيه .

في مواجهة اضطراب كهذا ودرءاً له ، فإن وسيلة الحماية الرئيسية التي يلجأ اليها الانسان الذي تعاني حياته الحبية من مثل ذلك الانفلاق هي الخفض النفسي للموضوع الجنسي ، على حين أن المغالاة في التقييم ، التي تكون في الحالات السوية من نصيب الموضوع الجنسي ، تمسي وقفاً على الموضوع المحرمي وعلى ممثليه . وبقدر ما يتحقق شرط الخفض هذا تقتدر الشهوانية على الإفصاح عن نفسها بحرية وتتمخض عن نجاحات جنسية وعن درجة عالية من اللذة . وثمة عامل آخر يسهم في الوصول الى هذه النتيجة . فالأشخاص الذين لم يصبّ لديهم تيار المحبة وتيار الشهوانية في مجراهما السوي ، تكون حياتهم الحبية في غالب الاحيان بعيدة ايضاً عن الاتسام بالرهافة والنعومة : فهم قد حافظوا على أهداف جنسية منحرفة ، وعدم تحقيق هذه الاهداف يكون له في نفوسهم وقع الحرمان الحاد من اللذة ، على حين ان تحقيقها لا يبدو ممكناً إلا بوساطة موضوع جنسي مخفوض القيمة ، منتقص القدر .

لقد تحدثنا في مساهمتنا(١٠) الاولى عن تخييلات الغلام الذي يخفض امه الى منزلة المومس : وها نحنذا ندرك الآن الدوافع التي تجعل هذه التخييلات قابلة للفهم . فهي بمثابة جهود لبناء جسر ، ولو بصورة استيهامية ، فوق الهوة الفاصلة بين كلا تياري الحياة الحبية ، ولتحويل الأم ، عن طريق خفضها ، الى موضوع للشهوانية .

(٢)

قمنا حتى الآن بفحص نفسي – طبي للعنة النفسية ،وهذا مما لا يبرر عنوان هذا المقال . لكن سيتضح لنا حالاً ان هذا المدخل كان

(١٠) طراز خاص من الاختيار الموضوعاتي لدى الرجل . «م»

ضرورياً للوصول الى موضوعنا الحقيقي .

لقد أرجعنا العنة النفسية الى عدم تلاقي تياري الحياة الحبية ، تيار المحبة وتيار الشهوانية ؛ وفسرنا هذا الكف في النمو بتأثير تثبيتات طفلية قوية وبتأثير الإحباط الذي يظهر لاحقاً. والاعتراض الاول الذي ينبغي الرد به على هذه النظرية هو شططها وإسرافها : إذ هي تفسر لنا لماذا يعاني بعض الاشخاص من العنة النفسية ، ولكنها تدع الغموض يلف واقع ان ثمة اشخاصاً آخرين يتأتى لهم الإفلات من هذه الآفة . إن جميع العوامل الظاهرة المشار اليها : التثبيت الطفلي القوي ، حاجز المحارم ، الاحباط في سني النمو في فترة ما بعد البلوغ ، يمكن ان تتواجد عملياً لدى جميع البشر المتحضرين ؛ ومباح لنا بالتالي ان نتوقع ان تكون العنة النفسية آفة عامة شاملة في إطار الحضارة ، لا مجرد مرض يصيب قلة من الناس دون كثرتهم .

من الممكن التملص بيسر من هذه الحجة عن طريق التذرع بالعامل الكمي في حتمية المرض ، وهو عامل يتحكم بقدر او بآخر بتأثير سائر العوامل المذكورة ، وبه يناط ظهور مرض بعينه او عدم ظهوره . لكني على عظيم رغبتي في الاقرار بصوابية هذا الجواب لا تساورني النية في اطراح الحجة المشار اليها ؛ بل أود أن اتقدم ، على العكس ، بأطروحة تجعل من العنة النفسية ظاهرة اكثر انتشاراً بكثير مما قد نظن ، على اعتبار ان درجة محددة من هذا العنة هي سمة من السمات التي تتصف بها فعلياً الحياة الحبية للانسان المتحضر .

لو توسعنا بمفهوم العنة النفسية ولم نحدده بقصور فعل الجماع في الحالات التي تتوافر فيها مع ذلك نشدان للذة وجهاز تناسلي سليم ، لتوجب علينا في المقام الاول ان نشمل به جميع اولئك الرجال الذين يقال إنهم مصابون بخدار نفسي : فالفعل عندهم يتم بلا خور ولكن كذلك بلا كسب في اللذة : وحالات هؤلاء اكثر تواتراً مما قد يحلو لنا

ان نتصور . ويكشف البحث التحليلي النفسي في مثل هذه الحالات عن العوامل الاتيولوجية عينها التي اكتشفناها في العنة النفسية بالمعنى الضيق للكلمة ، دون ان تجد الفوارق الاعراضية بنتيجة ذلك تفسيراً فورياً لها . ويقودنا هؤلاء الرجال المصابون بالخدار ، بحكم تشابه يسهل تبريره ، الى العدد الضخم من النساء الباردات اللائي لا يمكن وصف سلوكهن الحبي او فهمه بأحسن مما لو قارّنا بينه وبين العنة النفسية الاكثر صخباً لدى الرجل[11] .

لكن لو أننا ، بدل أن نتطلع الى التوسع بمفهوم العنة النفسية ، أنعمنا النظر في الاشكال التي تتظاهر بها اعراضها بالصورة المبسطة التي صورناها بها ، لما وجدنا بداً من التسليم بأن السلوك الحبي لدى الرجل في حضارتنا الحالية يحمل ، في مجمله ، طابع العنة النفسية : فتيار المحبة وتيار الشهوانية لم يتدمجا كما ينبغي إلا لدى عدد ضئيل من الكائنات المتحضرة ؛ فالرجل يشعر بصورة شبه دائمة بالمحدودية في نشاطه الجنسي بحكم احترامه للمرأة ، وهو لا يظهر ملء قوته إلا قبالة موضوع جنسي مخفوض القيمة ، وهذا أمر يستند ، من جهة اخرى ، الى واقع انطواء أهدافه الجنسية على عناصر منحرفة لا يبيح لنفسه إشباعها مع امرأة يحترمها . لذلك نراه لا يتوصل الى متعة جنسية كاملة إلا متى ما كان في مستطاعه ان يسلس قياده بلا رادع للإشباع ، وهو ما لا يجرؤ على فعله ، مثلاً ، مع زوجته ذات الحياء والحشمة . من هنا تنبع حاجته الى موضوع جنسي مخفوض ، الى امرأة من منزلة دنيا اخلاقياً لا يتعين عليه ان يعيرها اهتمامات جمالية، ولا تعرفه في حياته ولا تستطيع ان تحكم عليه . وانما على امرأة

(١١) اننا نسلم بلا جدال بأن برودة المرأة موضوع معقد ، يمكن تناوله من وجهة نظر اخرى ايضاً .

كهذه يؤثر ان يقف قوته الجنسية ، حتى وان كانت محبته تذهب بتمامها الى امرأة من مستوى اعلى . وغالباً ما يُلاحظ لدى الرجال المنتمين الى الطبقات الاجتماعية العليا ميل الى اتخاذ امرأة من مقام ادنى عشيقة لهم لأجل مديد من الزمن أو حتى الى اختيارها زوجة . وقد لا يعدو الأمر ان يكون ، في هذه الحال ايضاً ، نتيجة للحاجة الى الحظوة بموضوع جنسي مخفوض ترتبط به سيكولوجياً امكانية الاشباع الكامل .

لن أتردد في أن أعزو ايضاً تبعة هذا السلوك الحبي الكثير التواتر لدى الرجال المتحضرين الى العاملين اللذين يتحكمان بالعنة النفسية الحقيقية ، وأعني بهما : التثبيت المحرمي القوي في الطفولة والإحباط الفعلي في المراهقة . وما سأقوله ليس مما يحلو سماعه ، عدا عن انه مفارق . ولكن ليس لي مناص من قوله ، وهو ان الرجل كيما يكون في حياته الحبية حراً حقاً ، وبالتالي سعيداً ، لا بد ان يكون تغلب على احترام المرأة ، وتآلف مع فكرة العلاقة المحرمية بالأم او الأخت . ومن يخضع نفسه ، إزاء هذا المطلب ، لفحص ضمير جاد فسيكتشف بلا ادنى ريب أنه يعد الفعل الجنسي في دخيلة نفسه ، ورغماً عن كل شيء، فعلاً محطّاً لا يلطخ ولا يلوث الجسم وحده . وهذا التقييم ، الذي لا يقر به بطبيعة الحال بطيبة خاطر ، لن يجد من أصل له ، مهما أطال البحث ، إلا في تلك المرحلة من حداثته التي كان التيار الشهواني لديه قد بلغ فيها درجة ملموسة من القوة ولكنه ارتطم بتحظير الاشباع عليه بوساطة موضوع غريب بقوة تكاد تكون مماثلة لتحظيره عليه بوساطة موضوع محرمي .

ان النساء في حضارتنا يقعن بالمثل تحت التأثير البعيد لتربيتهن ، ويتحملن فضلاً عن ذلك عواقب سلوك الرجال . وبديهي ان الاذى بالنسبة الى المرأة واحد سواء أجاءها الرجل بدون قوته العارمة

أم حل محل المغالاة الاولية في التقييم ، الناجمة عن حالة العشق ، تخفيض للقيمة على اثر امتلاك الرجل لها . ونلحظ لدى المرأة الحاجة بدرجة اقل الى موضوع جنسي مخفوض : ولهذا صلة بلا أدنى شك بالشرط الآخر التالي ، وهو أن المرأة لا تنطوي بصفة عامة على شيء يضاهي المغالاة في التقييم الجنسي لدى الرجل . غير ان بقاء المرأة امداً طويلاً من الزمن بمنأى عن الجنسية وإطالة شهوانيتها المكوث في مجال التخييلات يترتب عليهما بالنسبة اليها نتيجة مهمة اخرى ، فهي في كثير من الاحوال تقف عاجزة ، في طور لاحق ، عن فصم الرابط الذي يربط النشاط الشهواني بالمحظورات ، وينجلي من ثم أمر عنتها النفسية ، اي برودتها ، حتى ما ابيح لها في نهاية المطاف هذا النشاط . ومن هنا كان مسعى الكثيرات من النساء الى صون السر وكتمانه لأجل آخر من الزمن ، حتى في حال إباحة العلاقة لهن ، ومن هنا ايضاً كان اقتدار نساء أخريات على استشعار احاسيس سوية حالما يتوافر شرط المحظور في علاقة حب سرية ؛ فخيانتهن للزوج تمكّنهن من توفير وفاء ثان للعشيق .

وعندي ان شرط الحظر في حياة المرأة الحبية يضاهي لدى الرجل الحاجة الى خفض الموضوع الجنسي . فكلاهما نتيجة للفاصل الزمني الطويل الذي يفصل بين النضوج والنشاط الجنسيين ، والذي تفرضه الحضارة عن طريق التربية . وكلاهما يرمي الى تصفية العنة النفسية الناجمة عن عدم توافق حالة المحبة والحالة الشهوانية . ولئن تمخضت الاسباب الواحدة عن نتيجة مختلفة الى هذا الحد لدى كل من المرأة والرجل ، فلربما كان بوسعنا أن نعزو ذلك الى فارق آخر في السلوك بين الجنسين . فالمرأة المتحضرة لا تنتهك إجمالاً الحظر المضروب على النشاط الجنسي في فترة الانتظار ، ومن ثم تنعقد لديها صلة وثيقة بين الحظر والجنسية . أما الرجل فيخرق في غالب الاحيان

هذا الحظر ، بشرط خفض الموضوع ، وعندئذ يصبح هذا الشرط جزءاً من حياته الحبية .

ونظراً الى الجهود الحثيثة التي تبذل في اطار الحضارة المعاصرة لإصلاح الحياة الجنسية . فقد لا يكون من النافل ان نذكّر بان المبحث التحليلي النفسي لا طموح له في هذا المجال اكثر مما لأي مبحث آخر . فليس له من هدف غير ان يكشف عن علاقات محددة برده الظاهر الى الخبيء . ولئن افادت الاصلاحات من كشوفه لتستبدل ما هو ضار بما هو أصلح ، فذلك يوافقه . ولكنه لا يستطيع ان يتنبأ بأن مؤسسات اخرى لن تتطلب تضحيات اخرى ، وربما أفدح .

(٣)

يترتب على تدجين الحضارة للحياة الحبية خفض عام للمواضيع الجنسية ، وفي هذا ما قد يحدونا الى الانتقال بأبصارنا من المواضيع الى الغرائز ذاتها . فالأذى الناجم عن الإحباط الأولي للمتعة الجنسية يتمثل في ان هذه المتعة ، متى ما ارخي لها العنان لاحقاً في إطار الزواج ، لا تؤتي ثمارها على نحو يبعث على تمام الرضى . غير أن الحرية الجنسية اللامحدودة ان ابيحت من البداية لا تفضي الى نتيجة افضل . فمن السهل ان نثبت ان القيمة النفسية للحاجة الحبية تتدنى حالما يغدو إشباع هذه الحاجة سهلاً ميسوراً . فلا بد من عقبة كيما يُصعِّد الليبيدو : وحيثما لا تكون المقاومات الطبيعية في وجه الاشباع كافية تجد أن البشر ، في كل آن وزمان ، يعمدون الى اصطناع مقاومات اصطلاحية لكي يتمكنوا من التمتع بالحب . وهذا يصدق على الافراد كما على الشعوب . ففي الازمنة التي ما عاد فيها الإشباع الحبي يصطدم بصعاب ، على نحو ما آلت إليه الحال في الارجح في طور افول

الحضارة القديمة ، صار الحب غير ذي قيمة ، وفرغت الحياة ، واقتضت الحاجة تشكيلات ارتجاعية قوية لإحياء القيم الوجدانية التي لا غنى عنها . ونستطيع من هذه الزاوية ان نؤكد ان التيار الزهدي في المسيحية ابتدع للحب منظومة من القيم النفسية ما كان للعصور القديمة الوثنية أن تخلعها عليه . وقد أدرك هذا التيار أسمى دلالة له مع الرهبان المتنسكين الذين ملأ حياتهم بتمامها تقريباً الكفاح ضد الإغواء الليبيدوي .

من المؤكد اننا قد نميل أول الأمر الى ان نعزو الصعاب القائمة في هذا المجال الى خصائص عامة لغرائزنا العضوية . فالاهمية النفسية لغريزة من الغرائز تنمو بالفعل طرداً مع إحباطها ، وهذه بلا مراء قاعدة عامة . فلو أننا حاولنا ان نخضع للجوع ، في شروط متماثلة ، عدداً معلوماً من الاشخاص مختلفين أقصى الاختلاف فيما بينهم ، لوجدنا جميع الفروق الفردية تمحي طرداً مع تعاظم الحاجة الآسرة الى الطعام ، لتظهر مكانها الامارات الاحادية الشكل لهذه الغريزة اليتيمة اللامشبعة . لكن هل من المحقق ايضاً ان إشباع غريزة من الغرائز بوجه عام يؤدي الى خفض ملحوظ ايضاً لقيمتها النفسية ؟ ليذهب الفكر بنا ، مثلاً ، الى العلاقة التي تقوم بين المدمن والخمر . أفليس صحيحاً ان الخمر يقدم دوماً لشاربه الإشباع السمّي نفسه الذي غالباً ما شبهه الشعر بالاشباع الايروسي - وهو تشبيه مقبول اصلاً من وجهة نظر علمية ؟ وهل سمع احد منا قط أن المدمن يضطر الى تغيير الشراب بلا انقطاع لأنه سرعان ما يسأم من شراب لا يتبدل ؟ العكس هو الصحيح : فالتعود يوثّق العلاقة دوماً بين الانسان وبين نوع الخمر الذي يشربه . وهل تظهر لدى المدمن حاجة الى الرحيل الى بلد يكون فيه الخمر أغلى ثمناً أو استهلاكه محظوراً كيما ينشط ، بمثل هذه الصعاب والعوائق ، إشباعه الآيل الى تدنٍ ؟ كلا ، على الاطلاق .

فلنصغ الى ما قاله واحد من كبار معاقري الخمرة - وهو بوكلن[١٢] - عن علاقة هؤلاء بهذه : فهم يتحدثون عن أصفى حال من الانسجام ويضربون بتلك العلاقة مثالاً لزواج موفق سعيد . فهل من سبب يحتم أن تكون علاقة العاشق بموضوعه الجنسي مختلفة الى هذا الحد ؟

وعليه ، ومهما بدا الأمر مستغرباً ، فإنني اعتقد انه قد يكون لزاماً علينا ان نفكر باحتمال معين ، وهو ان تكون طبيعة الغريزة الجنسية بالذات منطوية على شيء لا يوائم تحقيق الاشباع التام . ومن التاريخ الطويل والصعب لتطور الغريزة يبرز دفعة واحدة عاملان قد يكون في مستطاعنا تحميلهما تبعة مثل هذه الصعوبة . أولهما ان الموضوع النهائي للغريزة الجنسية لا يعود ، من جراء انقسام الاختيار الموضوعاني الى مرحلتين يتوسطهما تدخل حاجز المحارم ، هو الموضوع الاصلي ،وانما بديله فحسب . والحال ان التحليل النفسي افادنا ما يلي : عندما يتلاشى الموضوع الاصلي لحاجة رغبية من جراء الكبت ، فإنه غالباً ما تمثله سلسلة لامتناهية من المواضيع البديلة ، لا يكون أي منها كافياً ملء الكفاية . وهذا من شأنه ان يفسر لنا التقلب في الاختيار الموضوعاني ، وذلك « الجوع الى الاثارة » الذي هو سمة غالبة متواترة في الحياة الحبية عند الراشدين .

أما فيما يتصل بالعامل الثاني فنحن نعلم أن الغريزة الجنسية تنقسم في البداية الى سلسلة طويلة من المركّبات - او تنبع بالاحرى من سلسلة كهذه - وهذه المركبات قابلة جميعها لأن تدمج في التشكل اللاحق لهذه الغريزة ، ولكن لا بد قبل ذلك من ان تُقمع او تستخدم استخداماً مغايراً . وهي في المقام الاول مركبات غريزية كوبروفيلية[١٣]

(١٢) ج . فلوريكه : عشر سنوات مع بوكلن . الطبعة الثانية ، ١٩٠٢ .
(١٣) الكوبروفيليا: اللذة الجنسية للتبرز . « م » .

لم تلبث ان انكشف تناقضها مع المتطلبات الجمالية لحضارتنا ، وفي أغلب التقدير منذ ان اخذنا بالوضعية الواقفة وارتفعنا بعضو حاسة الشم عندنا فوق الأرض : وهي في المقام الثاني ، والى حد غير قليل ، حفزات سادية تنتمي الى الحياة الحبية . غير ان جميع سيرورات النمو والتطور هذه لا تطال سوى الطبقات العليا من هذه البنية المعقدة . اما السيرورات الاساسية التي تؤمّن الاثارة الحبية فتبقى ثابتة بلا تغيير . فالتبرزي مرتبط ارتباطاً حميماً لا فكاك له بالجنسي ، من ثم فإن موقع الاعضاء التناسلية ـ inter urinas et faeces [14] ـ يبقى العامل المحدِّد الثابت . وبوسعنا ان نقول هنا ، مقتبسين القولة المعروفة لنابليون الكبير : التشريح هو القدر . اما الاعضاء التناسلية بحد ذاتها ، فهي لم تسهم في تطور أشكال الجسم الانساني نحو الجمال ، بل بقيت حيوانية ، ومن ثم فإن الحب في جوهره ما يزال كما كان بالامس حيوانياً . ومن العسير تربية الغرائز الحبية ؛ وتتمخض تربيتها تارة عن اكثر من القدر اللازم ، وطوراً عن أقل من القدر اللازم . وما تتطلع الحضارة الى أن تفعله بها لا يبدو قابلاً للتحقيق بدون خسارة محسوسة في اللذة ، على حين ان دوام الحاجات غير المستعملة يتجلى في النشاط الجنسي في صورة عدم إشباع .

ربما لم يكن ثمة مناص بالتالي من ان نألف فكرة أن التوفيق بين مطالب الغريزة الجنسية ومتطلبات الحضارة أمر مستحيل مطلق الاستحالة ، وان العزوف ، والعذاب ، وكذلك في مستقبل بعيد جداً خطر انطفاء الجنس البشري، أمور لا سبيل الى تفاديها .صحيح أن هذه النبوءة القاتمة ترتكز الى فرض واحد يقول ان عدم الاشباع المترتب على الحضارة هو نتيجة بعض الخصائص التي أخذت بها الغريزة

(١٤) باللاتينية في النص : بين البول والبراز ، اقتباساً عن قول مأثور لأحد آباء الكنيسة : بين البول والبراز نولد . « م » .

الجنسية تحت ضغط الحضارة ؛ غير ان عجز الغريزة الجنسية هذا عن تأمين الاشباع الكامل ، حالما تخضع للمتطلبات الاولى للحضارة ، يغدو هو نفسه مصدراً لانجازات ثقافية عظمى يتم تحقيقها عن طريق إسماء متعاظم دوماً لمركّباتها الغريزية . وبالفعل ، هل كان سيوجد لدى البشر دافع الى ان يستخدموا استخداماً مغايراً القوى الغريزية الجنسية فيما لو كان في مستطاعها ، عن طريق شكل موائم من التوزيع ، توفير إشباع يرتفق بلذة كاملة ؟ الحق انهم ما كانوا في هذه الحال ليتنازلوا لحظة واحدة عن هذه اللذة ، ولما عادوا ينجزون اي تقدم . ومن ثم يبدو ان الفارق غير القابل للاختزال بين مطالب الغريزتين ـ الغريزة الجنسية والغريزة الانانية ـ هو ما يجعل البشر اهلاً لاجتراح إنجازات اسمى فأسمى دوماً ، وان يكن ذلك متلازماً بخطر دائم يقع فيه في الوقت الحاضر من هم اضعف من غيرهم ، واعني به العصاب .

ليس في نية العلم ان يخيف أو أن يعزي . غير أنني على استعداد انا نفسي للتسليم عن طواعية بأن استنتاجات بمثل هذه الاهمية كان ينبغي ان تقوم على اساس أوسع ، وأنه ربما كان من شأن كيفيات اخرى لتطور البشرية ان تفسح في المجال امام تصحيح النتائج المتولدة عن الكيفيات التي عالجتها هنا على حدة .

(٢)

حرمة البكارة

(١٩١٨)

قليلة هي خصائص الحياة الجنسية لدى البدائيين التي تبدو لنا غريبة غرابة موقفهم من البكارة ، أي من كون المرأة بكراً لم يمسها احد . فالقيمة التي يعلقها طالب الزواج اليوم على البكارة تبدو لنا

مقررة سلفاً وبديهية حتى اننا لنقع في شبه ارتباك اذا ما دعت الحاجة الى بناء هذا الحكم على أساس . واننا إذ نطالب الفتاة حين زواجها من رجل من الرجال ألا تحمل معها ذكريات عن علاقات جنسية يمكن ان تكون عقدتها مع رجل آخر ، لا نفعل شيئاً سوى اننا نوسّع منطقياً حق الامتلاك الحصري للمرأة ـ وهو الحق الذي يؤلف ماهيـة الزواج الاحادي ـ وتسحب هذا الاحتكار على الماضي .

ولا يصعب علينا عندئذ ان نبرر بما لدينا من آراء عن حياة المرأة الحبية ، ما كان يبدو للوهلة الاولى حكماً مسبقاً . فمن أشبع رغبة الفتاة الحبية الاولى التي طالما أمسكتها وتجشمت مشقة احتجازها ، وتغلب من ثم على المقاومات التي نصبتها لدى هذه الفتاة تأثيرات وسطها وتربيتها ، يكن قد أقام معها علاقة دائمة لا يمكن بعد الآن ان تقيمها مع أي رجل آخر . وعلى أساس هذه التجربة تدخل المرأة في حالة تبعية تضمن امتلاكها الدائم والهادىء وتوفر لها المقدرة على مقاومة الخبرات الجديدة والإغراءات الخارجية .

اننا ندين لكرافت ـ ايبنغ[15] بتعبير « التبعية الجنسية » ؛ فقد اختاره في عام ١٨٩٢ ليصف واقع أن الشخص يمكن ان يحوز معدلاً مرتفعاً للغاية من الخضوع والتبعية لشخص آخر أقام معه صلة جنسية . ومن الممكن ان تذهب هذه التبعية احياناً الى حد بعيد جداً ، فيفقد الشخص كل استقلال إرادي ويرضى بالتضحية بمنتهى القسوة بمصالحه الخاص ؛ على أن الباحث المذكور ما فاته ان ينوه بأنه « كيما تدوم العلاقة فترة ما ، لا بد قطعاً من درجة معينة من الإتباع » . والواقع ان هذه الدرجة من التبعية الجنسية ضرورية لا غنى عنها

(١٥) كرافت ايبنغ . ملاحظات حول « التبعية الجنسية » والمازوخية ، في مجلة حولية الطب العقلي ، السنة ١٠ ، ١٨٩٢ .

لقيام الزواج المتحضر ولاحتواء ما يتهدده من ميول الى المكاثرة من الـزوجات . وهـذا العامـل يؤخذ في الحسبـان دومـاً في تنظيمنـا الاجتماعي .

لقد أرجع كرافت ـ ايبنغ أصل التبعية الجنسية الى التلاقي بين « الحب وضعف الشخصية ذي الشدة الاستثنائية » من جهة اولى وبين الانانية التي لا حدود لها من الجهة الثانية . غير ان الخبرة التحليلية لا تبيح لنا ان نقتنع بمحاولة التفسير البسيطة هذه . بل بوسعنا بالاحرى أن نعزو دور العامل الحاسم هنا الى كمية المقاومة الجنسية التي تم التغلب عليها ، والتي ينضاف اليها الطابع المركّز والوحداني للعملية التي أتاحت امكانية التغلب عليها . وعليه تكون التبعية اكثر تواتراً وشدة بما لا يضاهى لدى المرأة منها لدى الرجل ، كما تكون لدى هذا الاخير ، من جهة أخرى ، اكثر تواتراً في عصرنا هذا منها في العصور القديمة . وفي الحالات التي امكن لنا فيها ان ندرس هذه التبعية الجنسية لدى الرجل ، تبدت لنا على أنها نتيجة لواقع ان امرأة بعينها تمكنت من التغلب على العنة النفسية لدى هذا الرجل الذي صار منذئذ موثق الرباط اليها . ويبدو لنا ذلك قميناً بتفسير الكثير من الزيجات الغريبة المخالفة للمألوف ، والعديد من المصائر المأساوية الفاجعة .

اننا لا نكون قد وصفنا كما ينبغي سلوك الشعوب البدائية ـ التي سنتكلم عنها الآن ـ اذا قلنا انها لا تعزو الى البكارة اية قيمة ، واذا سقنا دليلاً على ذلك لجوءها الى افتراع البنات الصبايا خارج إطار الزواج وقبل أي اتصال جنسي . بل يبدو بالاحرى ان فض البكارة عملية بالغة الاهمية بالنسبة الى هذه الشعوب ايضاً ، ولكنها صارت

لديها موضوعاً حرمياً[16] ، يطاله حظر ينبغي وصفه بأنه ديني . فبدلاً من ان يترك للخطيب ، زوج الفتاة المقبل ، أمر إنجاز هذه العملية ، يقضي العرف **بتجنيبه اياها**[17] .

لست أزعم ان اجمع هنا كل الشهادات الادبية على وجود هذا المحظور ، أو ان اتتبع مدى انتشاره الجغرافي ، أو ان أحصي جميع الاشكال التي يتجلى من خلالها . وانما سأكتفي بأن الاحظ انه يغلب كثيراً ان نلتقي لدى الشعوب البدائية المعاصرة هذا الافتضاض للبكارة خارج اطار الزواج الذي لا يُعقد إلا لاحقاً له . وهكذا يقول كراولي[18] : « يتم احتفال الزواج هذا بافتراع غشاء البكارة من قبل شخص مسمى لهذا الغرض هو غير الزوج ، واكثر ما يكون ذلك شيوعاً في المراحل المتأخرة من الحضارة ، وبخاصة في اوستراليا[19] » .

لكن ان يكن من الواجب الا يأتي الافتراع نتيجة للاتصال الزوجي الاول ، فلا مناص من ان يكون شخص ما قد قام به قبل ذلك ، بطريقة أو بأخرى . وعليه سأستشهد فقط ببضع فقرات من كتاب كراولي الذي تقدمت بي الإشارة اليه ؛ ومن شأن هذه الفقرات ان تنوّرنا بصدد هذه النقطة وأن تبرر في الوقت نفسه ما سنبديه من ملاحظات نقدية :

(١٦) الحرمي : نسبة الى الحرمة ، اي التابو TABOU ، وهي تعني بالعربية ما تعنيه بالضبط هذه الكلمة البولينيزية الاصل . فالحرمة هي في آن واحد ما وجب القيام به من حقوق الله وما لا يحل انتهاكه . كما ان الحرام هو ضد الحلال . ومن ثم فإن الحرمي هو ما كان مقدساً ومحظوراً في آن معاً . « م » .

(١٧) كراولي : الوردة المحرمة ، دراسة في الزواج البدائي ، لندن ١٩٠٢ ؛ بارتلز - بلوس : المرأة في الطبيعة وفي العلم الشعبي ، ١٨٩١ ؛ فقرات شتى لدى فريزر الحرام واخطار النفس ؛ وهافلوك - ايليس : دراسات في علم نفس الجنس .

(١٨) المصدر الأنف الذكر ، ص ٣٤٧ .

(١٩) الشاهد - والشواهد التالية - بالانكليزية في النص . « م » .

ـ الصفحة ١٩١ : « لدى قبيلة الديبري وبعض القبائل المجاورة (في اوستراليا) جرى العرف على إزالة غشاء بكارة البنت متى ما بلغت (JOURN . ANTHROP . INST . XXIV ,169) .أما لدى قبائل بورتلاند وغلينلغ فإن مهمة إزالة غشاء بكارة العروس تقع على عاتق امرأة عجوز ، ولا يندر ان يستعان برجال بيض لافتراع الصبايا (BROUGH SMITH . *Op. cit.*, II , 319) .

ـ الصفحة ٣٠٧ : « إن التمزيق القصدي لغشاء البكارة يتم في الطفولة احياناً ، لكنه يجري في العادة في زمن البلوغ ... وكثيراً ما يُقرن ، كما في اوستراليا ، بعملية مجامعة رسمية » .

ـ الصفحة ٣٤٨ (بخصوص القبائل الاوسترالية التي تفرض قيوداً على الزواج الخارجي ، ونقلاً عن إفادة لسبنسر وجيلن) : « يُفترع غشاء البكارة بصورة مصطنعة ، ويقوم الرجال من الحضور بعد ذلك ، وفق ترتيب محدد ، بمجامعة الفتاة (طقسياً ، لنكرر القول) ... وتتم العملية على مرحلتين : ازالة غشاء البكارة ثم المجامعة » .

ـ الصفحة ٣٤٩ : « لدى قبيلة الماساي (افريقيا الاستوائية) ، يؤلف إخضاع البنت لهذه العملية إجراء من اهم الاجراءات التمهيدية للزواج(J . THOMSON . *Op. cit.*, 258) . ولدى قبائل الساكاي (ماليزيا) والباطا (سومطرة) والالفوير السولاويزية يتولى فض البكارة ابو العروس (PLOSS U . BARTELS , *Op. cit.*, II , 490) . وفي الفليبين يمتهن بعض الرجال حرفة افتراع العرائس في حال أن غشاء البكارة لم يتم فضه في الطفولة على يد امرأة عجوز توكل اليها احياناً هذه المهمة (FEATHERMAN . OP. CIT , II , 474) . ولدى بعض قبائل الاسكيمو يعهد الى « الانجيكول » أي الكاهن أمر افتراع العروس » (*Ibid.*, III , 406) .

ان الملاحظات التي اعلنت عنها تتصل بنقطتين . أولاً ، فلنعرب

عن أسفنا من أن هذه المعطيات لا تميز بمزيد من الدقة بين محض إزالة غشاء البكارة بلا جماع وبين الجماع الذي يهدف الى ازالة هذا الغشاء.ففي احدى الحالات فقط جرى النص بصريح العبارة على ان العملية تنقسم الى مرحلتين : الافتراع (باليد او بأداة) ثم المجامعة التي تليه . اما المادة ، الغنية جداً اصلاً ، التي يزودنا بها بارتلز ـ بلوس BARTELS - PLOSS ، فهي ليست ذات غنى يذكر لنا لان الدلالة السيكولوجية لعملية الافتراع تغيب تماماً في وصفهما لها لصالح النتيجة التشريحية . ثم اننا كنا نود لو نعلم ما وجه الاختلاف بين الجماع « الطقسي » (الشكلي المحض ، الاحتفالي ، الرسمي) الذي يتم في تلك الظروف وبين الاتصال الجنسي المألوف . والحق ان المؤلفين الذين امكن لي ان أطالع كتبهم كانوا إما مفرطين في التحشم فأمسكوا عن التصريح بصدد هذه النقطة وإما أنهم استهانوا بدورهم بالدلالة السيكولوجية لمثل تلك التفاصيل الجنسية . ولنا ان نأمل في ان تكون التقارير الأصلية التي دوّنها الرحّالة والآباء المرسلون اكثر وضوحاً وصراحة . ولكن نظراً الى انه من رابع المستحيلات في ايامنا هذه[٢٠] الوصول الى هذه المنشورات التي هي في الغالب اجنبية ، فإني لا استطيع ان اقطع برأي في هذا الخصوص . ومهما يكن من أمر ، فإنه يسعنا ان نتحاشى التشكيك في هذه النقطة الثانية بافتراضنا ان طقس التظاهر بالجماع يمثل بديلاً أو ربما يقوم مقام الجماع الذي كان يتفذ بتمامه في الازمنة القديمة[٢١] .

وان شئنا تفسير حرمة البكارة هذه ، فبوسعنا الاستعانة بجملة

---

(٢٠) أي في اواخر الحرب العالمية الاولى ـ م .

(٢١) لا مجال للشك في انه في العديد من حالات الطقوس الزواجية الاخرى كان اشخاص آخرون غير العريس ، وعلى سبيل المثال زملاؤه ورفاقه (غلمان جوقة الشرف بموجب عاداتنا) ، يمنحون حق التمتع بالعروس .

من العوامل التي سانتناولها بالعرض السريع . فبصفة عامة تنزف البنت دماً عند افتراعها ؛ ومن ثم فإن أول محاولة للتفسير ترتكز الى خوف البدائيين الذين يعتبرون الدم مقر الحياة ، وتشهد على حرمة الدم هذه احكام شتى لا صلة لها إطلاقاً بالجنسية ، وجلي ظاهر ان هذه الحرمة مرتبطة بتحظير القتل ، وانها بمثابة حماية من الظمأ الاصلي الى الدم ، من الرغبة في قتل انسان الاصول الاولى . ويجمع هذا التصور بين حرمة البكارة وحرمة الطمث التي لا يتعدم ابداً وجودها . ولا يستطيع البدائي ان يفصل ظاهرة الحيض الملغزة عن التمثلات السادية . فهو يؤول الطمث ، وعلى الاقل الطمث الأول ، على انه ناجم عن عضة من حيوان خارق للطبيعة ، او ربما على انه علامة على اتصال جنسي بهذه الروح . وغالباً ما يكون في الامكان تعرف روح احد الاسلاف في هذه الروح ، وعندئذ نفهم ، بالرجوع الى مصادر اخرى للمعرفة[٢٢] ، ان تكون الفتاة ذات حرمة باعتبارها ملكاً لروح هذا السلف .

غير ان ثمة ما ينبهنا ، من ناحية اخرى ، الى ضرورة عدم المبالغة في اهمية عامل كعامل الخوف من الدم . فهذا العامل لم يتمكن ، بالفعل ، من كبح عادات معينة كختان الصبي ، بل ـ وهذا افظع ـ ختان البنت (بتر البظر والشفرين الصغيرين) ، وغيرها من العادات التي درجت عليها تلك الشعوب عينها احياناً . كذلك فإنه لم يحل دون تثمين هذه الشعوب لطقوس اخرى يهرق فيها الدم . لا داعي الآن لأن يأخذنا العجب ان وجدنا أن ذلك الخوف قد تم التغلب عليه لصالح الزوج لدى المعاشرة الاولى .

ثمة تفسير ثان يبتعد هو الآخر عن المضمار الجنسي ،غير أنه

---

(٢٢) انظر الطوطم والمحرم . ١٩١٣ .

عظيم الاهمية في المضمار العام . ومؤداه ان البدائي فريسة لحالة من القلق المستمر ، المتربص دوماً ، الشبيه بالقلق الذي نفترض وجوده لدى المعصوبين الحصاريين بموجب نظرية التحليل النفسي في الاعصبة . هذه الحالة القلقة تتجلى بمزيد من الحدة في الظروف التي تنأى بصورة او بأخرى عن المألوف ، إذ تحمل بين طياتها شيئاً جديداً ، لامتوقعاً ، لامفهوماً ، يبعث على القلق . من هنا ينشأ الطقس ، الذي لن يلبث ان يعم على سعة في الاديان المتأخرة ، والذي يرتبط باستهلال كل نشاط جديد ، وببداية كل حقبة زمنية ، وبأول وليد للانسان او الحيوان او النبات . ذلك ان الاخطار التي يعتقد الانسان القلق انها تكمن له بالمرصاد لا تتفق ابداً تمام الاتفاق مع توقعه إلا في مستهل الموقف الخطر ، وعندئذ فحسب ينبغي له ان يأخذ حذره منها . والاتصال الجنسي الأول في اطار الزواج يستوجب بكل تأكيد ، نظراً الى خطورته ، ان تتخذ كمقدمة له تلك التدابير الاحتياطية ، وهاتان المحاولتان التفسيريتان ـ وأولاهما ترتكز الى الخوف من الدم وثانيتهما إلى الخوف من البدايات ـ لا تناقض واحدتها الاخرى ، بل على العكس تجد كل منهما ما يعززها في الثانية . فالاتصال الجنسي الاول عمل تترتب عليه بالتأكيد نتائج جسام ؛ ومما يزيد في جسامة هذه النتائج اقتران هذا العمل بسيلان للدم .

وثمة تفسير ثالث ، وهو الذي يحبذه كراولي ، يلفت انتباهنا الى واقع أن حرمة البكارة تندرج في سياق يشمل الحياة الجنسية بأسرها . فليس الجماع الأول مع المرأة وحده حراماً ، وانما جميع العلاقات الجنسية هي كذلك . بل يكاد يجوز لنا القول إن المرأة بتمام شخصها حرمة[٣٣] . فالمرأة ليست حرمة فقط في المواقف الخاصة

(٣٣) الى اليوم لا نزال نقول للمرأة بالعربية حرمة . م .

المرتبطة بحياتها الجنسية : الطمث ، الحمل ، المخاض ، الولادة ؛ بل تخضع العلاقات بالمرأة، حتى خارج هذا الاطار ، لقيود بالغة الكثرة والصرامة حتى لتجد أنفسنا في حل من التشكيك في الحرية الجنسية المزعومة لدى المتوحشين . صحيح ان جنسية البدائيين لا تعرف في بعض الحالات أي رادع ؛ غير أنها تبدو في العادة أسيرة نواهٍ اكثر تشدداً من نواهي المراحل الاكثر تحضراً . فعندما يعقد الرجل العزم على القيام بشيء ما خاص : غزوة ، صيد ، حرب ، يتعين عليه ان يجتنب المرأة ، وان يجتنب على الاخص معاشرتها جنسياً ؛ فإن لم يمتنع قضي على قواه بالخور وكان الفشل نصيبه المحقق . ولا نستطيع ايضاً ان نتجاهل ما تنطوي عليه أعراف الحياة اليومية من ميل الى الفصل بين الجنسين . فالنساء يعشن مع النساء ، والرجال مع الرجال ، ولا وجود ان جاز التعبير لحياة عائلية ـ بالمعنى الذي نفهمه من هذه العبارةـ لدى العديد من قبائل البدائيين . وقد يشط الفصل في بعض الاحيان شططاً مسرفاً بحيث لا يجوز لأفراد أحد الجنسين ان يلفظوا اسماء اشخاص من الجنس الآخر ، وبحيث تبتدع النساء لغة خاصة بهن بمفردات خاصة . ويمكن للحاجة الجنسية في كل آن وحين أن تخرق حاجز هذا الفصل ، لكن اللقاء حتى بين الزوجين ينبغي ان يتم ، في عرف العديد من القبائل ، خارج اطار البيت وفي جو من السرية .

وحيثما يفرض البدائي تحريماً ، فمعنى ذلك انه يخشى خطراً ؛ ولسنا نستطيع ان ننكر حقيقة واقعة ، وهي ان شتى ضروب الحظر والتحاشي تنم عن خوف جوهري حيال المرأة . وربما امكن تعليل هذا الخوف بكون المرأة هي غير الرجل ، وبكونها تبدو لامفهومة ، يلفها السر ، غريبة ، ومن ثم عدوة . فالرجل يخاف ان تضعفه المرأة ، ان تعديه انوثتها فينكشف عندئذ عجزه . والمفعول المنيم، المرخي ، للجماع

يمكن ان يكون النموذج الاصلي لهذا القلق ؛ ولئن اتسع نطاق هذا القلق فيما بعد فمبرر ذلك ما يستشعره البدائيون من تعاظم لنفوذ المرأة على الرجل بفعل العلاقات الجنسية ومدى ما تستأثر به من الاعتبار في اثنائها ، وما من شيء من هذا كله قد شاخ ، وما من شيء منه قد فقد قيمته في ايامنا هذه بعد .

ان العديدين من الدارسين للبدائيين الذين لا يزالون يحيون بين ظهرانينا الى يومنا هذا راوا ان النازع الحبي لدى البدائيين ضعيف نسبياً ، وأنه لا يبلغ ابداً شدته المألوفة لدى المتحضرين من البشر . ولكن دارسين آخرين فندوا هذا الرأي . ومهما يكن من أمر ، فإن الاعراف الحرمية التي جرى الكشف عنها تشهد على وجود قوة معارضة للحب ، لانها تقصي المرأة باعتبارها غريبة وعدوة .

يوضح كراولي ، بعبارات لا تختلف إلا قليلاً عن المصطلحات المألوفة للتحليل النفسي، ان كل فرد يعزل نفسه عن الآخرين بـ « حرمة انفراد شخصي »[٢٤]،وان الفروق الصغيرة في ما هو متشابه من سائر الجوانب الاخرى هي الاساس الذي تقوم عليه مشاعر الغرابة والعدائية بين الافراد . وإنه لمن المغري لنا أن توسِّع نطاق هذه النظرة ، فنشتق من « نرجسية الفروق الصغيرة » هذه العدائية التي تخوض في كل علاقة انسانية حرباً مظفرة ، كما نشاهد ، ضد الشعور بالتضامن ، وتهزم الوصية التي تأمر كل الناس بأن يحبوا كل الناس . ويعتقد التحليل النفسي أنه حدس بأن واحداً من الحوافز الرئيسية لموقف الرفض النرجسي ، الذي يمازجه قدر غير قليل من الازدراء ، الذي يقفه الرجل من المرأة ينبغي ان يعزى الى عقدة الخصاء والى ما لهذه العقدة من تأثير على الحكم الصادر على المرأة .

(٢٤) بالانكليزية في النص . م .

بيد أنه يخلق بنا ان نلاحظ ان هذه التأملات الاخيرة قد شطت بنا بعيداً عن موضوعنا . فالحرمة العامة للمرأة لا تلقي أي ضوء على الاحكام الخاصة التي تتصل بالمجامعة الاولى مع فتاة بعينها . وهنا نجدنا وقد أُرجعنا الى التفسيرين الاولين : الخوف من الدم والخوف من البداءات ، وهما تفسيران لا نجد مناصاً من أن نقول انهما لا ينفذان الى لب المبدأ الحرمي موضوع بحثنا . فظاهر للعيان ان الأساس الذي يقوم عليه هذا المبدأ هو الحرص على **منع الزوج المقبل او إعفائه** من شيء لا سبيل تحديداً الى فصله عن المجامعة الاولى ، وان يكن المفروض ، كما بيَّنا ذلك في مستهل مقالنا هذا ، ان تتمخض هذه العلاقة نفسها عن رابطة من نوع خاص تربط تلك المرأة بهذا الرجل .

ليست مهمتنا هذه المرة ان نناقش لا أصل هذه الاحكام الحرمية ولا دلالتها . فهذا كنت فعلته في كتابي **الطوطم والحرام** : ففيه اوضحت ان ازدواجية اصلية هي الشرط الاول للحرام ، وذدت فيه عن الفكرة التي تقول إنه متولد عن سيرورات ترجع الى ما قبل التاريخ وافضت الى تأسيس الأسرة البشرية . ولسنا بمستطيعين ان نتعرف بواكيره في الاعراف والعادات الحرمية التي يراعيها اليوم البدائيون . ولكم ننسى بسهولة أن الشعوب الاكثر بدائية تحيا هي الاخرى في ظل حضارة نائية جداً عن الازمنة البدائية ، حضارة لا تقل عراقة في الزمن عن حضارتنا ، وتمثل هي الاخرى حقبة من التطور متأخرة زمنياً ، وان تكن مختلفة عن حضارتنا .

اننا نجد لدى البدائيين المعاصرين أن الحرام منسوج في لحمة نظام بارع ، مشابه تماماً لذاك الذي ينبني في أرهبة العصابيين : فمحل الدوافع القديمة تحل دوافع جديدة تتوافق وإياها بانسجام . لكن فلننح جانباً هذه المشكلات النشوئية ، لنعود الى الفكرة القائلة ان

البدائي يؤسس حرمة حيثما يخشى خطراً . وهذا الخطر هو ، بوجه عام ، خطر نفسي لأن البدائي ليس مكرهاً على القيام بتفرقتين تبدوان لنا محتمتين . فهو لا يميز لا الخطر المادي من الخطر النفسي ، ولا الخطر الواقعي من الخطر الوهمي . وبموجب تصوره الإحيائي والمنطقي للعالم ، فإن كل خطر انما ينبع من النية العدائية لكائن حي مشابه له ، سواء أصدر هذا الخطر عن قوة طبيعية أم عن بشر ام عن حيوانات . ومن جهة اخرى ، اعتاد هذا البدائي ان يسقط على العالم الخارجي حفزاته العدائية الداخلية . وأن يعزوها على هذا النحو الى المواضيع التي يستشعرها على أنها مزعجة أو غريبة فحسب. ومن ثم فإنه يتعرف في المرأة ايضاً مصدراً للأخطار ، والمجامعة الاولى معها تنطوي بالتالي على خطر بالغ الشدة .

والحال انني اعتقد اننا سنفوز ببعض الايضاحات بصدد كنه هذا الخطر الكبير والسبب في انه يتوعد الزوج المقبل تحديداً لو درسنا بمزيد من التدقيق سلوك النساء اللائي يحيين في ايامنا هذه ، وفي ظل حقبتنا الحضارية ، عندما يواجهن الظروف نفسها . وأخمّن أن النتيجة التي ستتمخض عنها هذه الدراسة هي انه يوجد فعلاً خطر من هذا القبيل ، وان البدائي يدفع عن نفسه بالتالي ، من خلال حرمة البكارة ، خطراً من حقه أن يستشعره ، حتى وان يكن خطراً نفسياً .

اننا نرى أنه من الطبيعي ان تضم المرأة بعد الجماع ، وفي ذروة الإشباع ، الرجل بين ذراعيها ، ونعد ذلك تعبيراً عن عرفانها والتزامها بالتبعية الدائمة . لكننا نعلم انه ليس من المحتم اطلاقاً أن تستتبع المعاشرة الجنسية الاولى سلوكاً من هذا القبيل ايضاً . فهي لا تعني للمرأة في اكثر الاحيان إلا خيبة واحباطاً ؛ ومن ثم تبقى المرأة باردة ، بلا إشباع ، ولا بد في العادة من مزيد من الوقت ، ومن تكرار مطرد للعملية الجنسية ، كيما تعرف المرأة هي الاخرى طريقها الى

الاشباع . وما اكثر الحالات التي تبدأ بهذه البرودة في مستهل العلاقة ، وهي برودة عابرة ، لتنتهي الى نتيجة مؤلمة تتمثل في برودة دائمة لا يتوصل الرجل الى التغلب عليها مهما بذل للمرأة من حب وحنو . وعندي أن برودة المرأة هذه لم تحظ منا بالفهم الكافي ، وأنه لا بد لنا من تفسيرها بقدر الامكان . فيما عدا الحالة التي ينبغي ان تلقى التبعة فيها على عنة الرجل ، بظاهرات قريبة منها .

لن أقف هنا عند محاولات التهرب - وهي كثيرة - من المجامعة الاولى ، إذ ينبغي لنا أن نفهمها بصور شتى ، وقبل كل شيء ، وهذا ان لم يكن بصفة دائمة ، بوصفها تعبيراً عن ميل المرأة العام الى الدفاع عن نفسها . بالمقابل فإنني اعتقد ان بعض الحالات الباتولوجية تلقي ضوءاً على لغز البرودة الانثوية : اقصد بذلك الحالات التي تفصح فيها المرأة بصراحة بعد المجامعة الاولى ، بل عند كل مجامعة جديدة ، عن عدائها للرجل بأن تشتمه وتهينه ، او ترفع يدها عليه ، او تضربه فعلياً . وهذا ما كان يحدث في حالة مدهشة من هذا القبيل ، حالة تسنى لي ان أخضعها لتحليل معمق ، علماً بأن تلك المرأة كانت تحب زوجها حباً جماً ، وكان من عادتها أن تطلب بنفسها الجماع ، وتجد فيه بدون أي احتمال للخطأ متعة عارمة. واعتقد أن هذه الاستجابة المضادة الغريبة هي نتيجة لتلك الحاثات عينها التي لا يسعها في العادة الإفصاح عن نفسها إلا بالبرودة ، دون ان تدعي لنفسها مزايا لا تملكها . ذلك ان ما يكون في البرودة متحداً بفعل الكف ينفصل في الحالة الباتولوجية ، وهي أقل تواتراً بكثير ، الى عنصريه المقوِّمين الاثنين ان جاز القول ، تماماً كما يحدث - وهذا ما نعرفه منذ زمن بعيد - في الاعراض التي يقال لها « ثنائية الطور » للعصاب الوسواسي . والخطر الذي يخلقه فعل افتراع الفتاة يتمثل في أن المفترع يجلب عليه عداءها ، ومن ثم فإن من مصلحة الزوج المقبل أن

يتملص من مثل هذه البغضاء .

يتيح لنا التحليل الآن أن نرهص بيسر بطبيعة الحاثات التي تسهم في بروز هذا السلوك المفارق الذي أتوقع أن أجد فيه تفسير البرودة . فالجماع الأول يحرك مجموعة من الحاثات غير القابلة للاستعمال برسم الموقف الانثوي المرجو ، والتي لن يعاود بعضها ظهوره على الاطلاق في العلاقات اللاحقة . ويذهب بنا الفكر اولاً الى الالم الذي ينوب الفتاة من الافتراع ،وقد يميل بعضهم الى اعتبار هذا العامل حاسماً فلا يعود يبحث عن غيره . لكن ليس من الحق ان نعزو الى الالم مثل هذه الدلالة ، بل ينبغي بالاحرى ان نرى مكانه جرحاً نرجسياً ينشأ عن تدمير عضو من الاعضاء ويجد ممثلاً عقلياً له في وعي ما يصيب المرأة الثيِّب من نقصان في قيمتها الجنسية . غير ان عادات الزفاف لدى البدائيين تحذرنا من مثل هذا الغلو في التقدير . فقد علمنا ان الطقس يكون في العديد من الاحوال على مرحلتين : فبعد تمزيق غشاء البكارة (باليد أو بأداة) ، يجري جماع رسمي أو تظاهر بالمجامعة ، مع ممثل الزوج ؛ وهذا ينبهنا الى ان مغزى المبدا الحرمي لا يكمن بتمامه في واقعة تحاشي الافتراع التشريحي ، والى أن المطلوب تجنيب الزوج شيئاً آخر بعد غير رد المرأة على الجرح المؤلم .

أننا نلقى سبباً آخر للخيبة في الجماع الأول في كون التوقع والإنجاز لا يتطابقان لدى المرأة المتحضرة . فإلى ذلك الحين كانت العلاقة الجنسية مقرونة بقوة بناهٍ من النواهي ؛ ولهذا السبب لا يكون وقع العلاقة المشروعة والمباحة في النفس مماثلاً . وعمق هذا الاقتران يتجلى بصورة شبه هزلية في ميل الخطيبين الى ان يخفيا عن الغرباء جميعاً ، وحتى عن ذويهما ، علاقتهما الحبية الجديدة مع أن ما من ضرورة توجب ذلك ولا وجود لاية معارضة يخشى جانبها . وكثيراً ما تصرح الفتيات ان حبهن يفقد في نظرهن من قيمته اذا ما علم بأمره

آخرون ، وقد يكون هذا الدافع احياناً من القوة بحيث يحول دون اي تطور للحب في الزواج . فالمرأة لا تستعيد قدرتها على بذل المحبة إلا في إطار علاقة غير مباحة ومحتم عليها ان تبقى طي الكتمان ، وتكون فيها المرأة واثقة من انها تدخل فيها بملء ارادتها دون أن تكون واقعة تحت اي تأثير .

على أن هذا الدافع لا يمضي بنا بدوره بعيداً ؛ وفضلاً عن ذلك فإنه لا يتيح لنا ، بحكم ارتباطه بالشروط الحضارية ، أن نجري مقارنة جيدة مع وضع البدائيين . اما العامل التالي ، المبني على تاريخ تطور الليبيدو ، فإنه لا يكتسب بنتيجة ذلك إلا المزيد من الدلالة والاهمية . فقد دلتنا جهود التحليل النفسي كم تكون توظيفات الليبيدو الاولى منتظمة وقوية . والمقصود بذلك هنا رغبات جنسية محتجزة منذ عهد الطفولة ؛ وقوام هذه الرغبات في غالب الاحيان لدى المرأة تثبيت لليبيدو على الأب أو على الاخ الذي يقوم له مقام البديل . ويغلب ان تستهدف هذه الرغبات شيئاً آخر غير الجماع أو انها لا تشتمل على الجماع إلا بصفته هدفاً غير محدد . فالزوج هو على الدوام ان جاز القول مجرد بديل ، وليس هو بحال الرجل بملء معنى الكلمة ، بل ثمة رجل آخر كان أول من وسم بميسمه الطاقة الحبية لدى المرأة ، وهذا الآخر هو في الحالات النمطية الأب . اما الزوج فما هو في احسن الاحوال إلا الثاني . وبيت القصيد الآن ان نعرف مدى شدة هذا التثبيت ومدى ما ينبغي ان يكون عليه من تصلب وثبات كيما يتم نبذ الرجل ـ البديل باعتباره عاجزاً عن إشباع المرأة . اذن فالبرودة منوطة بالشروط النشوئية للعصاب . فكلما كان العنصر النفسي اعظم قوة في حياة المرأة الجنسية ، وكلما أظهر توزيع الليبيدو عندها مقدرة اكبر على مقاومة صدمة المجامعة الاولى ، كان وقع الامتلاك الجسدي لهذه المرأة اخف وطأة . وهكذا يمكن أن تتثبت البرودة باعتبارها كفاً

عصابياً او ان تقدم اساساً لتمخض اعصبة اخرى ، ومن ثم فإن اي ضعف في قدرة الرجل ، ولو كان طفيفاً ، يمكن ان يكون له اثر كبير ، وان كعامل مساعد .

ان العرف الذي درج عليه البدائيون في ايكال عملية فض غشاء البكارة الى رجل شيخ أو قديس او كاهن ، وباختصار الى بديل للاب (انظر ما تقدم) ، يبدو والحالة هذه وكأنه يأخذ بعين الاعتبار دافعاً رغبياً جنسياً قديماً . ويتهيأ لي أن طريقاً مباشراً يقود من هذه الواقعة الى **حق الليلة الاولى**[٢٥] الذي كان يتمتع به السيد الاقطاعي في العصور الوسطى والذي دار حوله نقاش كثير . وقد حامى أ . ج . ستورفر storfer عن التصور عينه[٢٦] وأوّل ، فضلاً عن ذلك ، العرف الواسع الانتشار الذي يقال له « الزواج على طريقة طوبيا » (وهو عرف يقضي بالاستنكاف في الليالي الثلاث الاول) على انه اعتراف بامتيازات رب الأسرة . وكان ك.غ.يونغ قد ذهب من قبل هذا المذهب في تأويله له[٢٧] . وعلى هذا فلن يدهشنا ان نجد بين بدائل الاب الموكل إليهم فض البكارة تمثال الآلهة بالذات . ففي العديد من اقاليم الهند كان يتعين على العروس أن تضحي بغشاء بكارتها على مسلة خشبية مقدسة[٢٨] . وبحسب ما رواه القديس اوغسطينوس[٢٩] فإن العادة

(٢٥) باللاتينية في النص : JUS PRIMAE NOCTIS . « م » .
(٢٦) حول الوضع الخاص لقتل الاب ، في كتابات في علم النفس التطبيقي ، السنة ١٢ .
(٢٧) اهمية الاب في مصير الفرد ، في حولية التحليل النفسي ، السنة ١ ، ١٩٠٩ .
(٢٨) المسلات المقدسة عند الهنود LINGAM : مسلات خشبية أو حجرية على شكل القضيب ، ولها صفة قدسية . « م » .
(٢٩) بلوس وبارتلز : المرأة ، م ١ و ١٢ ، ودولور : الآلهة الخالقة ، باريس ١٨٨٤ (معاد طبعه عن طبعة ١٨٢٥) ، ص ١٤٢ وما بعدها .

نفسها كانت من ضمن طقس الزفاف الروماني في عصره ، مع فارق واحد وهو أن العروس ما كان عليها إلا ان تجلس فوق الفالوس الحجري الضخم لبريابوس[٣٠] .

وثمة دافع آخر يرسي جذوره في طبقات أبعد غورا بعد . وهو المسؤول الاول عن رد الفعل المفارق تجاه الرجل ، ويتجلى تأثيره في رأيي في برودة المرأة ايضا . فالجماع الأول يحرك لدى المرأة حاثات اخرى غير تلك التي تقدم بنا وصفها ، حاثات تتعارض بوجه خاص مع الوظيفة والدور الانثويين .

لقد اتضح لنا من تحليل عصابيات عديدات انهن يمررن في مستهل حياتهن بمرحلة يحسدن فيها اخاهن على امتلاكه علامة ذكورة ويعتبرن انفسهن لحرمانهن منها (أو بتعبير ادق لاختزالها لديهن) مغبونات ومهملات . ونحن ندرج « حسد القضيب » هذا في عداد عقدة الخصاء . واذا جعلنا « الرجولية » صفة من يريد ان يكون رجلا ، امكننا ان ننعت هذا السلوك بأنه « احتجاج رجولي » ، وهو نعت ابتدعه آدلر ليعلن ان هذا العامل هو عامل عام في العصاب . ويغلب في تلك المرحلة ألا تخفي البنات الصغيرات حسدهن وما يستتبعه من عداء تجاه شقيقهن الاوفر حظا منهن : وقد يحاولن ايضا ان يتبولن واقفات كما يفعل اخوهن جهراً منهن بمساواتهن المزعومة . وفي الحالة التي أسلفت ذكرها عن عدوان لا تمويه فيه يقع بعد الجماع على الرجل المحبوب مع ذلك من قبل المرأة المعتدية عليه ، امكن لي ان اتحقق من أن تلك المرحلة ثم اجتيازها قبل الاختيار الموضوعاني الاول . وانما في طور لاحق فحسب اتجه ليبيدو البنت الصغيرة نحو

(٣٠) بريابوس : إله القوة التناسلية عند الذكور لدى الرومان . والفالوس PHALLUS هو في الاصل عضو الذكورة . وفي التحليل النفسي رمزه او بديله . « م » .

أبيها ، وكان ما رغبت فيه عندئذ ، بدل القضيب ، طفلا[٢١] .

لن يدهشني ان أجد في حالات اخرى تسلسلا معكوسا لهذه الحالات ، بحيث ان هذا الجانب من عقدة الخصاء لا يسري مفعوله الا بعد انجاز الاختيار الموضوعاني . لكن المرحلة الرجولية لدى المرأة ، أي المرحلة التي تحسد فيها الصبي على قضيبه ، أقدم عهدا في تاريخ تطورها واقرب من الحب الموضوعاني الى النرجسية الاصلية .

لقد أتاحت لي المصادفة منذ فترة من الزمن الفرصة لدراسة حلم عروس صبية ، وكان من الميسور ان أتعرف ما في هذا الحلم من رد فعل على فض بكارتها . فقد كان يشف بلا قسر عن رغبة المرأة في ان تخصي زوجها الشاب وان تحتفظ لنفسها بقضيبه . وكان من الممكن بكل تأكيد اعطاء الحلم تأويلا اكثر براءة فنقول انها كانت ترغب في ان تطيل أمد المجامعة وان تكررها ؛ بيد أن بعض تفاصيل الحلم كانت تتجاوز هذه الدلالة ، كما ان طباع الحالمة وسلوكها اللاحق كانت ترجح كفة الاخذ بالتأويل الاصرم . وخلف حسد القضيب هذا تكشفت من ثم مرارة المرأة العدائية تجاه الرجل ، وهي المرارة التي لا يجوز بتاتا اغفال شأنها اغفالا تاما في العلاقات بين الجنسين والتي من أوضح علائمها التطلعات والابداعات الادبية لـ « المتحررات » من النساء . وقد ارجع فيرنزي (أجهل ان يكن هو أول من فعل ذلك) هذه المرارة ، في فرض بيولوجي إحاثي PALEOBIOLOGIQUE ، الى زمن تمايز الجنسين . فالجماع كان يتم في البداية ، على ما يرى ، بين فردين من جنس واحد ، ولكن احدهما كان سباقا الى النمو ، ومن ثم أرغم الاضعف على تقبل الاتصال الجنسي . ومرارة هذه الدونية تتجلى في

(٢١) انظر : حول انزياحات الغرائز ، وبالاخص في الايروسية الشرجية ، ١٩١٧ (الصفحة ١١٩ من هذا الكتاب ، « م ») .

سلوك المرأة الراهن . وأعتقد أنه لا يحق لنا ان نلوم احدا على لجوئه الى مثل هذه الفروض ما دام يتفادى الغلو في تقييمها .

بعد تعدادنا لدوافع استجابة المرأة المفارقة لعملية فض بكارتها ، وهي استجابة تستمر في البرودة ، يمكننا ان نخلص الى القول باقتضاب ان **الجنسية غير الكاملة** لدى المرأة تلقي بحملها على عاتق الرجل الذي عرفت معه الاتصال الجنسي الاول . وهكذا تأخذ حرمة البكارة كامل معناها ، ويتأتى لنا ان نفهم مرمى المبدأ الذي يسعى الى تجنيب الرجل ـ الذي ستجمعه وهذه المرأة حياة مشتركة مديدة ـ اخطارا كهذه . وفي اطوار اكثر تقدما من الحضارة يخلي تقدير هذا الخطر مكانه لوعد بالخضوع والتبعية ، وبالتأكيد ايضا لدوافع وجوانب اخرى : فالبكارة تعد ثروة لا يجوز للرجل التنازل عنها . غير أن تحليل الخلافات الزوجية يبين ان الدوافع التي تحدو بالمرأة الى الانتقام لافتراعها لم تخمد جذوتها هي الاخرى تمام الخمود في الحياة النفسية للمرأة المتحضرة . وأعتقد ان كل مراقب لا بد أن يستوقف انتباهه كون المرأة تبقى في عدد لا يستهان به من الحالات باردة وتشعر بالتعاسة في زواجها الاول ، ثم تصبح بعد فصم عرى هذا الزواج زوجة سعيدة ومحبة مع زوجها الثاني . وبذلك تكون الاستجابة الاثرية قد أُستنفدت بنوع ما في **الموضوع** الاول .

ومهما يكن من أمر فان حرمة البكارة لم تختف تمام الاختفاء من حياتنا المتحضرة . فالروح الشعبية تعرفها وقد يلجأ الشعراء احيانا الى استخدامها . يرينا انزنغروبر ANZENGRUBER في ملهاة له كيف يستنكف فلاح شاب ساذج عن الزواج من المرأة التي كان مفترضا ان تصير زوجة له لأنها « عاهرة ستكلف الاول حياته » ، ويقبل لهذا السبب بأن تتزوج من غيره ولن يمتلكها من ثم قبل ان تترمل وتضمحل قدرتها على الاذى . وعنوان المسرحية : **سم العذراء**

يذكرنا بأن الحواة يتركون الثعابين السامة تعض أول الامر في منديل كيما يتسنى لهم بعد ذلك مداورتها باليد بلا خطر[٣٢] .

وأروع وصف في شكل تمثيلي معروف لحرمة البكارة نلقاه في شخصية يهوديت في مأساة هيبل[٣٣] : **يهوديت واليفانا** . فيهوديت امرأة صبية كانت بكارتها تحميها حرمة . وقد أصيب زوجها الاول ليلة العرس بشلل نتيجة لقلق غامض ولم يجرؤ منذئذ على مقاربتها . تقول : « إن جمالي هو جمال ست الحسن[٣٤] . فمن ينعم به يحل به الهذيان أو الموت » . وإذ كان القائد الاشوري يحاصر مدينتها ، تفتقت في ذهنها فكرة إغوائه والقضاء عليه بجمالها ، متدبرة بذلك دافعا وطنيا تخفي به دافعا جنسيا . وبعد ان افترعها ذلك الرجل القوي ، المشهور ببأسه وغلظته ، استمدت من السخط الذي دب في نفسها القوة الكافية لتقطع رأسه ، وصارت من ثم محررة شعبها . ونحن نعلم جيد العلم ان قطع الرأس هو البديل الرمزي عن الخصاء ؛ وعليه فان يهوديت هي المرأة التي تخصي الرجل الذي افترعها ، مثلما شاء ذلك

(٣٢) على الرغم من الاختلاف ، في الموقف ، فإن ثمة قصة قصيرة رائعة لشنتزلر A. SCHINTZLER بعنوان **مصير البارون لايزنبورغ** تستأهل ان نستشهد بها هنا ، فعاشق الممثلة الصبية الخبيرة بفنون الحب اعاد اليها بنوع ما بكارتها بعد ما وقع ضحية لحادث ، فاستنزل لعنة الموت على كل من يقربها من بعده. وقد امتنعت المرأة الصبية لفترة من الزمن عن كل علاقة جنسية ولكنها لما وقعت في غرام احد المغنين صممت ، كيما تتخلص من المأزق ، على ان تمنح البارون ليلة طالما صبا اليها منذ سنوات وسنوات بلا نجاح . ولكن على نفسه سقطت اللعنة . فما كاد يعلم بسبب فوزه بسعادته غير المؤملة حتى قضى ضحية نوبة قلبية .

(٣٣) فريدريش هيبل مؤلف مسرحي الماني (١٨١٣ - ١٨٦٣) ، مؤلف ثلاثية **النيبلونجن** والمسرحية الرومانسية **يهوديت واليفانا** التي استوحى موضوعها من قصة البطلة التوراتية التي انقذت مدينتها باغوائها اليفانا ، قائد جيوش نبوخذنصر ، وقطعت رأسه في اثناء نومه . « م » .

(٣٤) ست الحسن : نبات سام مخدر من فصيلة الباذنجانيات . « م » .

ايضا حلم العروس الصبية الذي تكلمت عنه . وانما عن قصد خلع هيبل طابعا جنسيا على القصة المختلقة من العهد القديم ، إذ ان يهوديت التوراتية تستطيع ان تفخر بأنها ما تلوثت ، وليس في النص التوراتي أصلا اية اشارة الى ليلة عرسها المشؤومة . وأرجح الظن ان الشاعر ، بما أوتيه من حساسية مرهفة ، أرهص بالدافع جد القديم الذي يكمن وراء القصة المغرضة ، فما فعل سوى ان أعاد الى الموضوع مضمونه القديم .

لقد أوضح ل. سادجر SADJER في تحليل ممتاز كيف ان هيبل كان مشروطا في اختياره لموضوعه بعقدته الوالدية ، وكيف كان ينحاز دواما الى جانب المرأة ويقف موقف المناصر من جميع الخلجات والحفزات الدفينة التي تعتمل في نفسها[٣٥] . وقد نوه ايضا بالدوافع التي احتج بها المؤلف ليدخل على موضوعه ما ادخله عليه من تحويرات ووصفها بحق بأنها خادعة ، وقال ان ليس لها من غرض غير ان تبرر خارجيا وأن تموه جوهريا ما كان عند الشاعر نفسه لاشعوريا . ولن اتطرق هنا الى التفسير الذي اعطاه سادجر للسبب الذي أوجب على يهوديت التوراتية الارمل ان تصير عذراء ارمل . وهو يشير الى ان من غرض التخييلات الطفلية ان تنكر وجود العلاقات الجنسية بين الوالدين وأن تجعل من الام عذراء لم يمسسها بشر . لكني سأضيف ما يلي : ما ان رد الشاعر الى بطلته بكارتها حتى تريثت مخيلته المتعاطفة عند رد الفعل العدائي الذي استثاره فض البكارة .

بوسعنا اذن ان نختم على ما يلي : ان الافتراع ليست نتيجته الحضارية الوحيدة ربط المرأة بصورة دائمة الى الرجل ؛ بل هو يطلق ايضا استجابة عدائية أثرية ضد الرجل، استجابة قد تتلبس اشكالا

(٣٥) **من الباثوغرافيا الى السيكوغرافيا**، مجلة ايماغو ،السنة ١ ، ١٩١٢ .

باتولوجية تفصح عن نفسها في كثرة من الاحيان بظاهرات كفية في حياة الزوجين الحبية ، واليها نستطيع ان نعزو نجاح الزيجات الثانية في الغالب بالمقارنة مع الاولى . ان حرمة البكارة الغريبة ، والخوف الذي ينصاع له الزوج لدى البدائيين بتحاشيه الافتراع ، يجدان في تلك الاستجابة العدائية علة تبريرهما .

ومنذئذ يصبح من المثير للاهتمام بالنسبة الينا ، بوصفنا من المحللين النفسيين ، ان نلتقي نساء تتجلى لديهن الاستجابتان المتعارضتان كلتاهما ، أعني استجابة الخضوع والتبعية واستجابة العداء ، وقد بقيتا مرتبطتين واحدتهما بالاخرى . فهناك نساء يظهرن على خلاف تام مع ازواجهن ولا يسعهن الا ان يجاهدن بغير طائل للافتراق عنهم . وكلما نهدن الى منح رجل آخر حبهن ، لجمتهن عن هذه المحاولة صورة الرجل الاول ، الذي لم يعد مع ذلك محبوبا . وهكذا يفطن التحليل الى ان هؤلاء النسوة ما زلن قيد استجابة خضوع وتبعية لزوجهن الاول ، ولكن ليس هذه المرة بدافع من المحبة . فهن لا يستطعن انعتاقا منه لانهن لم يأخذن بثأرهن منه . وفي الحالات الواضحة نشاهد ان حفزتهن الى الانتقام لم تصر عندهن شعورية بعد .

الفصل الخامس

النرجسية : مدخل(١)

(١٩١٤)

(١)

جاء مصطلح النرجسية من الوصف السريري ، وقد اختاره ب.ناكه NACKE في عام ١٨٩٩ ليشير به الى سلوك الفرد حين يعامل جسمه بطريقة مشابهة لتلك التي يعامل بها في العادة جسم موضوع جنسي : فهو يتأمله مجتنيا من ذلك لذة جنسية ، ويلامسه ، ويداعبه ، الى ان يفوز من هذه الممارسات بالاشباع الكامل ، والنرجسية ، اذا ما بلغت هذا الحد ، يصير لها دلالة الانحراف الذي يستغرق كلية الحياة الجنسية للشخص المعني ، ولنا ان نتوقع بالتالي ان نلتقي عندها بالظاهرات عينها التي نلتقي بها في دراستنا لسائر الانحرافات .

وتبيَّن للملاحظة التحليلية النفسية فيما بعد ان سمات محددة من السلوك النرجسي تتكرر لدى كثرة من الاشخاص ممن يعانون من اضطرابات اخرى ، وعلى سبيل المثال لدى الجنسيين المثليين، على ما يذهب اليه سادجر . ثم كان الانتباه الى الافتراض بأن توظيفا معينا لليبيدو ، مما ينبغي اطلاق اسم النرجسية عليه ، يمكن أن يكون له

(١) هذا العنوان ليس بمثابة « مدخل » الى مفهوم مكتمل الانشاء، وانما هو « إدخال » لهذا المفهوم في نظرية التحليل النفسي وانشاء له . « م » .

دور في حقل اوسع بكثير وان يطالب بمكانه في النمو الجنسي النظامي للكائن البشري[٢] . وقد قادت مصاعب العمل التحليلي النفسي لدى العصوبيين الى الافتراض عينه : فقد بدا بالفعل ان سلوكا نرجسيا من النوع نفسه يمثل حدا من حدود التأثير الذي يمكن ممارسته على هؤلاء المرضى . والنرجسية،بهذا المعنى،لن تكون انحرافا ، وانما تكملة ليبيدوية لانانية غريزة الحفاظ على الذات ، هذه الغريزة التي يعزى نصيب منها ، بحق ، الى كل كائن حي .

لقد حملتنا دوافع قاهرة على الاهتمام بفكرة وجود نرجسية أولية سوية ، حينما تصدينا لاخضاع تصور الخبل المبكر (كرابلين) او الفصام[٣] (بلولر) لفرضية نظرية الليبيدو . فهؤلاء المرضى ، الذين اقترحت ان نطلق على مرضهم اسم البارافرينيا ، تتجلى لديهم سمتان طبعيتان أساسيتان : هذاء العظمة وانصرافهم باهتمامهم عن العالم الخارجي (الناس والاشياء) .وبفعل هذا التحول الاخير يفلتون من تأثير التحليل النفسي ويستعصي على جهودنا الوصول الى شفائهم . غير ان انصراف المريض بالبارافرينيا عن العالم الخارجي لا بد من تحديد مواصفاته بمزيد من الدقة . فالمصاب بالهستيريا ، أو بالعصاب الوسواسي ، يتخلى هو الآخر ، ضمن حدود مرضه ، عن علاقته بالواقع . غير ان التحليل يدل على أنه لا يلغي ابدا علاقته الايروسية بالناس والاشياء ، وانما يحافظ عليها في خياله : أي انه يستعيض من جهة أولى عن المواضيع الواقعية بمواضيع وهمية من ذاكرته او يخلط بينها : ويعزف من الجهة الثانية عن اتيان الاعمال المحرّكة لبلوغ اهدافه ذات الصلة بهذه المواضيع . وانما حالة الليبيدو هذه هي التي

(٢) هـ . ا . رانك . مساهمة في النرجسية ، في حولية التحليل النفسي ، السنة ٣ ، ١٩١١ .
(٣) اي السكيزوفرينيا . « م » .

ينبغي ان نستخدم من أجلها عن حسن معرفة ودراية ذلك المصطلح الذي يستعمله يونغ بغير ما تمييز : انطواء الليبيدو . اما المريض بالبارافرينيا فأمره يختلف. اذ يبدو ان هذا المريض يسحب بالفعل ليبيدواه من الناس والاشياء في العالم الخارجي ، بدون ان يحل محلهم مواضيع اخرى في خيالاته . واذا ما حدث بعد ذلك هذا الاستبدال ، فانه يبدو ثانويا ، ومندرجا في اطار محاولة للشفاء ترمي الى ارجاع الليبيدو الى الموضوع[٤] .

هنا ينطرح السؤال : ما هو ، في الفصام، مصير الليبيدو المسحوب من المواضيع ؟ ان هذاء العظمة الذي نلتقيه في هذه الحالات يدلنا هنا على الطريق. فمن المؤكد ان هذا الهذاء ظهر على حساب الليبيدو الموضوعاني[٥] . فالليبيدو المسحوب من العالم الخارجي انصب على الانا ، مما يتمخض عن ظهور وضع نستطيع ان نطلق عليه اسم النرجسية . لكن هذاء العظمة نفسه لا يُخلق من العدم : فهو على العكس ، كما نعلم ، تكبير وتعبير اوضح عن حالة سابقة الوجود. وهكذا فان هذه النرجسية التي ظهرت عن طريق استرجاع التوظيفات الموضوعانية لن نجد امامنا مناصا من ان نتصورها على انها حالة ثانوية جرى بناؤها على أساس نرجسية أولية ألقت دونها حجابا تأثيرات

(٤) انظر بصدد هذه النقطة المناقشة حول « نهاية العالم » في تحليل الرئيس شريبر، حولية التحليل النفسي ، السنة ٣ ، ١٩١١ . وكذلك ابراهام : الفروق الجنسية النفسية بين الهستيريا والخبل المبكر ، في مساهمات سريرية في التحليل النفسي ، ١٩٠٨ ، ص ٢٣ وما وما بعدها .
(٥) الموضوعاني هنا OBJECTAL وليس الموضوعي OBJECTIF . والعلاقة الموضوعانية هي علاقة الذات بموضوع خارجي بالنسبة اليها . والمواضيع في هذه العلاقة الموضوعانية ليست هي الاشياء ، أو ليست هي الاشياء وحدها ، وانما ايضا الاشخاص . ومن ثم فان الليبيدو الموضوعاني هو الليبيدو المنصب على شخص آخر، على حين ان الليبيدو الاناوي هو الليبيدو المنصب على الذات . « م » .

شتى ،

سألفت النظر مرة اخرى الى انني لا اريد هنا ان اوضح مسألة الفصام او ان اتعمق فيها . وانما كل بغيتي ان اعيد جمع ما سبق قوله في مواضع اخرى ، وذلك لأبرر به هذا المدخل الى النرجسية .

ان هذا التطوير المشروع في رأيي ، لنظرية الليبيدو ، يجد تدعيما ثالثا له في ملاحظاتنا وتصوراتنا الخاصة بالحياة النفسية للأطفال والشعوب البدائية . فنحن نلقى لدى هذه الشعوب سمات كان في مقدورنا ان نعزوها ، فيما لو كانت متفردة ، الى هذاء العظمة : المغالاة في تقييمها لقوة رغائبها وأفعالها النفسية ، « كلية قدرة الفكر » ، الايمان بالقوة السحرية للكلمات ، وتقنية محددة حيال العالم الخارجي هي « السحر » الذي يبدو انه تطبيق منطقي لتلك المفترضات الموسومة بجنون العظمة(٦) . وفي عصرنا الحاضر نتوقع ان نلقى لدى الطفل ، الذي يشق علينا اكثر النفاذ الى مجاهل نموه ، موقفا مماثلا تماما حيال العالم الخارجي(٧) . على هذا النحو يتكون لدينا تصور عن توظيف ليبيدوي ابتدائي للانا : وفي طور لاحق يتم التخلي عن جزء فقط من هذا التوظيف للمواضيع ، غير أن التوظيف الأنوي يبقى ، بصورة اساسية ، مستمرا ، ويكون مسلكه ازاء التوظيفات الموضوعانية اشبه بمسلك جسم دويبة مجهرية وذقية(٨) حيال الشوى الكاذبة التي يصدرها . وفي مبحثنا التحليلي النفسي ، الذي كان يتطور بدءا من الاعراض العصابية ، كان من المحتم في أول الأمر ان يبقى مصير

(٦) انظر الفقرات ، المناظرة في كتابي الطوطم والحرام ، ١٩١٢ .

(٧) س. فيرنزي : اطوار نمو حس الواقع ، في المجلة الدولية للتحليل النفسي ، السنة ١ ، ١٩١٢ .

(٨) الوذقة او البروتوبلازما : المادة الحية الاساسية في الخلايا الحيوانية ، ومنها تتألف المتموّرات التي هي من أبسط الاجناس الحيوانية والتي تمد (او تصدر) شوى كاذبة هي لها بمثابة اقدام . م . ،

الليبيدو المثمر هذا التثمير مجهولا منا . وما كانت تسترعي انتباهنا سوى فيوض هذا الليبيدو ، اي التوظيفات الموضوعانية التي يمكن ان تُصدر ثم ان تُسحب من جديد . واننا لنستشف هنا ، اجمالا ، تضادا بين الليبيدو الانوي والليبيدو الموضوعاني . فكلما تشبع واحدهما ، افتقر الثاني . واعلى طور من اطوار النمو يمكن ان يصل اليه الليبيدو الموضوعاني يتمثل في حالة العشق(٩) التي تبدو لنا اشبه بتنازل عن الشخصية بالذات لصالح التوظيف الموضوعاني : ونقيض هذه الحالة نلقاه في تخيل نهاية العالم (او الادراك الذاتي لها) لدى المريض بالبارانويا(١٠) . اما فيما يتصل اخيرا بالتمييز بين ضروب الطاقة النفسية ، فاننا نخلص الى أنها تكون في أول الامر ، في حالة النرجسية ، مجتمعة ، متداخلة ، يشق على تحليلنا الفظ ان يميز فيما بينها : وانما مع التوظيف الموضوعاني فحسب يغدو في الامكان التمييز بين طاقة جنسية ، هي الليبيدو ، وبين طاقة تابعة لغرائز الانا .

قبل ان امضي قدما الى الامام يتعين علي أن اعرض لمسألتين تفضيان بنا الى لب الصعاب التي تكتنف موضوعنا . اولاهما : ما علاقة النرجسية ، التي نبحث فيها هنا ، بالايروسية الذاتية التي وصفناها بأنها حالة لليبيدو في بدايته ؟ وثانيتهما : اذا عزونا الى الانا توظيفا ليبيدويا أوليا ، فما الداعي بعد لأن نميز بين ليبيدو جنسي وبين طاقة غير جنسية مصدرها غرائز الانا ؟ ولو فرضنا ان هناك من الاساس طاقة نفسية من نمط واحد ، أفما كنا ستوفر بذلك على أنفسنا جميع الصعاب التي تكتنف التمييز بين طاقة غرائز الأنا وليبيدو الانا ،

(٩) أو الهوى الحبي PASSION AMOUREUSE م . =

(١٠) ان لنهاية العالم هذه أواليتين : فإما ان ينصب كل التوظيف الليبيدوي على الموضوع المحبوب ، وإما ان ينكفىء مرتدأ نحو الأنا .

اي بين ليبيدو انوي وليبيدو موضوعاني ؟ بصدد النقطة الاولى سابدي الملاحظة التالية : لا مندوحة لنا من التسليم بأن لا وجود من البداية لدى الفرد لوحدة تضاهي الأنا ؛ فالأنا يتحتم عليه ان يمر بنمو وتطور. غير ان الغرائز الايروسية الذاتية تكون موجودة من الأصل ؛ ولا بد بالتالي لشيء ما ، لتأثير نفسي جديد ان ينضاف الى الايروسية الذاتية لتتشكل من ثم النرجسية .

إن أي محلل نفسي سيساوره ، ولا بد ، ضيق واضح متى ما وجد نفسه ملزماً بأن يجيب إجابة فاصلة عن السؤال الثاني . وسيساوره مع الضيق شعور بأنه يتخلى عن الملاحظة والمشاهدة ليستغرق في مجادلات نظرية عقيمة ؛ ومع ذلك ، ليس له ان يتهرب من محاولة توضيح المسألة . من المؤكد ان تصورات كمثل تصور الليبيدو الانوي ، وطاقة غرائز الانا ، الخ ، ليست واضحة بما يكفي لإدراكها ، ولا غنية بما يكفي في مضمونها . والحال ان اية نظرية تأملية في العلاقات موضوع البحث لا بد لها بادىء ذي بدء من الاستناد الى مفهوم واضح دقيق . على انه هذا هو ، في رايي ، الفارق بين نظرية تأملية خالصة وبين علم مبني على تأويل الملاحظة والخبرة . فعلم كهذا لن يحسد النظر التأملي على ما ينعم به من امتياز في بناء احكام واضحة دقيقة ، لا غبار عليها من وجهة النظر المنطقية ، بل سيقنع مغتبطاً بتصورات أساسية مبهمة ، ضبابية ، لا يمكن إلا بلأي تمثلها ، عاقداً الامل على ان يتمكن من الاحاطة بها بمزيد من الجلاء والوضوح في مسيرة تطوره ، مع استعداده في الوقت نفسه لان يقايضها بغيرها اذا ما دعت الضرورة . وآية ذلك ان هذه الافكار ليست هي أساس العلم الذي عليه كل شيء يقوم : انما هذا الاساس هو ، على العكس ، الملاحظة وحدها . ان هذه الافكار ليست هي ركائز البناء ، وانما ذروته ، ومن الممكن استبدالها أو رفعها بغير ما ضرر . وهذه التجربة

لا تزال تُشاهَد ، في ايامنا هذه ، في مجال الفيزياء : فحدوسها الاساسية بصدد المادة ، ومراكز الاثقال ، والجاذبية ، الخ ، تكاد لا تكون أقل قابلية للنقاش من التصورات المناظرة لها في مضمار التحليل النفسي .

يستمد مفهوما الليبيدو الانوي والليبيدو الموضوعاني قيمتهما من أصلهما : فقد تم إنشاؤهما بدءاً من الخصائص الصميمية للسيرورات العصابية والذهانية . وتمييزنا في الليبيدو بين جانب موقوف على الأنا ، وآخر متعلق بالمواضيع ، هو التتمة المحتومة لفرضية أولى تفرّق ما بين الغرائز الجنسية والغرائز الانوية . وقد فرض علي هذه التفرقة تحليل الأعصبة التحويلية الخالصة (الهستيريا والعصاب الوسواسي) ، وكل ما أعلمه هو ان كل المحاولات التي بذلت لتعليل هذه الظاهرات بوسائل اخرى قد منيت بفشل ذريع .

وما دام لا وجود على الاطلاق لأية نظرية في الغرائز ، أياً ما كان اتجاهها ، فمن المباح لنا أو المفروض علينا بالاحرى ان نمتحن بادىء ذي بدء اية فرضية من الفرضيات بدفاعنا عنها بتماسك منطق الى ان تتهافت أو تثبت صحتها . والواقع ان كثرة من الحجج تشهد لصالح الفصل البدئي بين الغرائز الجنسية والغرائز الانوية ، بصرف النظر عن النفع الذي يمكن ان يعود به هذا الفرض على تحليل الاعصبة التحويلية ، وإنني لأعترف بأن هذا الاعتبار ليس بحد ذاته خلواً من الالتباس ، إذ قد تكون الطاقة المعنية طاقة نفسية حيادية لا تتحول الى ليبيدو إلا عن طريق التوظيف الموضوعاني . غير ان هذا التمييز المفهومي يناظر اولاً التفريق الشعبي الشائع بين الحب والجوع . وهناك ثانياً اعتبارات **بيولوجية** ترجح الكفة لصالحه . فالفرد يعيش بالفعل وجوداً مزدوجاً : من حيث أنه لذاته غاية ذاته ، ومن حيث انه حلقة في سلسلة هو مربوط اليها بغير ارادته أو على كل حال بدون تدخل

ارادته . فهو نفسه يعدّ الجنسية واحدة من غاياته ، في حين ان ثمة منظوراً آخر يكشف لنا عن انه مجرد استطالة لفطرته الوراثية التي يضع تحت تصرفها قواه مقابل مكافأة من اللذة ، وعن أنه الحامل الفاني لجوهر خالد ـ ربما ـ مثله مثل بكر الأسرة الذي لا يحوز إلا بصفة مؤقتة الإقطاعة الوراثية التي ستؤول من بعده الى بكره . وعلى هذا فإن التمييز بين الغرائز الجنسية والغرائز الانوية يرمي فقط الى التعبير عن وظيفة الفرد المزدوجة هذه . ثالثاً ، يتعين علينا ان نتذكر ان جميع تصوراتنا المؤقتة في مضمار علم النفس لا بد لها يوماً من أن تقام على أساس ركائز عضوية . ويبدو قريب الاحتمال في هذه الحال أن يكون ثمة وجود لمواد معينة ولسيرورات كيماوية تنتج مفاعيل الجنسية وتتيح لحياة الفرد ان تتواصل في حياة النوع . واننا لنأخذ هذا الاحتمال بعين الاعتبار اذ نستبدل تلك المواد الكيمياوية المحددة بقوى نفسية محددة .

بما انني كنت من قبل قد حرصت بصفة عامة على إبقاء علم النفس بعيداً عن كل ما هو مغاير له ، بما في ذلك الفكر البيولوجي بالذات ، فبودي ان اقر هنا بصراحة بأن فرضية تمايز الغرائز الانوية والغرائز الجنسية ، وبالتالي نظرية الليبيدو ، ترتكز في جانب يسير للغاية منها على اساس سيكولوجي ، بينما تنهض في جوهرها على أساس علم الاحياء . وعلى هذا سأكون منطقياً مع نفسي بما يكفي لأتخلى عن هذا الفرض اذا ما تمخض العمل التحليلي نفسه عن فرض آخر يكون أصلح للاستعمال من الأول . وهذا الى يومنا هذا لم يقع . ومن المحتمل جداً ان تكون الطاقة الجنسية ، اي الليبيدو ـ في واقع الاشياء العميق ـ مجرد نتاج لتمايز الطاقة التي تفعل فعلها في النفس البشرية . غير أن توكيداً كهذا لا يفضي الى نتيجة . فهو يتصل باشياء بعيدة من الاساس غاية البعد عن المشكلات التي تطرحها ملاحظتنا ، أشياء هزيلة غاية الهزال بالمضمون ، حتى انه ليستوي الاخذ بذلك

التوكيد او رفضه . وانه لمن المحتمل جداً ان تكون وحدة الهوية الاصلية هذه ضعيفة الصلة ايضاً باهتماماتنا التحليلية النفسية ضعف صلة القرابة الاصلية بين جميع العروق البشرية بالدليل الذي يفترض بالمطالب بحقه من الميراث ان يقدمه للسلطات المختصة بشؤون الإرث لإثبات قرابته من الموصي المتوفى . ان جميع هذه التهويمات النظرية لا تفضي بنا الى شيء.وبما أنه لا يسعنا ان نتوقع من علم آخر ان يقدم لنا على صحن من فضة الحجج الفاصلة في تأييد نظرية الغرائز ، فإن الأولى بنا ان نحاول ان نتبين ما هو الضوء الذي يمكن ان يلقيه على هذه الالغاز الاساسية لعلم الاحياء تصور شامل للظاهرات السيكولوجية . فلنتألف اذن مع احتمال الخطأ ، ولكن من غير ان يصرفنا ذلك عن محاولة استخلاص جميع النتائج التي يمكن استخلاصها من الفرضية التي اسلفنا الإشارة اليها عن التضاد بين الغرائز الانوية والغرائز الجنسية . فهذه الفرضية فرضها علينا تحليل الاعصبة التحويلية ؛ فلنرَ إذن هل يمكن أن يأتي تطويرها خلواً من التناقضات وخصباً ، وهل يمكن تطبيقها على اضطرابات مرضية اخرى ، كالفصام على سبيل المثال ؟

بديهي أنه لا يستوي هنا ان يُساق الدليل على ان نظرية الليبيدو قد سبق لها ان فشلت في تطلعها الى تفسير هذا المرض الاخير . وهذا ما كان اكده ك . غ . يونغ[١١] ، فارغمني من ثم على الخوض في هذه التفصيلات التي كنت افضل أن أعفي نفسي منها . والحق أني كنت احبذ ان أمضي الى النهاية في الطريق الذي كنت تقدمت فيه من خلال تحليل حالة شريبر[١٢] ، ملتزماً

(١١) تحولات الليبيدو ورموزه ، في حولية التحليل النفسي ، السنة ٤ ، ١٩١٢ .

(١٢) دانييل بول شريبر : رئيس سابق لمحكمة الاستئناف في الساكس ، نشر سنة ١٩٠٣ ـ

الصمت بصدد المفترضات الانطلاقية . غير أن ما زعمه يونغ كان ، على اية حال ، حكماً متسرعاً . والاسس التي بناه عليها غير كافية . انه يحتج بادىء ذي بدء بشهادتي انا نفسي حينما قلت انني وجدتني مضطراً ، ازاء صعوبات تحليل شريبر ، الى توسيع مفهوم الليبيدو ، أي الى التخلي عن مضمونه الجنسي ، والى المماثلة بين الليبيدو وبين الاهتمام النفسي بصفة عامة . وقد سبق لفيرنزي ، في نقد جذري لمقال يونغ[١٣] ، ان قال كل ما ينبغي قوله لتقويم هذا التأويل الخاطىء . ولست مستطيعاً إلا أن أصادق على نقده ، وأن اكرر القول بأنني لم افصح عن أي تخلٍ من ذلك النوع عن نظرية الليبيدو . اما حجة يونغ القائلة ان انسحاب الليبيدو لا يمكنه وحده ان يكون علة فقدان الوظيفة الواقعية السوية فما هي بحجة ، وانما هي قرار ، مرسوم ، مصادرة على المطلوب[١٤] ، استباق للحكم ، وتهرب من النقاش ، إذ ان ما كان ينبغي البحث فيه هو بالتحديد ما اذا كان ذلك ممكناً وكيف . وقد قارب يونغ ، في مقاله الكبير التالي[١٥] ، ان يصل الى الحل الذي كنت أشرت إليه منذ زمن بعيد : « بهذا الصدد ينبغي بكل تأكيد أن تأخذ بعين الاعتبار النقطة المذكورة ـ وإليها يرجع فرويد على كل حال في مقاله عن شريبر ـ التي مؤداها أن انطواء الليبيدو الجنسي يفضي الى توظيف للأنا . ومن المحتمل في هذه الحال ان يكون فقداننا للواقعية مجرد نتيجة لذلك . والحق ان تفسير سيكولوجيا فقدان الواقعية على

- سيرة ذاتية بعنوان مذكرات مريض بالاعصاب . وقد حلل فرويد هذه المذكرات في مقال طويل له سنة ١٩١١ بعنوان ملاحظات تحليلية نفسية حول السيرة الذاتية لحالة بارانويا (الرئيس شريبر) . م .

(١٣) المجلة الدولية للتحليل النفسي ، السنة ١ ، ١٩١٣ .

(١٤) بالانكليزية في النص : IT BEGS THE QUESTION م .

(١٥) محاولة لتقديم نظرية التحليل النفسي ، في حولية التحليل النفسي ، السنة ٥ ، ١٩١٣ .

هذه الشاكلة احتمال له وجهه من الاغراء » . ومع ذلك ، فإن يونغ يمتنع عن المضي قدماً الى الامام في طريق هذا الاحتمال . فبعد بضعة أسطر لا غير ، يتنكب عن هذا الطريق بملاحظته أن ما يمكن ان ينجلي عنه الامر في هذه الحال هو « سيكولوجيا زاهد ناسك ، لا الخبل المبكر » . اما الى أي حد تعجز هذه المقارنة الفاسدة عن الاتيان بحل ، فهو ما تبينه لنا الملاحظة التالية : ان ناسكاً كذاك « جاهد ليستأصل من نفسه كل أثر للاهتمام « الجنسي » (انما فقط بالمعنى الشعبي كلمة « جنسي ») لا يجسد بالضرورة والحتم طريقة إمراضية في تثمير الليبيدو . فمن المحتمل جداً ان يصرف بصورة كاملة اهتمامه الجنسي عن الكائنات البشرية ، وأن يصعِّده في الوقت نفسه في صورة اهتمام متعاظم بالمضمار الالهي أو الطبيعي او الحيواني ، دون ان يصاب الليبيدو عنده بانطواء في اتجاه تخييلاته ، أو بانكفاء نحو ذاته . ويبدو أن هذه المقارنة تغفل إغفالاً تاماً التمييز الممكن بين الاهتمام ذي الاصل الايروسي والاهتمام النابع من مصادر اخرى . ولنتذكر فضلاً عن ذلك أن أبحاث المدرسة السويسرية[١٦] ، على ما لها من أفضال ، لم تتوصل إلا الى توضيح نقطتين فقط في اللوحة السريرية للخبل المبكر : وجود عقد سبق التأكد من وجودها لدى الافراد الاصحاء والعصوبيين ، والتشابه بين تشكيلاتهم الاستيهامية وبين أساطير الشعوب . بيد ان تلك الابحاث لم تتمكن من تسليط الضوء على آوالية الدخول في المرض . وستتيح لنا هذه الملاحظة أن ننفض ايدينا من توكيد يونغ الزاعم ان نظرية الليبيدو قد أخفقت في مواجهة الخبل المبكر ، وانها غير مؤهلة بالتالي لمواجهة الاعصبة الاخرى ايضاً .

(١٦) هي المدرسة التي كان يتزعمها د . إ . بلولر ، مدير مستشفى الامراض العقلية في بورغولزلي والذي كان يقصده الطلبة من جميع ارجاء اوروبا للدراسة . وكان يونغ مساعداً لبلولر . م .

(٢)

يتراءى لي ان ثمة صعاباً من نوع خاص تحول دون دراسة النرجسية دراسة مباشرة . وأرجح الظن ان المدخل الرئيسي اليها يبقى تحليل حالات البارافرينيا . فكما ان الاعصبة التحويلية اتاحت لنا ان نقتفي أثر الحاثات الغريزية الليبيدوية ، كذلك فإن الخبل المبكر والبارانويا ستفتح لنا الباب الى فهم سيكولوجيا الانا . وسيتعين علينا مرة اخرى ان نهتدي الى البساطة الظاهرية للسوي تخميناً ورجماً انطلاقاً من التواءات المرضي ومبالغاته . أضف الى ذلك أن بعض الطرق الاخرى تبقى مفتوحة امامنا في تناولنا للنرجسية ، وسوف أصفها الآن بالتسلسل التالي : دراسة المرض العضوي ، دراسة هجاس المرض ، ودراسة الحياة الحبية لدى الجنسين .

حتى نتمكن من تقدير تأثير المرض العضوي على توزيع الليبيدو ، سأتابع ملاحظة كان قد قدمها لي شفهياً س . فيرنزي . فمن المعروف للداني والقاصي ، ومما يبدو لنا بدهياً ، أن من يعاني من وجع عضوي وتوعك يصرف اهتمامه عن أشياء العالم الخارجي بقدر ما لا تكون ذات صلة بآلامه . والتدقيق في الملاحظة يتيح لنا أن نعلم أنه يسحب اهتمامه الليبيدوي أيضاً من مواضيعه الحبية ، ويمتنع عن الحب ما دام يعاني من الوجع.وان تكن هذه الواقعة معروفة الى حد الابتذال ، فليس لذلك ان يمنعنا من محاولة ترجمتها الى لغة نظرية الليبيدو ، وعندئذ سنقول : إن المريض يسحب توظيفاته الليبيدوية باتجاه أناه ليعود الى إصدارها ثانية بعد شفائه . « ان روحه تضيق عند النقرة الضيقة للضرس » . كما يقول لنا ف . بوشBUSCH بصدد وجع الاسنان لدى الشاعر . إن الليبيدو والاهتمام الانوي يكون مصيرهما هنا واحداً ، ويتعذر من جديد تمييز واحدهما من الآخر . وانانية المريض المعروفة جيداً تستردهما كليهما . ولئن بدا ذلك لنا بدهياً ،

فإنما لاننا على يقين من أننا سنسلك المسلك نفسه في الموقف عينه . وأما ان الاضطرابات البدنية تقشع الميول الحبية الأشد اضطراماً وتحل محلها بغتة لامبالاة تامة ، فذلك موضوع جرى استغلاله كما يجب في الملهاة .

ان حالة النوم ، مثلها مثل المرض ، تمثل انسحاباً نرجسياً من مواقع الليبيدو باتجاه ذات الشخص او ، بتعبير أدق ، باتجاه الرغبة في النوم دون سواها من الرغبات . وفي هذا السياق تندرج ، على خير وجه ، انانية الاحلام . وفي هاتين الحالتين نعاين ، ان لم يوجد شيء آخر ،أمثلة على تعديلات في توزيع الليبيدو من جراء تعديل في الأنا .

ان هجاس المرض ، كالمرض العضوي ، يتمخض عن احساسات بدنية مزعجة ومؤلمة ، ويلتقي وإياه ايضاً من حيث تأثيره في توزيع الليبيدو . فالمصاب بهجاس المرض يسحب اهتمامه وليبيدواه ـ وهذا الاخير بجلاء لا مزيد عليه ـ من مواضيع العالم الخارجي ويركزهما كليهما على العضو الذي يشغل باله . غير ان ثمة فارقاً بين هجاس المرض والمرض العضوي يتقدم الى مركز الصدارة : فالاحاسيس المؤلمة في حالة المرض العضوي تقوم على أساس تعديلات قابلة للاثبات ، وليس الأمر بالمثل في حالة هجاس المرض . لكننا لن نتخطى على الاطلاق إطار تصورنا العام للسيرورات العصابية ان تقدمنا بالاطروحة التالية : ان هجاس المرض لا بد ان يكون على حق ، إذ ان التعديلات العضوية ليست عديمة الوجود في حالته أيضاً . فماذا يمكن ان تكون هذه التعديلات ؟

اننا سنهتدي هنا بـهـدي الخبرة التي تدلنا على أن احاسيس بدنية من نوع مزعج ، مضاهية لتلك التي يعاني منها الهجاسيون ، توجد ايضاً في الاعصبة الاخرى . وقد كنت قلت مرة إنني اميل الى تصنيف الهجاس الى جانب النوراستينيا وعصاب الحصر باعتباره

ضرباً ثالثاً من الاعصبة الراهنة[١٧] . وأرجح الظن اننا لا نغلو غلواً مسرفاً لو تصورنا ان الهجاس يسهم بقسط طفيف ولكن مطرد في تكوين سائر الاعصبة ايضاً . واسطع مثال على ذلك عصاب الحصر والهستيريا التي تنبني على اساس هذا العصاب . وهنا نلتقي بنموذج لعضو ذي حساسية مؤلمة ، هو عرضة ـ بصورة من الصور ـ للتعديل ولكن من غير ان يكون مريضاً بالمعنى المألوف للكلمة : أعني به العضو التناسلي وهو في حالة التهيج . فهو يكون عندئذ محتقناً ، منتفخاً ، رطباً ، وموضع احاسيس شتى . واذا ما وصفنا بصفة الشهوية EROGÉNEITÉ ذلك الجزء من البدن الذي هو مسرح لنشاط قوامه إرسال تنبيهات باتجاه الحياة النفسية من شأنها ان تثيرها جنسياً ، واذا ما قر في اذهاننا ان الاعتبارات المستقاة من معين نظرية الجنسية قد جعلتنا منذ زمن طويل نألف التصور القائل ان بعض أجزاء الجسم الاخرى ـ المناطق الشهوية EROGENES ـ يمكن ان تنوب مناب الاعضاء التناسلية وان تضاهيها في مسلكها ، فعندئذ لا يبقى امامنا سوى خطوة واحدة نخطوها . وبالفعل ، يمكن لنا ان نقرر ان الشهوية هي خاصية عامة لأعضاء البدن كافة ، وهذا ما يبيح لنا ان نتكلم عن زيادة او نقصان في الشهوية في أي جزء من أجزاء البدن . وكل تعديل في شهوية اعضاء البدن يمكن ان يناظره تعديل موازٍ في توظيف الليبيدو في الانا . وهنا تحديداً ينبغي لنا ان نفتش عن العوامل التي عنها ينشأ الهجاس ، والتي يمكن ان يكون لها على توزيع الليبيدو تأثير مماثل لتأثير الاصابة المادية التي تتعرض لها الاعضاء البدنية .

(١٧) هي الاعصبة التي ينبغي البحث عن منشئها في حاضر المريض ، لا في ماضيه . ومصدرها في الغالب الاحباط في الاشباع الجنسي . وقد ادرج فرويد في الاعصبة الراهنة العصاب الحصاري والنوراستينيا وهجاس المرض . « م » .

ان تابعنا تأملاتنا في هذا الاتجاه نلاحظ اننا نلتقي هنا ، لا بمشكلة الهجاس فحسب بل كذلك بمشكلة الاعصبة الراهنة الاخرى ، وتحديداً النوراستينيا والعصاب الحصري . ولهذا السبب سنتوقف عند هذه النقطة . ويجدر بنا التنويه هنا بأنه ليس في نية الاستقصاء السيكولوجي المحض ان يتوغل الى هذا الحد في اختراقه لحرمة حدود البحث الفيزيولوجي . لكن لنذكر فقط أنه في مقدورنا ان نفترض ، ابتداء من هنا ، ان علاقة الهجاس بالبارافرينيا[١٨] شبيهة بعلاقة سائر الاعصبة الراهنة بالهستيريا والعصاب الوسواسي : ومن ثم فإن تبعيته لليبيدو الانوي مطابقة لتبعية هذه الاعصبة لليبيدو الموضوعاتي ؛ وعليه ، فإن الحصر الهجاسي هو ، من جانب الليبيدو الانوي ، مكافىء الحصر العصابي . أضف الى ذلك أن من التصورات التي باتت مألوفة لدينا ان اوالية الدخول في المرض وتكوين العرض في الاعصبة التحويلية[١٩] والانتقال من الانطواء الى النكوص ترتبط بركود STASE في الليبيدو . ومن ثم ، من المباح لنا أن نطرح فكرة ركود في الليبيدو الانوي وان نربط بينهما وبين ظاهرات الهجاس والبارافرينيا .

طبيعي ان فضولنا سيثير هنا المسألة التالية : ما الذي يحتم ان يتخلف عن هذا الركود لليبيدو في الأنا إحساس تنغيصي ؟ وحسبي في هذه الحال ان أجيب بأن التنغيص هو ، بوجه عام ، تعبير عن زيادة في التوتر ، وان ثمة بالتالي كماً من الظاهرة المادية ينتقل ، هنا كما في أي مكان آخر ، الى الكيف النفسي للتنغيص ؛ وأما فيما يتعلق بتمخض التنغيص فقد لا يكون العامل الحاسم هو الكم المطلق لهذه السيرورة

(١٨) يجدر التذكير هنا بأن فرويد يطلق اسم البارافرينيا اما على الفصام حصراً ، وإما على حالة مزيجة من الفصام والهذاء (البارانويا) « م » .
(١٩) الاعصبة التحويلية : هي من الاعصبة النفسية المنشأ . ويدرج فرويد في عدادها الهستيريا الحصرية ، والهستيريا التحولية ، والعصاب الوسواسي . « م » .

المادية ، وانما بالاحرى وظيفة معينة لهذا الكم المطلق . وانطلاقاً من هذه النقطة قد يجوز لنا ان نتطرق حتى الى هذه المسألة : من اين يتبع في نهاية الأمر في مضمار الحياة النفسية ذلك الإكراه الضاغط باتجاه الخروج من حدود النرجسية وتثمير الليبيدو في المواضيع ؟ وقد يكون الجواب المطابق لخطنا الفكري كالآتي : ان هذا الاكراه يظهر الى حيز الوجود حينما يتجاوز توظيف الانا بالليبيدو حداً معيناً . إن انانية جارفة تحفظ صاحبها من المرض ، لكن لا محيص للمرء في نهاية المطاف من ان يحبّ كيلا يقع مريضاً ، ولا معدى له عن الوقوع مريضاً متى ما وقف عاجزاً عن الحب من جراء الاحباط.وانما على هذا المنوال تقريباً يتصور هـ . هايني المنشأ النفسي لخلق العالم :

المرض كان الخلفية الاخيرة
لكل الاندفاعة الخلاقة ؛
بالخلق كان يمكنني ان اشفى ،
بالخلق وجدت الصحة[٢٠] .

لقد تعرفنا في جهازنا النفسي وسيلة متميزة اوكلت اليها مهمة السيطرة على التنبيهات التي ما كانت ، بغير ذلك ، إلا لتخلف احاسيس مؤلمة أو آثاراً إمراضياً . فالصياغة النفسية تجترح مآثر وأعمالاً باهرة لكي تحوّل داخلياً مجرى التنبيهات غير القابلة لتفريغ خارجي فوري أو التنبيهات التي لا يرتجى لها حالاً مثل هذا التفريغ . غير انه سيان باديء ذي بدء ، بالنسبة الى مثل هذه الصياغة الداخلية ، ان تطال مواضيع واقعية أو خيالية . فالفرق لا يظهر إلا في طور لاحق ، وذلك حين يؤدي ارتداد الليبيدو نحو المواضيع اللاواقعية (الانطواء) الى

(٢٠) من ديوانه : اشعار جديدة ، اناشيد خلق العالم، النشيد السابع . (هامش الترجمة الفرنسية) .

ركود في الليبيدو . ففي الامراض البارافرينية يتيح هذاء العظمة مثل هذه الصياغة الداخلية لليبيدو الذي يرتد في هذه الحال نحو الانا ؛ وربما بعد إحباط هذا الهذاء يغدو ركود الليبيدو في الأنا إمراضياً ويطلق سيرورة الشفاء التي تضللنا بخصوص المرض[٢١] .

سأغامر هنا بالتقدم بضع خطوات صغيرة اخرى في مضمار اوالية البارافرينيا ، وسألخص التصورات التي تبدو لي من الآن جديرة بأن نوليها ما تستأهله من اعتبار . وإني لأرى ان الفارق بين الامراض البارافرينية وبين الاعصبة التحويلية يكمن في ما يلي : فالليبيدو ، الذي امسى حراً بنتيجة الإحباط ، لا يبقى متعلقاً بمواضيع استيهامية ، بل ينسحب مرتداً الى الأنا ؛ وعندئذ يظهر هذاء العظمة كاستجابة للسيرورة النفسية الرامية الى التحكم بهذه الكتلة من الليبيدو ، وبالتالي كاستجابة للانطواء على التشكيلات الاستيهامية على نحو ما يحدث في الاعصبة التحويلية ؛ ومن فشل هذه العملية النفسية يخرج هجاس البارافرينيا ، المُشاكل لحصر الاعصبة . ونحن نعلم ان هذا الحصر قابل للرفع عن طريق صياغة نفسية لاحقة ، من تحول أو تشكيل ارتجاعي او تشكيل حمائي (رهاب) . وتضطلع بهذا الدور في الامراض البارافرينية محاولة الاسترداد التي عنها تنشأ التظاهرات المرضية التي تدهش لها . وكثيراً ـ بل غالباً ـ ما لا ينفصل الليبيدو في البارافرينيا إلا انفصالاً جزئياً عن المواضيع ، مما يتيح لنا ان نميز في اللوحة السريرية لهذا المرض ثلاث مجموعات من التظاهرات : ١ ـ التظاهرات التي تتصل بمحاولة الحفاظ على الحالة السوية أو على العصاب (التظاهرات الترسبية) ؛ ٢ ـ تظاهرات السيرورة الباتولوجية (اي انفصال الليبيدو عن المواضيع وما يعقبه : هذاء

(٢١) رطانة طبية يشار بها الى خطة الطبيب حين يحسب الاعراض المرضية اعراض مرض آخر . (هامش الترجمة الفرنسية)

العظمة ، الهجاس ، اختلال الوجدانات ، كل ضروب النكوص) ؛ ٣ ـ التظاهرات التي تتصل بالاسترداد والتي تثبّت من جديد الليبيدو على المواضيع ، إما بطريقة هستيرية (الخبل المبكر ، البارافرينيا بحصر المعنى) ، واما بطريقة عصاب وسواسي (البارانويا) . ويحدث هذا التوظيف الجديد لليبيدو ابتداء من مستوى آخر وفي شروط اخرى غير التوظيف الاولي . والمفروض بالفارق بين الاعصبة التحويلية التي تنشأ في أعقاب هذا التوظيف الجديد وبين التشكيلات المناظرة للانا السوي ان يتيح لنا النفاذ الى أعمق أغوار بنية جهازنا النفسي .

***

تقدم لنا حياة الحب عند الكائنات البشرية ، بتنوع تمايزاتها بين الرجل والمرأة ، مدخلاً ثالثاً الى دراسة النرجسيـة . فكما ان الليبيدو الموضوعاني أخفى عن ملاحظتنا في باديء الأمر الليبيدو الأنوي ، كذلك لاحظنا أول الامر ونحن ندرس الاختيار الموضوعاني لدى الاطفال (والمراهقين) ان هؤلاء يستمدون مواضيعهم الجنسية من خبراتهم الاشباعية الاولى . فهم يعيشون الاشباعات الجنسية الايروسية ـ الذاتية الاولى بالترابط مع أداء الوظائف الحيوية التي عليها المعول في بقاء الفرد . فالغرائز الجنسية تستند أول الامر الى إشباع الغرائز الانوية ولا تستقل عنها إلا في وقت لاحق . غير أن هذا الاستناد يُواصل تكشفه من خلال الواقعة التالية ، وهي ان الاشخاص الذين يتولون امور تغذية الطفل وتوفير أسباب العناية والحماية له هم الذين يغدون مواضيعه الجنسية الاولى ؛ وفي طليعتهم الأم او من ينوب منابها . لكن بالاضافة الى هذا النمط وهـذا المصدر في الاختيـار الموضوعاني ، وهو ما نستطيع ان نسميه بالنمط **الوكلي**[٢٢] ، عرفنا

---

(٢٢) النمط الوكلي ANACLITIQUE او الاستنادي PAR ETAYAGE عقدة خلاف

الاستقصاء التحليلي النفسي الى نمط ثانٍ ما كنا نتوقع ان نلتقي به . فقد وجدنا بجلاء ما بعده من مزيد لدى الاشخاص الذين أصيب نمو الليبيدو عندهم باعوجاج ، نظير المنحرفين والجنسيين المثليين ، انهم لا يختارون موضوعهم الحبي اللاحق وفق طراز الأم ، وانما وفق طراز شخصهم بالذات . ومن الواضح انهم يختارون انفسهم موضـوعاً للحب ، معتمدين بالتالي نمطاً في الاختيار الموضوعاني يمكننا ان نسميه نرجسياً . وانما في هذه الملاحظة ينبغي ان نعثر على الدافع الاقوى الذي يكرهنا على الاخذ بفرضية النرجسية .

والواقع اننا لم نخلص الى الاستنتاج بأن الكائنات البشرية تنقسم الى فئتين متمايزتين كل التمايز تبعاً لنمط الاختيار الموضوعاني لديهما : النمط الوكلي أو النمط النرجسي : بل على النقيض من ذلك ، فنحن نؤثر أن نأخذ بفرضية تقول ان الطريقين اللذين يتاديان الى الاختيار الموضوعاني مفتوحان كلاهما لكل كائن بشري ، بحيث ان كلاً منهما يمكن ان تكون له الافضلية . وما نقوله هو ان للكائن البشري موضوعين جنسيين أصليين: ذاته والمرأة التي تتولى أمر العناية به ؛ وبذلك نفترض وجود النرجسية الاولية لدى كل كائن بشري ، وهذه النرجسية يمكن ان تفصح عن نفسها يوماً بصورة قاهرة في اختياره الموضوعاني .

ان المقارنة بين الرجل والمرأة تدل عندئذ على ان علاقتهما بنمط الاختيار الموضوعاني تنطوي على فروق أساسية ، وان لم تكن هذه الفروض بطبيعة الحال مطردة اطراداً مطلقاً . فالحب الموضوعاني الجامع بحسب النمط الوكلي سمة مميزة بوجه خاص للرجل . فلديه

بين المترجمين الانكليز والفرنسيين ، وهو بالالمانية ANLEHNUNGSTYPUS ، والمقصود اختيار الموضوع الجنسي بالاستناد الى او بالاتكال على علاقة الطفل ، وعلى الاخص الذكر ، بأمه او من ينوب منابها . « م »

تتجلى المغالاة الملفتة للنظر في التقييم الجنسي ، ومردها الى نرجسية الطفل الاولية ، وهي تعبر من ثم عن تحويل لهذه النرجسية الى الموضوع الجنسي . وتفسح هذه المغالاة في التقييم الجنسي في المجال امام ظهور تلك الحالة الخاصة التي تعرف باسم العشق ، والتي تذكرنا بضرب من القهر العصابي ، ويمكن إرجاعها من ثم الى افتقار ليبيدوي للانا لصالح الموضوع . وبخلاف ذلك يأتي تطور النمط الانثي الاكثر تواتراً ، والاكثر صفاء واصالة في ارجح الظن . ففي هذه الحال يبدو ان تكوين الاعضاء الجنسية المؤنثة ، التي كانت الى حين نموها في مرحلة البلوغ في حالة من الكمون ، يؤدي الى زيادة في النرجسية الاصلية غير مؤاتية لحب موضوعاني مطرد مقترن بمغالاة في التقييم الجنسي . وهكذا تقوم ، وعلى الاخص في حال اتجاه النمو نحو الجمال ، حالة تستكفي فيها المرأة بذاتها ، وهذا ما يعوضها عن حرية الاختيار الموضوعاني التي ينكرها عليها المجتمع. فأمثال هؤلاء النساء لا يحببن ، بحصر معنى الكلمة ، سوى انفسهن ، وربما بمثل القوة التي يحبهن بها الرجل . وحاجتهن لا تدفع بهن الى ان يحببن ، بل الى يُحبَبن ، ويفوز باعجابهن من الرجال من يتوفر فيه هذا الشرط . وليس لنا ان نستهين بأهمية هذا النمط من النساء بالنسبة الى الحياة الحبية عند الكائن البشري . فسحرهن على الرجال كبير ، لا لأسباب جمالية فحسب ـ فهن في العادة اجمل النساء ـ بل كذلك بفعل ظروف سيكولوجية فريدة . إذ يبدو بجلاء ان النرجسية لدى شخص من الاشخاص تمارس جذباً كبيراً على الاشخاص الذين تنازلوا عن كامل قسطهم من نرجسيتهم الخاصة وصار الحب الموضوعاني طلبتهم ؛ وفتنة الطفل ترتكز الى حد لا يستهان به الى نرجسيته ، الى كونه يستكفي بذاته ، الى استغلاقه ومناعته ؛ كذلك الحال بالنسبة الى سحر الحيوانات التي يبدو عليها وكأنها لا تكترث لنا ، نظير القطط وسباع

الحيوان : وحتى المجرم الكبير وصاحب الدعابة يأسران اهتمامنا ـ حينما يصورهما لنا الشعر ـ بما يظهرانه من نرجسية متماسكة المنطق إذ يبقيان على اناهما بمنأى عن كل ما يمكن ان ينتقص من شأنه . فلكأننا نحسدهما على الحالة النفسية المغتبطة التي يقيمان فيها ، على الوضع المنيع لليبيدو عندهم بعد ما تخلينا نحن انفسنا عن مثل هذا الوضع .بيد أن الفتنة الساحرة للمرأة النرجسية لا تعتم أن تكشف عن وجهها السيء ؛ فعدم فوز الرجل العاشق بالاشباع ، وشكوكه بصدد حب المرأة له ، وشكاواه من طبيعتها الغامضة الملغزة تعود في شطر كبير من أصولها الى عدم التطابق بين نمطي الاختيار الموضوعاني .

قد لا يكون من نافل القول أن أؤكد أن وصفي هذا للحياة الحبية المؤنثة لا ينطوي على أي تحيز يرمي الى ان يحط من شأن المرأة . فعلاوة على أنني أربأ بنفسي بوجه عام عن كل تحيز ، فإنني أعرف ايضاً أن هذه الطرق المختلفة لتحقيق الذات تتناظر ، من خلال علاقة بيولوجية بالغة التعقيد ، مع تباين الوظائف . اضف الى ذلك أنني مستعد للتسليم بوجود كثرة من النساء ممن يحببن وفق النمط المذكر ويبدين بدورهن عن تلك المغالاة في التقييم الجنسي التي هي من سمات هذا النمط .

وحتى بالنسبة الى النساء النرجسيات اللائي يبقين باردات ازاء الرجل ، ثمة طريق يتأدى بهن الى الحب الموضوعاني التام . ففي الطفل الذي ينجبنه يتبدى لهن جزء من جسمهن ذاته وكأنه موضوع غريب ، في مقدورهن من الآن فصاعداً ، وانطلاقاً من النرجسية ، ان يبذلن له حبهن الموضوعاني التام . كما ان ثمة نساء أخريات لا يحتجن الى انتظار إنجاب طفل لكي ينخرطن في طريق التطور الذي يبدأ من النرجسية (الثانوية) لينتهي الى الحب الموضوعاني . فهؤلاء النساء يساورهن قبل البلوغ شعور بأنهن ذكور ، ويقطعن شوطاً من نموهن

بالاتجاه الذكري ؛ وحتى بعد ان يضع النضوج الانثي حداً لهذه الميول ، تبقى متاحة امامهن امكانية الصبو الى مثل أعلى مذكر هو بالتحديد مواصلة تلك الكينونة الغلامية التي كنّ عليها فيما سبق .

بوسعنا أن نختم هذه الملاحظات بخلاصة حول الطرق المفضية الى الاختيار الموضوعاني. فالمرء يحب :

١° ـ وفق النمط النرجسي :

أ ـ ما هو كائن عليه هو ذاته ؛

ب ـ ما كان عليه هو ذاته ؛

جـ ـ ما يود لو يكونه هو ذاته ؛

د ـ الشخص الذي كان جزءاً من ذاته ؛

٢° ـ وفق النمط الوكلي :

أ ـ المرأة التي تطعم ؛

ب ـ الرجل الذي يحمي ؛

وسلالة الأشخاص الاستعاضيين التي تتفرع منهما .والبند جـ في النمط الاول لا يمكن تبريره إلا بعد شروح يجدها القارىء لاحقاً .

ويبقى بعد ذلك ، وضمن سياق آخر ، أنْ نقيِّم أثر الاختيار الموضوعاني النرجسي في الجنسية المثلية لدى الذكور .

ان نرجسية الطفل الاولية ، التي افترضنا وجودها والتي تؤلف واحدة من مسلمات نظريتنا في الليبيدو ، قد لا يكون سهلاً إدراكها بالملاحظة المباشرة بقدر ما يتسنى توكيد صحتها ببرهان تراجعي ابتداء من نقطة اخرى . فان اخذنا في اعتبارنا موقف الوالدين المحب حيال اولادهما ، فلن تجد مناصاً من ان نتعرف فيه انبعاثاً وتجديداً لنرجسيتهما الخاصة التي عزفا عنها منذ زمن بعيد . ومعروف ان هذه العلاقة الوجدانية تهيمن عليها المغالاة في التقييم ، وهي مؤشر جيد كنا رأينا فيه ، ضمن سياق الاختيار الموضوعاني ، علامة نرجسية دامغة .

كذلك يوجد ميل قهري الى عزو جميع ضروب الكمال الى الطفل ، وهو ما لا تقره الملاحظة المحايدة ، والى إخفاء جميع عيوبه وتناسيها ؛ وإنكار وجود الجنسية الطفلية له صلة وثيقة بهذا الموقف . غير انه قد يتجلى أيضاً لدى الابوين حيال طفلهما ميل الى تعليق جميع المكتسبات الثقافية التي اغتصبا الاعتراف بها من نرجسيتهما بالذات ، والى ان يجددا بخصوصه هذه المرة المطالبة بامتيازات تم التخلي عنها منذ عهد بعيد . فالمرض ، والموت ، والحرمان من المتع ، والقيود المفروضة على الارادة امور لا تصدق على الطفل ، وقوانين الطبيعة وقوانين المجتمع على حد سواء لا تسري عليه . وهو سيكون حقاً وفعلاً من جديد مركز الكون وقلبه. **صاحب الجلالة الطفل**[٢٣] ،كما يتصور المرء انه كان في غابر الايام . إنه سيحقق الاحلام الرغبية التي لم يحققها الوالدان ، فيصير رجلاً عظيماً ، بطلاً ، مكان الأب ؛ وان كان انثى فستتزوج اميراً ، على سبيل التعويض المتأخر على الام . والبند الشائك حقاً في النظام النرجسي ، اقصد خلود الانا الذي يدحضه الواقع بعنف ، يهتدي الى مكان أمين إذ يجد ملاذاً له لدى الطفل . ومهما يكن حب الأهل لاولادهم مؤثراً ،وفي الواقع طفلياً ، فإنه لا يعدو ان يكون نرجسيتهما ذاتها وقد انبعثت وأفصحت ، بالرغم من تحولها الى حب موضوعاني ، عن طبيعتها القديمة على نحو لا تخطئه العين .

(٣)

التشويشات التي تتعرض لها نرجسية الطفل الاصلية ، ردود فعله الدفاعية على هذه التشويشات ، الطرق التي يضطر من جراء ذلك الى سلوكها : تلك هي الموضوعات التي اود ان أدعها جانباً باعتبارها

---

(٢٣) بالإنكليزية في النص HIS MAJESTY THE BABY . م .

مادة مهمة ما تزال تنتظر من يعكف على درسها ومعالجتها ؛ غير انه يوسعنا مع ذلك ان نستخلص منها أهم جزء فيها على الاطلاق ، واعني « عقدة الخصاء » (الخوف على القضيب لدى الصبي ، وحسد القضيب لدى البنت) وان نبحث فيه على ضوء تأثير الترهيب الجنسي في السنوات الاولى من العمر . ان الاستقصاء التحليلي النفسي يتيح لنا ان نتتبع في حالات اخرى مصائر الغرائز الليبيدوية ، حين تنفصل عن الغرائز الانوية وتغدو متعارضة واياها ؛ غير أنه يتيح لنا ، في مضمار عقدة الخصاء، ان نرجع باستدلالنا الى زمن وموقف نفسي كان فيهما النوعان كلاهما من الغرائز يعملان متضافرين باعتبارهما اهتمامات نرجسية متداخلة تداخلاً لا فكاك فيه . وقد استخلص أ . آدلر من هذا السياق مبدأه في « الاحتجاج الرجولي » الذي رفعه - أو كاد - الى مرتبة القوة الغريزية الوحيدة التي تفعل فعلها في تكوين الاعصبة ، وكذلك في تكوين الخلق والطبع : وهو لا يبني احتجاجه هذا على ميل نرجسي ، مما يحتم في هذه الحال ان يكون بدوره ليبيدوياً ، وانما على تقييم اجتماعي . ومن وجهة نظر البحث التحليلي النفسي ، جرى من البداية الاعتراف بوجود « الاحتجاج الرجولي » وبأهميته . غير انه جرى التاكيد ايضاً ضد آدلر على طبيعته النرجسية وعلى كمون اصله في عقدة الخصاء . ان « الاحتجاج الرجولي » ينتمي الى تكوين الطبع ، وهو واحد من جملة عوامل اخرى تسهم في هذا التكوين ، ومن ثم فهو غير مؤهل بحال من الاحوال لجلاء مشكلات الاعصبة التي لا يريد آدلر ان يرى فيها شيئاً آخر سوى الكيفية التي تخدم بها مصلحة الأنا . وإنني لأرى أنه من غير الممكن على الاطلاق بناء نشوء العصاب على الأساس الضيق لعقدة الخصاء مبلغاً ما بلغت قوتها ، لدى المرضى الذكور ، حينما تؤدي دورها في عداد المقاومات المناوئة لشفاء العصاب . بل إنني أعرف اخيراً حالات عصابية لا يلعب فيها « الاحتجاج

الرجولي » ، أو في مفهومنا نحن عقدة الخصاء ، أي دور إمراضي ، هذا ان لعب من دور على الاطلاق .

ان ملاحظة الراشد السوي تدلنا على أن هذاء العظمة السابق لديه قد سكن وخمد ، وأن السمات النفسية التي استنتجنا منها وجود النرجسية الطفلية لديه قد امحت وتلاشت . فإلامَ صار الليبيدو الانوي عنده ؟ وهل يفترض بنا ان نسلِّم بان كمه كله قد استهلك في توظيفات موضوعانية ؟ ان احتمالاً كهذا يأتي على هو بادٍ للعيان مناقضاً لكل خط عرضنا هذا ؛ غير اننا نستطيع ايضاً أن ننتقل الى سيكولوجيا الكبت لنبحث فيها عن شيء من شأنه ان يهدينا الى جواب آخر عن هذا السؤال .

لقد علمنا ان حاثات غريزية معينة يكون مصيرها الكبت الإمراضي متى ما دخلت في نزاع مع تصورات الفرد الثقافية والاخلاقية . ونحن لا نعني أبداً بهذا الشرط ان معرفة الفرد بوجود هذه التصورات هي محض معرفة فكرية ، وانما نقصد ان يعترف بما لها من سلطان عليه وأن يخضع للمتطلبات النابعة منها . وقد قلنا إن الكبت يصدر عن الانا ، وبوسعنا الآن ان نقول بمزيد من التحديد : عن تقدير الانا لذاته . فالانطباعات والخبرات والحفزات والحاثات الرغبية التي يرخي لها فرد بعينه العنان في داخل نفسه او يفصح عنها على الاقل شعورياً هي عينها التي قد تقابل من فرد آخر بالرفض والشجب ، أو قد يخنقها حتى قبل أن يتسنى لها أن تصير شعورية . غير ان الفارق بين هذين الشخصين ، وهو الفارق المتضمن لشرط الكبت ، يمكن التعبير عنه بكيفية اخرى تفسح في المجال امام إدراجه في نظرية الليبيدو . إذ نستطيع ان نقول إن ثاني الشخصين أنشأ في داخل نفسه **مثالاً** يقيس به أناه الراهن ، بينما لم يتكون لدى الاول مثال من هذا القبيل . وعلى هذا ، يكون تكوين المثال من جانب الانا

شرط الكبت .

ان هذا الأنا المثالي هو ما يتجه إليه من آلان فصاعداً حب الذات الذي كان ينعم به الانا الواقعي في الطفولة . ويبدو ان النرجسية انزاحت الى هذا الانا المثالي الجديد الذي يمتلك ، مثله مثل الانا الطفلي ، جميع ضروب الكمال وصفاته . وكما يجري في كل مرة في ميدان الليبيدو ، فإن الانسان يظهر هنا عجزه عن العزوف عن الإشباع الذي نعم به في يوم من الايام . فهو لا يريد ان يستغني عن كمال طفولته النرجسي ؛ ولئن لم يستطع ان يحافظ عليه ، إذ ان تأنيبات الآخرين في أثناء نموه قد بلبلته، كما ان ملكة الحكم استيقظت لديه ، فإنه يجاهد الآن من اجل اكتسابه مرة ثانية في شكل جديد هو شكل مثال الانا(٢٤) . وما يسقطه أمام ناظريه على أنه مثاله انما هو بديل نرجسيته الطفلية الضائعة ؛ فيوم كان طفلاً كان بذاته مثال ذاته .

هنا تتاح لنا الفرصة لتفحص العلاقة بين تكوين المثال هذا وبين الإسماء . فالإسماء سيرورة تتعلق بالليبيدو الموضوعاني وقوامها اتجاه الدافع الغريزي نحو هدف آخر ، بعيد عن الاشباع الجنسي ؛ والتشديد هنا إنما على هذا الميدان الذي ينأى عما هو جنسي . أما المثلنة IDEALISATION فسيرورة تتعلق بالموضوع ، وعن طريقها يُضخم هذا الموضوع وينفخ نفسياً دون أن تتغير طبيعته . والمثلنة ممكنة سواء أفي مضمار الليبيدو الانوي ام في مضمار الليبيدو

(٢٤) يلاحظ القارىء هنا ان فرويد لا يميز تمييزاً واضحاً بين مثال الانا IDEALICH وبين الانا المثالي ICHIDEAL ، وهو ما استدركه لاحقاً بعض المنتمين الى مدرسته ، ومنهم الفرنسي دانييل لاغاش الذي عرّف مثال الانا IDEAL DU MOI بأنه ما يتطلبه الانا الاعلى من الانا ان يكونه ، والانا المثالي MOI IDEAL هو ما ينتظره الانسان من ذاته ان يكونه وفق النموذج الكلي القدرة للنرجسية الطفلية . «م» .

الموضوعاني . فالمغالاة في التقييم الجنسي للموضوع هي ، على سبيل المثال ، مثلنة له . وعلى هذا ، وبقدر ما أن الإسماء سيرورة تتصل بالدافع الغريزي والمثلنة سيرورة تتصل بالموضوع ، فلا مناص لنا من الإبقاء على هذين المفهومين منفصلين واحدهما عن الآخر .

ان تكوين مثال الانا كثيراً ما يُخلط ، على حساب الموضوع في الفهم ، بينه وبين إسماء الدوافع الغريزية . فمن قايض نرجسيته بتعظيم لمثال انوي سامٍ لا يكون بالضرورة قد أسمى دوافعه الغريزية الليبيدوية . صحيح ان مثال الأنا يتطلب هذا الإسماء ، لكنه لا يستطيع الحصول عليه غصباً ؛ ويبقى الإسماء سيرورة من نوع خاص ؛ وقد يحث المثال على استهلالها ، لكن إنجازها يبقى مستقلاً اتم الاستقلال عن حث كهذا . ولدى المعصوبين تحديداً نلتقي أعظم الفروق في التوتر بين نمو مثال الانا وبين كمية إسماء دوافعهم الغريزية الليبيدوية البدائية ، وبوجه الاجمال فإن إقناع الانسان المثالي بأن الليبيدو عنده قد استقر في موقع غير موائم أعسر بكثير من إقناع الانسان البسيط الذي لزم حدود التواضع في مطالبه وادعاءاته بهذه الحقيقة . وعلاقات تكوين المثال والإسماء بالعوامل المحدِّدة للعصاب مختلفة كل الاختلاف هي الاخرى . فتكوين المثال يزيد ، كما رأينا ، من مطالب الأنا ، وهو الذي يضغط بأعظم القوة باتجاه الكبت ؛ بينما يمثل الإسماء المخرج الذي يفسح في المجال امام إشباع هذه المطالب دون ان يستتبع كبتاً .

ولن يدهشنا أن نعثر على هيئة نفسية خاصة مولجة بمهمة السهر على تأمين الاشباع النرجسي الصادر عن مثال الانا ، وتخضع لهذا الغرض الانا الحالي لمراقبة دائمة وتقيسه بالمثال . وان تكن مثل هذه الهيئة موجودة ، فمن المستحيل ان تكون موضوعاً لاكتشاف مفاجىء ؛ والحق اننا لا نستطيع إلا ان نتعرفها بما هي كذلك ،

وبوسعنا ان ندعي ان ما نسميه **بضميرنا**[٢٥] يتمتع بهذه الخاصية . إن استعراف هذه الهيئة يتيح لنا ان نفهم الافكار الهذائية التي بحسب المعاني منها انه في نقطة المركز من انتباه الآخرين ، او بتعبير اصح هذاء **الترصد** الذي نلحظه بجلاء لا مزيد عليه في أعراض الامراض البارانوية ، وان لم يكن من المتعذر أن ينفرد ايضاً بالظهور كمرض قائم في ذاته او لماماً في عصاب من أعصبة التحويل . وفي مثل هذه الاحوال يشكو المرضى من أن ثمة سلطة مطلعة على أفكارهم ، ومن انها تراقب أفعالهم وترصد حركاتهم وتأماتهم ؛ وهم يعرفون بعمل هذه السلطة المستقل من خلال أصوات تخاطبهم ، على نحو له دلالته ، بضمير الغائب (« إنها لا تزال الآن تفكر بكذا » ؛ « إنه يذهب الآن ») . وهذه الشكوى لها ما يبررها ، فهي تصف الحقيقة ؛ إذ توجد بالفعل ، ولدينا نحن جميعاً في الحياة السوية ، سلطة من هذا القبيل تراقب وتعرف وتنقد نياتنا جميعها . وهذاء الترصد يمثلها في صورة نكوصية ، كاشفاً على هذا النحو عن منشئها وعن السبب الذي يحدو المريض الى شق عصا الطاعة والتمرد عليها .

ان ما حفز الفرد على تشكيل مثال الانا ، الذي توكل الى الضمير مهمة حراسته ، كان بالتحديد نفوذ الوالدين النقدي كما نقله اليه صوتهما ؛ وبمرور الوقت ينضاف اليه المربون والأساتذة والحشد الغفير واللامحدد من سائر أفراد الوسط المحيط (الآخرون ، الراي العام) .

على هذا النحو تنجذب كميات كبيرة من طاقة ليبيدوية هي في أساسها جنسية مثلية لتشكل مثال الانا النرجسي، وهي إذ تصونه

(٢٥) حرفياً : الوعي الاخلاقي . وتجدر الاشارة الى أن الجذر الالماني لكل من « الوعي » و« الضمير » و« الشعور » واحد . « م » .

وتحافظ عليه تجد سبيلاً الى التحول عن مجراها والى إشباع ذاتها . وفي الواقع كان تأسيس الضمير تجسيداً في مرحلة اولى لنقد الوالدين ، وفي مرحلة تالية لنقد المجتمع ؛ وتتكرر السيرورة عينها حينما يكون الميل الى الكبت ناشئاً عن منع أو عقبة كانا في الاصل خارجيين تماماً . وهنا تأتي الاصوات ، وتلك الجمهرة المتروكة على لاتعينها ، لتحتل مكانة الصدارة ، من جراء المرض ، بحيث أن تاريخ نمو الضمير يكرر نفسه نكوصياً . أما التمرد على هذه **الهيئة الرقابية** فينبع من واقعة محددة - موافقة للخاصية الاساسية للمرض - تتمثل في رغبة الفرد في الانعتاق من جميع ضروب النفوذ تلك ، بدءاً بنفوذ والديه ، وفي سحبه منها طاقته الليبيدوية الجنسية المثلية . وعندئذ يرتد اليه ضميره ، في شكل نكوصي ، وكأنه تأثير معاد من العالم الخارجي .

تدل تظلمات البارانويا ايضاً على ان النقد الذاتي للضمير يتوافق في الواقع مع الترصد الذاتي الذي هو الاساس الذي يقوم عليه هذا النقد . فالنشاط النفسي الذي اضطلع بوظيفة الضمير هو عينه الذي وضع نفسه في خدمة الاستبطان الذي يقدم للفلسفة مادة عملياتها التفكيرية . وربما لم يكن ذلك منقطع الصلة بالميل الذي يتصف به المصابون بالبارانويا الى بناء مذاهب وانظمة تأملية[٢٦] .

إنه لمن الاهمية بمكان بكل تأكيد ان نتمكن من ان نتعرف في مضامير اخرى بعد الى القرائن الدالة على نشاط هذه الهيئة التي ترصد وتنقد والتي ارتقت بنفسها الى مستوى الضمير والاستبطان

(٢٦) أضيف هنا الفرض البسيط التالي : وهو ان تكوين تلك الهيئة التي ترصد وتعزيزها يحتمل جداً أن يكونا بمثابة غلاف للتكوين المتأخر للذاكرة (الذاتية) ولعامل الزمن الذي لا يسري على الظاهرات اللاشعورية .

الفلسفي . وأرجع هنا الى ما وصفه هـ . سلبيرر silberer على انه « الظاهرة الوظيفية » ، وهي واحدة من الإضافات النادرة ، التي لا سبيل الى المماراة في قيمتها ، الى نظرية الاحلام . فقد بيّن سلبيرر ، كما هو معلوم ، أنه في إمكاننا ان نلحظ مباشرة ، في الحالات الواقعة ما بين النوم والصحو ، انتقال الافكار الى صور بصرية ، غير ان الصورة التي تظهر في مثل هذه الظروف لا تمثل بوجه الاجمال مضموناً فكرياً ، بل الحالة (العافية ،التعب ، الخ) التي يكون عليها الشخص الذي يغالب النوم . وقد أوضح كذلك ان نهاية الحلم أو بعض فقرات مضمون الحلم لا تعني ، غير مرة ، سوى شيء واحد وهو الادراك الذاتي للنوم واليقظة . وبذلك يكون قد أثبت مساهمة الترصد الذاتي - أي هذاء الترصد البارانوئي - في تكوين الحلم . وهذه المساهمة متقلبة : وربما غفلتُ عنها لأنها ما كانت تلعب دوراً كبيراً في احلامي الخاصة. اما لدى الاشخاص الموهوبين فلسفياً والمعتادين على الاستبطان فمن الممكن ان تغدو هذه المساهمة واضحة سافرة .

لنتذكر هنا اننا كَنا كشفنا ان تكوين الحلم يتم تحت سيطرة رقابة ترغم افكار الحلم على التعرض لتحريف . بيد اننا لا نتمثل هذه الرقابة في صورة قوة خاصة ، وانما اخترنا هذا التعبير لنشير الى مظهر خاص للميول التي تهيمن على الانا والتي تحجب وجهها المتجه صوب افكار الحلم . وان توغلنا الى ابعد من ذلك في بنية الانا ، وسعنا أن نتعرف ايضاً رقيب الحلم في مثال الأنا وفي تظاهرات الضمير الدينامية . وان يكن هذا الرقيب على شيء من التاهب حتى في أثناء النوم ، فستفهم ان يسهم الترصد الذاتي والنقد الذاتي ، اللذان يفترضهما نشاطه ،بقسطهما في مضمون الحلم من خلال مضامين كهذه : انه الآن اكثر استغراقاً في النوم من ان يستطيع التفكير ، أو إنه الآن على وشك

الاستيقاظ[٢٧] .

بوسعنا ، ابتداء من هنا ، ان نحاول مناقشة مشكلة حس احترام الذات[٢٨] لدى السوي ولدي المعصوب .

ان حس احترام الذات يبدو لنا بادىء ذي بدء تعبيراً عن عظمة الانا ، دون ان تدخل في الاعتبار العناصر التي تتألف منها هذه العظمة . فكل ما يملكه المرء او تطاله يده ، وكل أثر متبقٍ من الحس البدائي بكلية القدرة حظي بالتأييد من الخبرة والتجربة ، يسهم في إنماء حس احترام الذات .

وما دمنا ادخلنا هنا تمييزنا بين الغرائز الجنسية والغرائز الانوية ، فلزام علينا أن نقر بان حس احترام الذات منوط ، على نحو حميم للغاية ، بالليبيدو النرجسي. واننا لنستند هنا الى الواقعتين الاساسيتين التاليتين : فحس احترام الذات يتنامى في البارافرينيا ، ويتقلص في الاعصبة التحويلية : وفي الحياة الحبية يتقدم حس احترام الذات لدى الكائن المحبوب ويتقهقر لدى الكائن غير المحبوب . وقد كنا ذكرنا ان الهدف والإشباع في الاختيار الموضوعاني النرجسي يتمثلان في ان يكون المرء محبوباً .

أضف الى ذلك انه من اليسير أن نلاحظ ان توظيف الليبيدو في المواضيع لا ينمي حس احترام الذات . فالتبعية ازاء الموضوع[٢٩]

(٢٧) لا أستطيع ان أبت هنا في ما اذا كان التمييز بين هيئة الرقابة هذه وبقية الانا أهلاً لتقديم اساس سيكولوجي للفصل الذي تقرره الفلسفة بين الوعي ووعي الذات .

(٢٨) هو بتعبير أفصح حس الكرامة . ولكننا آثرنا ان نترجم SELBSTGEFUHL بـ « احترام الذات » حرصاً على كلمة « الذات » ، وذلك ما دمنا بصدد النرجسية . « م » .

(٢٩) ينبغي ان نكرر القول هنا إن « الموضوع » عند فرويد في هذا السياق ليس شيئاً ، بل إنسان . « م » .

المحبوب يكون من نتيجتها تقليص هذا الحس : فالعاشق انسان ذليل وخانع . فمن يحب يدفع غرامته ، إن جاز القول ، من حساب نرجسيته بالذات ، ولا يستطيع ان يحظى بتعويض إلا إذا صار محبوباً بدوره . ومن جميع هذه المنظورات يبقى حس احترام الذات ، فيما يبدو ، وثيق الصلة بالعنصر النرجسي في الحياة الحبية .

ان إدراك المرء لعنته ، لعجزه عن الحب من جراء اضطرابات نفسية او بدنية ، يؤثر الى أعلى درجة في خفض حس احترام الذات ، وهنا ينبغي ان نبحث ، في تقديري ، عن أحد مصادر مشاعر النقص والدونية التي لا يتردد المرضى المعانون من عصاب تحويلي في الكشف عنها. غير ان المصدر الرئيسي لهذه المشاعر هو افتقار الأنا الناجم عن كون مقادير كبيرة للغاية من التوظيفات الليبيدوية قد سحبت من الأنا ، وهو من ثم الجرح الذي تنزله بالانا النوازع الجنسية التي لا تعود خاضعة لإشرافه .

لقد أصاب أ . آدلر إذ نوه بأن إدراك المرء لدونيته العضوانية يحفز الحياة النفسية ، حين تكون الطاقة موفورة لها ، ويزيد في مردودها عن طريق التعويض المضاعف . غير أنه من الغلو المحض ان يُعزى كل انتاج لمردود جيد ، على منوال ما يفعل آدلر ، الى شرط الدونية العضوانية الاصلية هذا . فليس الرسامون كلهم يعانون من اضطرابات بصرية ، وليس الخطباء كلهم ممن كانوا يشكون من التأتأة في اول الامر . ولدى عدد غفير من الاشخاص يرتكز المردود الممتاز الى مواهب عضوانية من الطراز الاول . ان الدونية العضوانية وضروب الضمور تلعب في اتيولوجيا الاعصبة دوراً طفيفاً لا يزيد على الدور الذي تلعبه المعطيات الادراكية الراهنة في تكوين الحلم . والحق أن العصاب يستخدم تلك الدونية كذريعة وتعلة ، مثلما يستخدم أي عامل متاح آخر . وما ان نصدق ما تؤكده لنا امرأة معصوبة من أنه

كان من المحتم ان تقع مريضة لأنها دميمة ، بشعة الخلقة ، لا فتنة لها ولا سحر بحيث يتعذر ان يحبها أحد ، حتى تنبهنا الى خطئنا المريضة التالية : فهي مقيمة على عصابها وعلى صدودها عن الجنس لا تبارحهما ، على الرغم من ان ظاهرها يدل على أنها من النوع الذي يُشتهى ، بل على الرغم من انها مشتهاة فعلاً اكثر من متوسط النساء . والغالبية من النساء الهستيريات هن بين بنات جنسهن من الجذابات ، بل من الحسناوات ؛ وعلى العكس من ذلك تجد ان ضروب القبح وضمور الاعضاء ، وهي عاهات تكثر في الطبقات الدنيا من مجتمعنا ، لا تزيد اطلاقاً في نسبة انتشار الامراض العصابية بين هذه الطبقات .

ان علاقات حس احترام الذات بالايروسية (أي بالتوظيفات الليبيدوية الموضوعانية) يمكن التعبير عنها بالصيغ التالية : من الواجب التمييز بين حالتين ، وذلك تبعاً لكون التوظيفات الحبية موافقة للأنا أو واقعة على العكس تحت الكبت . ففي الحالة الاولى (استخدام الليبيدو على نحو موافق للانا) يكون الحب مثمّناً مثله مثل كل نشاط آخر للأنا . والحب بحد ذاته ، كرغبة مضطرمة وكحرمان ، يخفض حس احترام الذات ؛ على حين ان هذا الحس يرتفع ويعلو ان يكن المرء محبوباً ، مبادلاً حباً بحب ، مالكاً للموضوع المحبوب . وعندما يُكبت الليبيدو ، يستشعر المرء التوظيف الحبي على أنه انتقاص حاد من الانا ؛ ومتى ما كان الاشباع الحبي مستحيلاً ، فلا سبيل الى إعادة إغناء الأنا إلا بسحب الليبيدو من المواضيع . وارتداد الليبيدو الموضوعاني الى الانا ، تحوله الى نرجسية ، يمثل بنوع ما استعادة لحب موفق ، على حين ان الحب الموفق الفعلي يناظر الحالة الاصلية التي يكون من المتعذر التمييز فيها بين الليبيدو الموضوعاني والليبيدو الانوي .

ان خطورة موضوع بحثنا هذا واستحالة استيعابه بنظرة إجمالية قد تبرران إضافتي لبضع ملاحظات اخرى بتسلسل أشد تهافتاً بعد .

إن نمو الأنا قوامه التنائي عن النرجسية الاولية ، وان تولد عنه في الوقت نفسه ميل شديد الى استرجاع هذه النرجسية . ويتم هذا التنائي عن طريق نقل الليبيدو الى مثال انوي يتم فرضه من الخارج ، كما يتم الاشباع عن طريق تحقيق هذا المثال .

ويكون الانا قد أصدر في الوقت نفسه التوظيفات الليبيدوية الموضوعانية . فيصيبه من جراء ذلك افتقار لصالح هذه التوظيفات، وكذلك لصالح مثال الانا ،ويعود الى الاغتناء من جديد عن طريق الاشباعات الموضوعانية ، وكذلك عن طريق تحقيق هذا المثال .

ان جانباً من حس احترام الذات أولي ، وهو فضالة النرجسية الطفلية ، وجانباً آخر منه يكمن اصله في ما تؤكده التجربة من كلية قدرتنا (تحقيق مثال الانا) ، وجانباً ثالثاً ينبع من اشباع الليبيدو الموضوعاني .

إن مثال الانا يخضع الاشباع الليبيدوي ذا الصلة بالمواضيع لشروط صارمة ، إذ يحمل رقيبه على رفض جانب من هذا الاشباع باعتباره غير متوافق . وحينما لا ينمو مثال كهذا ، تدخل النزعة الجنسية التي نحن بصددها كما هي، أي باعتبارها انحرافاً ، في تركيب الشخصية . فالسعادة التي ينشد الانسان بلوغها هي ان يكون من جديد ، وكما كان في طفولته ، وحتى في ما يتصل بنوازعه الجنسية ، مثال ذاته .

ان العشق قوامه طفح لليبيدو الانوي على الموضوع . وهو يملك القدرة على إلغاء ضروب الكبت وعلى تصحيح الانحرافات . انه يرفع الموضوع الجنسي الى مرتبة المثال الجنسي . ويكون حدوثه ، في النمط

الموضوعاني ، او الوكلي ، على اساس تحقيق شروط كانت تحدد الحب الطفلي ، مما يبيح لنا القول : ان ما يحقق هذا الشرط المحدد للحب تجري مثلنته .

يمكن للمثال الجنسي أن يدخل في علاقة مساعفة مثيرة للاهتمام مع مثال الانا . فحين يصطدم الاشباع النرجسي بعقبات فعلية ، يمكن للمثال الجنسي أن يفيد في تقديم إشباع بديل . وعندئذ يحب المرء ، وفق نمط الاختيار النرجسي،ما كانه هو وما فقده،أو ما يتمتع بضروب الكمال التي ما أتيح له هو قط ان يتمتع بها (انظر أعلاه الفقرة الثالثة) . والصيغة الموازية للصيغة السابقة مؤداها كما يلي : إن ما يملك الصفة الرفيعة ، التي لا يحوزها الانا لبلوغ المثال ، هو ما يغدو محبوباً . وتنطوي مثل هذه الحيلة على اهمية خاصة بالنسبة الى العصوب الذي يفتقر ، من جراء توظيفاته الموضوعانية المسرفة ، في ذات أناه ويغدو عاجزاً عن تحقيق مثاله الانوي . وبعد ما يبدد ليبيدوه في المواضيع يبحث عن طريق يعيده الى النرجسية ،بأن يختار لنفسه ، وفق النمط النرجسي، مثالاً جنسياً يتمتع بضروب الكمال التي يعز عليه بلوغها . وبالفعل ، انه لا يستطيع ان يؤمن بطريقة اخرى للشفاء ، ويفصح مراراً وتكراراً في اثناء العلاج عن توقعه لهذه الطريقة ، ويوجه هذا التوقع الى شخص الطبيب الذي يعالجه . وخطة الشفاء هذه تصطدم بطبيعة الحال بعجز المريض عن الحب ، كنتيجة لاتساع نطاق كبوتاته . وحينما نحرره الى حد ما ، عن طريق المعالجة، من هذه الكبوتات ، تطالعنا بوجه عام هذه النتيجة التي ما كنا نرمي اليها : فالمريض يتهرب الآن من متابعة المعالجة ليقوم باختيار حبي ، موكلاً الى حياته المشتركة مع الشخص الذي يحبه مهمة إنجاز عملية إبلاله وشفائه . وكان بوسعنا ان نرضى عن هذه النتيجة لولا انها تنطوي على جميع أخطار التبعية المرهقة تجاه هذا المنقذ .

ان طريقاً جليل الشأن يفضي من مثال الانا الى فهم السيكولوجيا الجماعية . فلهذا المثال ، علاوة على جانبه الفردي ، جانب اجتماعي؛ فهو ايضاً المثال المشترك لأسرة أو لطبقة أو لأمة . وفضلاً عن الليبيدو النرجسي، يستأثر هذا المثال بكمية كبيرة من الليبيدو الجنسي المثلي عند شخص من الاشخاص . وهذا الليبيدو يرتد عن ذاك الطريق الى الانا . وعدم الإشباع الناجم عن عدم تحقيق هذا المثال يحرر كمية من الليبيدو الجنسي المثلي لا تلبث ان تتحول الى شعور بالاثم (القلق الاجتماعي) . وقد كان الشعور بالاثم في الأصل قلقاً من الخصاء على يد الوالدين ، أو بتعبير ادق خوفاً من فقدان حبهما ؛ ثم لا تلبث جمهرة رفاقنا اللامتعينة أن تحل محل الوالدين . وعلى هذا النحو يتأتى لنا ان نفهم على نحو افضل لماذا تنشأ البارانويا في كثرة من الاحيان عن إصابة يتعرض لها الانا ، عن إحباط للإشباع في ميدان مثال الانا ؛ ويتأتى لنا ان نفهم على نحو افضل ايضاً تلاقي المَثْلَنة والإسماء في مثال الانا ، وتخفيض الإسماءات وتحوير المُثُل في الأمراض البارافرينية .

الفصل السادس

حول انزياحات الغرائز ، وعلى الاخص في الايروسية الشرجية
(١٩١٧)

منذ عدة سنوات قادتني المشاهدة التحليلية النفسية الى الاخذ بفرض مؤداه ان التلاقي المستديم للخصائص الطبيعية الثلاث التالية : الترتيب ، الاقتصاد ، العناد ، يشف عن تعزيز للمقوم الايروسي الشرجي في الجبلّة الجنسية للاشخاص الذين تكونت لديهم ، في مسار تموهم ، وتتويجا لايروسيتهم الشرجية ، هذه الاشكال المتميزة لاستجابة الأنا[١] .

لقد كانت بغيتي يومئذ التعريف بعلاقة معترف بها على صعيد الوقائع ؛ واما فيما يتعلق بتقييمها النظري فما كنت القي اليه بالا . ومنذئذ حظي ذلك التصور بقبول عام : فكل خصيصة من هذه الخصائص الثلاث ، البخل والادعاء والعناد ، تنبع من المصادر الغريزية للايروسية الشرجية ـ أو توخياً لمزيد من الحذر والكمال في التعبير ـ تتلقى مددا وفيرا من هذه المصادر. وفي الواقع ، لم تكن الحالات الخاصة الموسومة بميسم اجتماع هذه العيوب الثلاثة المشار اليها (الطبع الشرجي) سوى حالات متطرفة كان من المحتم ان

(١) الطبع والايروسية الشرجية ، ١٩٠٨ .

يتكشف فيها الترابط موضوع بحثنا حتى للملاحظة البدائية .

وبعد مضي بضع سنوات ، وبهدي من خبرة تحليلية قاهـرة، استخلصت من جملة وفيرة من الانطباعات استنتاجا مؤداه انه لا مناص لنا من التسليم بأن نمو الليبيدو البشري يمر ، قبل مرحلة الزعامة التناسلية ، بمرحلة من « تنظيم قبتناسلي » تضطلع فيهـا السادية والايروسية الشرجية بالدور القيادي(٢) .

ومنذئذ لم يعد ثمة مهرب من طرح السؤال المتعلق بمعرفة الى ماذا تؤول لاحقا الحاثات الغريزية للايروسية الشرجية . وبالفعل ، ما مصيرها بعد ان تفقد أهميتها بالنسبة الى الحياة الجنسية بنتيجة توطد التنظيم التناسلي النهائي ؟ هل تبقى على قيد الوجود بصفتها تلك ، وانما في حالة كبت ؟ هل يكتب لها ان تُسْمى او ان تستهلك بنتيجة انزياحها الى سمات طبعية أم انها تجد لها ملاذا في البنية الجديدة للجنسية المتحددة بزعامة الاعضاء التناسلية ؟ أو بالاحرى ، وما دام أي مصير من مصائر الايروسية الشرجية هذه لا ينفي في اغلب التقدير المصائر الاخرى ، الى أي حد أو بأية كيفية تتوزع مختلف الاحتمالات التي تبت في مصير الايروسية الشرجية التي لا يمكن على كل حال أن يُسد مجرى مصادرها العضوية بمجرد احتلال التنظيم التناسلي لمقدمة المسرح ؟

قد نميل الى الاعتقاد بأن المادة اللازمة للاجابة عن هذا السؤال وفيرة ، وذلك ما دامت سيرورات التطور والانزياح المشار اليها تدور لا محالة لدى جميع الاشخاص الذين يصيرون فيما بعـد موضـوعا للاستقصاء التحليلي النفسي . بيد ان هذه المادة كتيمة للغاية ، وكتلة الانطباعات التي تترجح باستمرار تترك أثرا يبعث على شديد الحـيرة ،

(٢) الاستعداد القبلي للعصاب الوسواسي ، ١٩١٣ .

بحيث أجدني عاجزاً حتى في الساعة الراهنة عن تقديم حل كامل للمشكلة ، وغير مستطيع ان اعطي سوى عناصر من شأنها ان تساعد على حلها . وإنني ان افعل ذلك لن ادع الفرصة تمر دون ان اشير ، ان كان السياق يأذن بذلك ، الى انزياحات غريزيـة اخرى لا تخص الايروسية الشرجية . واخيرا، فانه لا تكاد هناك حاجة الى التذكير بأن سيرورات التطور المشار اليها ـ هنا كما في مواضع اخرى في التحليل النفسي ـ جرى استنتاجها ابتداء من النكوصات التي قسرتها عليها السيرورات العصابية .

نستطيع ان نتخذ نقطة انطلاق لهذه المناقشات الواقعة التالية : فبحسب ما تشير اليه الظواهر كلها فانه من الصعب في منتجات اللاشعور ـ من خواطر وتخييلات وأعراض ـ الفصل بين مفاهيم **البراز** (المال ، الهدية) و**الطفل** و**القضيب** ؛ فهي قابلة بسهولة لأن ينوب بعضها مناب بعضها الآخر . ونحن نعلم جيدا اننا ، بما نقوله هنا ، نحول عن خطأ الى اللاشعور تسميات تستخدم في مجالات اخرى من الحياة النفسية ، وأننا ننساق وراء إغراء الفائدة التي يمكن ان تعود بها علينا المقارنة . ولنكرر القول ايضا في صيغة لا سبيل الى الطعن فيها إن تلك العناصر غالبا ما تُعامل في اللاشعور باعتبارها متكافئة وكما لو انها قابلة لأن يقوم بعضها مقام بعضها الآخر دون ان يكون في ذلك ضير .

وأيسر ما يمكن ملاحظة ذلك في العـلاقات بـين « الطفل » و« القضيب » . وانه ليس امرا عديم الدلالة دون شك ان يكون رمز مشترك قابلا لان ينوب مناب كل منهما في لغة الحلم الرمزية كما في لغة الحياة اليومية . فالطفل مثله مثل القضيب ، يقال له « الصغير » . ومن الحقائق الواقعة المعروفة ان اللغة الرمزية لا تقيم في الغالب اعتبارا لفارق الجنسين . وهكذا فان « الصغير » الذي كان يعني في

الأصل عضو الذكورة ، امكن استخدامه بصورة ثانوية في الاشارة الى العضو التناسلي المؤنث .

إذا تقصينا بما فيه الكفاية من العمق العصاب لدى امراة بعينها ، لا يندر أن نرتطم في نهاية المطاف برغبتها المكبوتة في ان يكون لها كالرجل قضيب . ان حظاً عاثراً عارضاً في حياة المراة ـ حظاً عاثراً لا يعدو هو نفسه في كثرة من الاحيان ان يكون نتيجة لجبلّة ضاربة بقوة الى الذكورة ـ قد نشّط من جديد تلك الرغبة الطفلية التي ندرجها ، تحت عنوان « حسد القضيب » ، في عداد عقدة الخصاء ، وجعلها تصبح ، من جراء انسحاب الليبيدو ، الحامل الرئيسي للاعراض العصابية . ولدى نساء أُخر لا يشف شيء عن هذه الرغبة في القضيب : فقد احتلت مكانها الرغبة في إنجاب طفل ، فان حرمتهن منه الحياة فقد يتفجر عندئذ لديهن العصاب . فلكأن هؤلاء النسوة ادركن ـ مع انه ربما كان ذلك مستحيلا كدافع ـ ان الطبيعة اعطت المراة طفلا كبديل عن الشيء الآخر الذي لم يكن امامها مناص من أن تحرمها منه. ولدى نساء أُخر ايضا يتبين لنا ان الرغبتين كانتا ماثلتين في الطفولة وقد تناوبتا في العمل . ففي بادىء الامر كن يرغبن في قضيب مثل الرجل ، وفي زمن لاحق ، ولكن دون ان يجاوزن طور الطفولة ، حلت الرغبة في ان يكون لهن طفل محل الرغبة الاولى . ولسنا نستطيع ان ننحي جانبا ما يساورنا من انطباع بأن عوامل عارضة في الحياة العائلية ، ووجود الاخوة او عدم وجودهم ، وخبرة ميلاد طفل جديد في حقبة مواتية ، هي المسؤولة عن ذلك التنوع الذي لا يحول مع ذلك دون ان تكون الرغبة في القضيب مطابقة جوهريا للرغبة في الحصول على طفل .

وقد يكون في وسعنا ان نحدد المصير الذي تؤول اليه الرغبة الطفلية في الحصول على قضيب حين تغيب شروط العصاب عن الحياة

اللاحقة . فهي تنقلب عندئذ الى رغبة في **الرجل** ، وبعبارة اخرى انها تعتمد الرجل بوصفه استطالة للقضيب . وبفعل هذا الانقلاب ، فان الحالة التي كانت موجهة ضد الوظيفة الجنسية الانثوية تتحول الى حالة مواتية لها . ويغدو في امكان هؤلاء النساء عندئذ أن يحيين حياة حبية وفق النمط المذكر للحب الموضوعاني . وهو النمط الذي يمكنه ان يثبّت موقعه بجانب النمط المؤنث المحض والمشتق من النرجسية . وقد رأينا من قبل ان الطفل في حالات اخرى هو الذي يفسح في المجال للانتقال من حب الذات الى الحب الموضوعاني . اذن بصدد هذه النقطة ايضا يمكن ان ينوب القضيب مناب الطفل .

لقد سنحت لي الفرصة مرارا لأستمع الى نساء يسردن لي الاحلام التي اعقبت علاقاتهن الجنسية الاولى. كانت هذه الاحلام تنم بلا جدال عن رغبتهن في الاحتفاظ لأنفسهن بالقضيب الذي احسسن به ، وتعادل اذن ، بصرف النظر عن الباعث الليبيدوي لها ،نكوصاً مؤقتا من الرجل الى القضيب كموضوع للرغبة . وقد تميل المراة في الاغلب الى ان ترجع ، بطريقة عقلانية خالصة ، رغبتها في الحصول على رجل الى رغبتها في الحصول على طفل . اذ لا محيد لها عن ان تفهم في يوم من الايام انه لا سبيل الى الحصول على طفل بدون تدخل الرجل . ولكن من الممكن ان يكون قوام الأمر كالتالي بالاحرى : إن الرغبة في الرجل تظهر مستقلة عن الرغبة في الطفل ، واذا ما انبعثت دوافع مفهومة ، تنتمي بكليتها الى سيكولوجيا الانا ، فان الرغبة القديمة في القضيب تقترن بها باعتبارها تعضيدا ليبيدويا لاشعوريا .

إن اهمية السيرورة التي جئنا بوصفها تكمن في كونها تنتقل بجزء من الذكورة النرجسية للمراة الصبية الى جانب الانوثة وتجعل بالتالي من هذا الجزء عادم الاذى بالنسبة الى الوظيفة الجنسية المؤنثة.

والحال انه عن طريق آخر يغدو عنصر حتى من إيروسية المرحلة

القبتناسلية أهلاً للاستخدام في مرحلة الزعامة التناسلية. فالطفل يعد بالفعل « لومفا »[3] (انظر تحليل هانز الصغير) ، شيئاً ينفصل عن الجسم مروراً بالمعى ؛ وعلى هذا النحو يمكن لكمية من التوظيف الليبيدوي الذي كان مثمراً في المحتوى المعوي ان تنسحب على الطفل الذي يولد مروراً بالمعى . ومن الشواهد اللغوية على وحدة الهوية هذه بين الطفل والبراز قولنا : **أعطت طفلاً**[4] . فالبراز هو بالتحديد **الهدية** الاولى ، جزء من جسم الرضيع لا يقبل بانفصاله عنه إلا بإيعاز من الشخص المحبوب ، وعن طريقه يظهر حبه لهذا الشخص حتى بدون ان يسأله ذلك : فهو بصفة عامة لا يوسّخ الاشخاص الغرباء (الاستجابة نفسها مع البول ، وان بدرجة اقل شدة) . والتغوط يتيح للطفل اول مناسبة ليحسم أمره بين الموقف النرجسي وموقف الحب الموضوعاتي . فإما أن يتنازل بانقياد عن برازه ، أي « يضحي » به لقاء الحب ، أو يمسكه برسم الاشباع الايروسي الذاتي ، وفيما بعد لتوكيد ارادته الخاصة . وبهذا القرار الاخير يتكون **العناد** (التمسك بالرأي) ، أي ينشأ عن ثبات نرجسي في الايروسية الشرجية .

واغلب الظن ان الدلالة الاولى التي يفضي اليها الاهتمام بالبراز ليست **الذهب ـ الفضة** ، وانما الهدية . فالطفل لا يعرف مالاً آخر غير ذاك الذي يعطى له : لا يعرف لا المال المكتسب ، ولا المال الشخصي الموروث . وبما ان البراز هو هديته الاولى ، فانه يحول بيسر اهتمامه بهذه المادة الى تلك المادة الجديدة التي تمثّل له في الحياة باعتبارها أثمن هدية . ومن يشك في اشتقاق الهدية هذا يخلق به أن يرجع الى

---

(٣) كان هانز الصغير يسمي برازه « لومفاً » . راجع ترجمتنا لتحليل هانز الصغير الصادرة عن دار الطليعة . « م » .

(٤) هذا التعبير لا وجود له بالعربية . ولكن يقال لفعل الولادة بالالمانية GEBOREN WERDEN . والحال ان GEBOREN مشتق من GEBEN اي اعطى . « م » .

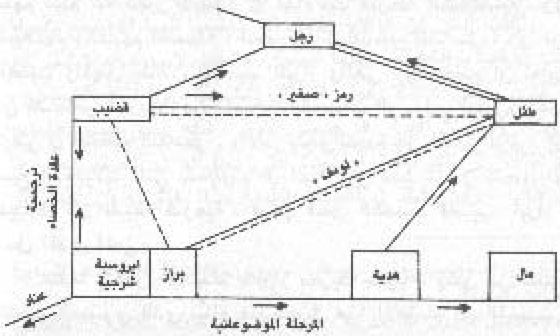
خبرته بالعلاج التحليلي النفسي ، وان يدرس الهدايا التي يتلقاها بوصفه طبيباً من المريض ، وان يأخذ حذره من عواصف التحويل التي يمكن ان يثيرها فيما لو اهدى هو المرضى هدية .

وعليه ، ان الاهتمام بالبراز يستمر من جهة اولى في صورة اهتمام بالمال ، وينتقل من الجهة الثانية الى الرغبة في انجاب طفل . وفي هذه الرغبة في الطفل تلتقي عندئذ حافة ايروسية شرجية وحافة تناسلية (حسد القضيب) . غير ان للقضيب ايضاً دلالة ايروسية شرجية ، مستقلة عن الاهتمام بالطفل . فالعلاقة بين القضيب وقناة الغشاء المخاطي التي يملؤها ويهيجها تتجسد قبلياً في المرحلة القبتناسلية السادية الشرجية . فرصاصة البراز ـ أو « قضيب البراز » على حد تعبير احد المرضى ـ هي ان جاز القول القضيب الاول ، والغشاء المخاطي الذي يهيجه هذا القضيب هو غشاء باب البدن . وثمة اشخاص بقيت الايروسية الشرجية عندهم قوية وبلا تغيير الى زمن ما قبل البلوغ (بين السنة العاشرة والثانية عشرة) ؛ ومنهم نعلم انه تطور لديهم ، في اثناء تلك المرحلة القبتناسلية ، وفي تخييلاتهم والعابهم المنحرفة ، تنظيم مماثل للتنظيم التناسلي ، كان فيه القضيب والمهبل يمثلان بقضيب البراز والمعى . ونستطيع ان نعاين لدى اشخاص آخرين ، من المصابين بالعصاب الوسواسي ، ثمرة تدهور نكوصي في التنظيم التناسلي . والامر يتجلى لديهم على النحو التالي : إن جميع التخييلات التي يتخيلونها في البدء وفق نمط تناسلي تتحول الى تخييلات من طبيعة شرجية ، فيحل محل القضيب قضيب البراز ، ومحل المهبل المعى .

عندما ينكص الاهتمام بالبراز بطريقة سوية ، يكون من نتيجة التشابه العضوي الذي بيّناه هنا تحويل هذا الاهتمام الى القضيب . فإن تناهى الى العلم لاحقاً ، بنتيجة الاستقصاءات الجنسية ، ان

الطفل يولد من المعي ، يصبح الطفل عندئذ الوريث الرئيسي للايروسية الشرجية ، لكن يكون سلفه هو القضيب ، في هذا الاتجاه كما في الآخر .

إنني لعلى اقتناع بأن العلاقات المتعددة في سلسلة البراز ـ القضيب ـ الطفل غدت الآن مستغلقة على الفهم تماما ، لذا سأحاول ان اتدارك هذا القصور برسم بياني نتناول بالتمحيص ، من خلال مناقشته ، المعطيات نفسها ، ولكن بترتيب مختلف هذه المرة . ومن دواعي الاسف ان هذه الوسيلة الفنية ليست مرنة بما فيه الكفاية لخدمة مقاصدنا او اننا نحن الذين لم نتدرب بعد تدريبا كافيا على استعمالها بالطريقة الموائمة . وعلى كل حال ، ارجو القارىء الا يقابل المخطط بمتطلبات صارمة .



يخرج العناد من الايروسية الشرجية، عبر استعمال نرجسي ، بوصفه استجابة دالة تصدر عن الانا ردا على مطالب الآخرين: والاهتمام المركّز على البراز ينقلب الى اهتمام بالهدية ثم بالمال . ودخول القضيب الى المسرح يولد لدى البنت الصغيرة حسد القضيب الذي ينزاح فيما بعد الى رغبة في الحصول على رجل ، باعتباره حاملا لقضيب . وكانت الرغبة في الحصول على قضيب قد تحولت من قبل الى رغبة في الحصول على طفل ، او قل ان الرغبة في الطفل قد حلت محل الرغبة في القضيب . والتشابه العضوي بين القضيب والطفل (الخط المنقّط) يتجلى في امتلاك رمز مشترك بينهما كليهما (« الصغير ») . ومن الرغبة في الطفل يقــود طريق عقلاني (الخط المزدوج) الى الرغبة في الحصول على رجل . وقد كنا قيّمنا من قبل دلالة انزياح الغريزة هذا .

وإنه لمن الاسهل بكثير ان نتعرف لدى الرجل جانباً آخر من هذا الترابط . فهو يقوم متى ما تحقق الطفل في اثناء استقصاءاته الجنسية من انعدام القضيب لدى المرأة . فالقضيب يقع عندئذ تحت الادراك بوصفه شيئاً يمكن فصله عن الجسم وتُعقل هويته بوصفه نظير البراز الذي كان أول قطعة من مادة الجسم تعين على الطفل أن يتنازل عنها . على هذا النحو يدخل التحدي الشـرجي القديم في تكوين عقدة الخصاء . ومن المؤكد ان التشابه العضوي الذي اتاح لمحتوى المعي ان يمثل رائد القضيب في اثناء المرحلة القبتناسلية لا يمكن ان يُعتبر دافعاً ، غير انه يعثر على بديل نفسي عبر الاستقصاءات الجنسية .

حينما يأتي الطفل الى الوجود تتعرفه الاستقصاءات الجنسية على أنه « لومف » ، وتوظف فيه اهتماماً ايروسياً شرجياً قوياً . وتتلقى الرغبة في الطفل مدداً ثانياً من المصدر نفسه متى ما افادت الخبرة الاجتماعية بأنه من الممكن ايضاً اعتبار الطفل عربون حب ، أي

هدية ـ هذه الاشياء الثلاثة : عمود البراز والقضيب والطفل ، هي كلها أجسام صلبة تهيج بدخولها أو بخروجها قناة الغشاء المخاطي (الشرج ، والمهبل الذي يتم في الوقت نفسه ، وبحسب تعبير لو اندرياس ـ سالومي الموفق[٥] ، تأجيره له) .

ان استقصاءات الطفل الجنسية لم تتح له أن يعرف من واقع الاشياء هذا سوى ان الطفل يسلك المجرى نفسه الذي يسلكه عمود البراز . وبالاجمال ، لا تقوده استقصاءاته الى اكتشاف وظيفة القضيب . غير انه من المفيد ان نلاحظ أن تناظراً عضوياً يعاود ظهوره ، بعد طول لف ودوران ، في الحياة النفسية في صورة وحدة هوية لاشعورية .

(٥) « الشرجي » و « الجنسي » ، في ايماغو ، السنة ٤ ، م ٥ ، ١٩١٦ .

الفصل السابع

التنظيم التناسلي الطفلي (١٩٢٣)

(للإدراج في نظرية الجنس)

ان صعوبة العمل في مجال البحث والاستقصاء في التحليل النفسي تتجلى تحديداً في ان المرء قد يمر ، بالرغم من ملاحظة ممتدة على نحو متواصل على مدى عشرات السنوات ، بسمات عامة وعلاقات مميزة فلا يفطن لها الى ان تفرض نفسها عليه في خاتمة المطاف فرضاً فلا يعود في مستطاعه تجاهلها . والغرض من الملاحظات التالية تدارك تقصير من هذا القبيل في مضمار النمو الجنسي الطفلي .

ان من قرأ كتابي **ثلاثة مباحث في نظرية الجنس** (١٩٠٥) يعلم حق العلم انني لم أعمد قط الى إعادة النظر فيه بل حافظت على ترتيبه الأول وأخذت بعين الاعتبار ما حققته معرفتنا من تقدم ، فأقحمت عليه فقرات وعدلت في نصه . ومن المحتمل في عمل كهذا الا يقبل القديم والجديد في كثرة من الاحيان بالانصهار بملء الطواعية في وحدة براء من التناقضات . وبالفعل ، كان التركيز في اول الامر على الفارق الاساسي في الحياة الجنسية بين الاطفال والراشدين : اما لاحقاً فقد تبوأت مكانة الصدارة **التنظيمات القبتناسلية** لليبيدو والواقعة المدهشة التالية التي تترتب عليها عواقب جسيمة : **المسار الثنائي الطور** للنمو الجنسي . وفي خاتمة المطاف فإن **الاستقصاء الجنسي**

الطفلي هو ما استأثر باهتمامنا ، وابتداء منه امكن لنا ان نتبين كم يقترب مآل **الجنسية الطفلية** (في حوالي السنة الخامسة) من الشكل المكتمل للجنسية لدى الراشد . وعند هذه النقطة كنت وقفت في آخر طبعات **نظرية الجنس** (١٩٢٢) .

في الصفحة ٦٣ من هذه الطبعة[1] كنت أشرت الى انه «غالباً، بل دائماً ما يقع الاختيار منذ عهد الطفولة على موضوع جنسي (اختيار حددناه بانه من مميزات البلوغ) ، بحيث تتجه جميع الميول الجنسية نحو شخص واحد وتنشد عنده إشباعها . على هذا النحو يتحقق في سنوات الطفولة شكل للجنسية هو اقرب الاشكال الى الصورة النهائية للحياة الجنسية . اما الفارق بين هذه التنظيمات وبين الحالة النهائية فينحصر بأن تركيب الغرائز الجزئية وخضوعها الكامل لزعامة المنطقة التناسلية لا يتحقق ابداً لدى الطفل ، او لا يتحقق إلا على نحو ناقص غاية النقص . والطور الاخير من النمو الجنسي هو وحده الذي سيوطد هذه الزعامة في خدمة التناسل » .

انني لن أرضى اليوم عن رأي كهذا يقول ان زعامة الاعضاء التناسلية لا تتحقق في الطفولة الاولى إلا على نحو ناقص للغاية ، أو بل لا تتحقق على الاطلاق.فحياة الطفل الجنسية تضاهي الى حد ابعد من ذلك بكثير حياة الراشد الجنسية،وهذا ليس فقط فيما يتصل بحدوث اختيار موضوعاني . وحتى اذا لم يتم التوصل الى تركيب حقيقي للدوافع الغريزية الجزئية تحت زعامة الاعضاء التناسلية ، في أوج نمو الجنسية الطفلية ، فإن الاهتمام بالاعضاء التناسلية والنشاط الجنسي يكتسبان مع ذلك اهمية غالبة لا تكاد تقل عن تلك التي يتلبسانها في سن النضوج . والطابع الرئيسي لهذا « **التنظيم التناسلي الطفلي** » هو

(١) الصفحة ٧٢ من الطبعة العربية الصادرة عن دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١ . « م » .

في الوقت نفسه ما يميزه عن التنظيم التناسلي النهائي عند الراشد . وهو يتمثل في أن **عضواً تناسلياً واحداً** ، هو عضو الذكورة ، يضطلع بالنسبة الى الجنسين كليهما بدور . وعلى هذا ،لا وجود لزعامة تناسلية، وانما هناك فقط زعامة للقضيب phallus.

من دواعي الاسف اننا لا نستطيع أن نصف هذه الوضعية إلا لدى الطفل الذكر : فالمعرفة بالسيرورات المناظرة لدى البنت الصغيرة ليست بالمتاحة لنا . ان الصبي الصغير يفطن بكل تاكيد الى الفارق بين الرجال والنساء ، ولكنه لا تتاح له في بادىء الامر الفرصة ليربط بينه وبين اختلاف في اعضائهم التناسلية . فطبيعي بالنسبة إليه أن يفترض لدى جميع الكائنات الحية الاخرى ، أبشرية كانت أم حيوانية ، وجود عضو تناسلي مشابه لذاك الذي يملكه هو نفسه ، بل اننا نعلم انه يبحث في الاشياء الجامدة ايضاً عن شيء يضاهي عضوه[2] . فهذا الجزء من الجسم الذي تسهل إثارته ، ويتغير حجمه ، والذي هو ثر للغاية بالاحاسيس ، يشغل الى اقصى درجة اهتمام الطفل ويعين باستمرار مهام جديدة لغريزة التقصي والتنقيب عنده . وقد يرغب في أن يراه لدى أشخاص آخرين ايضاً كيما يقارن بينه وبين عضوه الخاص به ، ثم انه يتصرف كما لو ان لديه فكرة مبهمة عن واقع ان هذا العضو قابل ومفروض فيه ان يكون اكبر . والقوة المحركة التي سيبين عنها هذا الجزء من الجسم في زمن لاحق ، عند البلوغ ، تتجلى منذ ذلك العهد بصورة أساسية على انها حاجة ملحة الى التقصي والتنقيب، على انها حب استطلاع جنسي . وان العديد من افعال الاستعراء

(٢) إنه لمن اللافت للانتباه على كل حال أن نلاحظ مدى قلة ما يلقاه من اهتمام لدى الطفل الجزء الآخر من العضو التناسلي المذكر ، اي الخصيتان ومحتواهما . وبحسب ما تستدل من التحاليل فإنه ليس في مقدور الطفل ان يحدس بأن شيئاً آخر غير القضيب يؤلف ايضاً جزءاً من العضو التناسلي .

والعدوان التي يقترفها الطفل ، والتي لو ارتكبها في سن اكبر لاعتُبرت بلا تردد مظهراً من مظاهر الشبق والفسق ، لا تعدو أن تكون في نظر التحليل تجارب في خدمة الاستطلاع الجنسي .

في اثناء هذه التقصيات يتوصل الطفل الى اكتشاف ان القضيب ليس ملكاً مشتركاً بين جميع الكائنات المشابهة له . وفرصة ذلك تتاح له متى ما وقع نظره عرضاً على الاعضاء التناسلية لشقيقة صغيرة أو لرفيقة له في اللعب ؛ وحتى قبل هذا الاكتشاف ، فإن فطنة الاذكياء من صغار الصبيان الى ما يحدث في اثناء تبول البنات - فهم يلحظون وضعية مغايرة ويسمعون صوتاً مختلفاً - تولِّد لديهم شبهة بوجود شيء مختلف ؛ وعندئذ يحاولون ان يكرروا ملاحظاتهم في شروط قمينة بأن تأتيهم بتوضيح . ومعروف لدينا رد فعلهم على الانطباعات الاولى الناشئة عن معاينتهم لفقدان القضيب . فهم ينكرون هذا النقص ويتهيأ لهم انهم يرون بالرغم من كل شيء عضواً ؛ أي انهم يسدلون ستاراً يحجب التناقض بين المشاهدة والحكم المسبق ، بافتراضهم ان ذلك العضو ما يزال صغيراً وانه سيكبر عما قريب ، وينتهون على مهل الى الاستنتاج التالي ذي الاهمية الوجدانية الكبرى : لقد كان موجوداً على كل حال من قبل ، ثم جرى بعد ذلك استئصاله . أي ان فقدان القضيب يُفهم على أنه نتيجة خصاء ، ومن ثم يجد الطفل نفسه في وضع يتعين عليه معه ان يواجه علاقة الخصاء بشخصه بالذات . والتطورات اللاحقة معروفة الى حد يغني عن ضرورة التذكير بها هنا . والاطروحة الوحيدة التي سنتقدم بها هي **انه من المتعذر تقدير اهمية دلالة عقدة الخصاء تقييماً صحيحاً ما لم يؤخذ في الحسبان ظهورها في طور زعامة القضيب**[3] phallus.

(٣) لقد لوحظ بصواب ان الطفل يكوِّن فكرة عن التأذي النرجسي من جراء الخسارة -

ونحن نعرف ايضاً ما يترتب على هذا الاقتناع النهائي بانعدام وجود القضيب لدى المرأة من انتقاص لقدر المرأة ، ومن اشمئزاز من المرأة ، ومن نزوع الى الجنسية المثلية . وقد ارجع فيرنزي مؤخراً ، وبحق، الرمز الميتولوجي للقبح المقزز ، راس ميدوزا[4] ، الى الانطباع المتخلف عن العضو التناسلي المؤنث المجرد من القضيب[5] .

على أنه ليس لنا ان نتصور أن لدى الطفل استعداداً للتعميم السريع للملاحظة التي ابانت له ان بعض افراد الجنس المؤنث لا يملكون قضيباً : فحسبه رادعاً له عن ذلك الفرض الذي يصور له أن غياب القضيب هو نتيجة الخصاء كعقاب . وبدلاً من أن يعمد الطفل الى التعميم ، يرسخ في اعتقاده ان بعض الافراد الازرياء من الجنس المؤنث هم وحدهم الذين دفعوا غرامة العضو التناسلي ، وهم في ارجح الظن أشخاص قارفوا الذنب مثله بما يجيش في نفوسهم من رغبات آثمة .اما المحترمات من النساء ، من امثال امه ، فيحتفظن لاجل طويل بالقضيب.وعلى هذا ، فان يكون الشخص امرأة لا يتطابق بعد في نظر الطفل مع واقع فقدان القضيب[6] . وفي وقت لاحق ، وحين

الجسمانية بدءاً من فقدان ثدي الام بعد الرضاع ، وبدءاً كذلك من الإخراج اليومي للبراز ، بل بدءاً من الميلاد بنتيجة الانفصال عن جسم الأم . غير انه لا يجوز لنا الكلام عن عقدة خصاء إلا بدءاً من اللحظة التي يرتبط فيها تصور الخسارة هذه بالعضو التناسلي الذكر.

(٤) ميدوزا : مسخ مؤنث ميتولوجي ، كان رأسها مضفوراً بالثعابين ، وقد احتزه برسيوس وقدمه للإلهة اثينا . - م -

(٥) في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** ، السنة ٩ ، ١٩٢٣ ، الدفتر ١ . وبودي ان اضيف أن المقصود في الاسطورة هو العضو التناسلي للأم . واثينا ، التي تحمل راس ميدوزا على درعها ، هي بالتالي المرأة التي لا يمكن الاقتراب منها ، المرأة التي يخنق مرآها كل تفكير بالتقرب الجنسي منها .

(٦) لقد تبين لي من تحليل امرأة صبية كانت بلا أب ، ولكن كانت لها خالات كثيرات ، -

يتصدى الطفل لمعضلتي أصل الاطفال وميلادهم ، وحين يحدس بأن النساء هن وحدهن القادرات على الانجاب ، فعندئذ فقط تتجرد الام هي الاخرى من القضيب . وقد تشاد احياناً نظريات بالغة التعقيد لتفسير مقايضة القضيب بطفل . وفي هذا كله يبدو العضو التناسلي المؤنث وكأنه بمنأى دائم عن الاكتشاف . وكما نعلم ، فإن الطفل يعيش في بطن (معي) الام ويتم إنجابه عن طريق فتحة المعي . وهاتان النظريتان الاخيرتان تتأديان بنا الى ما بعد المرحلة الجنسية الطفلية .

وليس امراً عديم الاهمية أن نتصور في أذهاننا التحولات التي تطرأ على القطبية الجنسية المألوفة لدينا في أثناء النمو الجنسي الطفلي . فالتضاد الأول يظهر مع الاختيار الموضوعاني الذي يفترض بالفعل ذاتاً وموضوعاً . ففي طور التنظيم القبتناسلي الشرجي ـ السادي لا يكون ثمة وجود لمذكر ومؤنث ، وانما التعارض المهيمن هو التعارض بين **الايجابي والسلبي**[٧] . وفي الطور التالي ، طور التنظيم التناسلي الطفلي ، يكون ثمة وجود **للمذكر** ولكن بدون ان يكون ثمة وجود للمؤنث ؛ فالمقابلة التي تقوم في هذا الطور هي : **عضو تناسلي مذكر أو مخصي** وانما عندما يكتمل النمو في زمن البلوغ ، تتطابق القطبية الجنسية مع **المذكر و المؤنث** . فالمذكر يجمع بين الذات والايجابية وامتلاك القضيب ، والمؤنث يديم الموضوع والسلبية . وعندئذ يتحلى المهبل بقيمته كمأوى للقضيب ، وتؤول إليه وراثة ثدي الأم .

= انها ظلت سادرة الى طور متأخر من مرحلة الكمون في الركون الى قضيب امها وبعض خالاتها . وكانت تعتبر خالة لها بلهاء بحكم المخصية ، وهذا هو بالضبط الشعور الذي كان يساورها إزاء نفسها

(٧) انظر ثلاثة مباحث في نظرية الجنس ، الطبعة الخامسة ، المؤلفات الكاملة ، م٥ ، ص ٦٢ (الطبعة العربية ، ص ٧٢ ـ م ٥ ـ) .

الفصل الثامن

افول عقدة اوديب

(١٩٢٣)

تكشف عقدة اوديب اكثر فاكثر عن اهميتها كظاهرة مركزية للمرحلة الجنسية في الطفولة الاولى . ولا تلبث بعد ذلك ان تأفل ؛ فتترزح تحت نير الكبت كما نقول ويعقبها طور الكمون . ولكننا لا ندري بعد بوضوح ما السبب في زوالها : وتفيدنا التحاليل فيما يبدو بأن زوالها يأتي نتيجة لمعاناة خيبات مؤلمة . فالبنت الصغيرة التي تريد أن ترى الى نفسها على انها تلك التي يحبها أبوها اكثر من سواها تخضع لا محالة ذات يوم او آخر لعقاب قاس من قبل الأب ، فاذا بها تصبح وكأنها طريدة الفردوس . والصبي الذي يعتبر أمه ملكا له يتحقق بالتجربة من أنها تشيح عنه بحبها وعنايتها لتقفهما على قادم جديد . ويعمّق التفكير من أهمية هذه التأثيرات إذ يشدد على ان تجارب مؤلمة كهذه معاكسة لمضمون العقدة انما هي أمر محتوم . وحتى عندما لا تطرأ خبرات كتلك التي أشرنا اليها على سبيل الأمثلة ، فان غياب الاشباع المأمول والاحباط المتواصل لرغبات الطفل يقودان العاشق الصغير لا محالة الى الاقلاع عن نوازعه المقطوع منها الرجاء . وعلى هذا ، يجوز القول بأن عقدة اوديب تأفل نتيجة لفشلها ولاستحالتها الداخلية .

وقد يجوز ايضا ان نفترض أن عقدة اوديب محتم عليها السقوط لان اوان زوالها قد آن مثلما تسقط الاسنان اللبنية متى ما نبتت الاسنان النهائية . وحتى اذا كانت الغالبية الكبرى من بني البشر تعيش عقدة اوديب فرديا ، فان هذه العقدة تبقى على كل حال ظاهرة متعينة بالوراثة ، قائمة على أساسها ، ولا مناص لها من التلاشي وفقا للبرنامج متى ما بدأت مرحلة النمو المسبق التعيين التي لا بد ان تعقبها . وسيان في مثل هذه الحال ان حدث ذلك في هذه المناسبة او تلك : بل سيان ايضا ان تعذر اكتشاف المناسبة التي حدث فيها .

وليس لنا ان نماري في ان هذين التصورين لهما كليهما مبرراتهما . بل انهما يتوافقان واحدهما مع الآخر : فثمة مجال للتصور المتصل بنشوء الفرد ليحتل مكانه الى جانب التصور المتصل بنشوء النوع وذي الآفاق الاوسع مدى . فالفرد برمته مقيض له ، منذ ولادته ، ان يموت ، وربما كانت جبلّته العضوية تنطوي من الاساس على إشارة الى ما سيموت به . على انه يبقى من المفيد ان نتتبع الكيفية التي يجري بها تنفيذ هذا البرنامج الفطري ، والطريقة التي تستفيد بها ضربات القدر من الاستعداد الجبلّي .

لقد أتيح لنا مؤخرا ان نكتسب المزيد من المقدرة على ادراك واقع ان النمو الجنسي للطفل يتقدم وصولا الى مرحلة ينتقل فيها الدور القيادي الى العضو التناسلي . غير ان هذا العضو التناسلي هو فقط العضو المذكر ، وبمزيد من الدقة القضيب ، بينما يبقى العضو المؤنث بمنأى عن الاكتشاف بعد . هذه المرحلة القضيبية ، التي هي في الوقت نفسه مرحلة عقدة اوديب ، لا تواصل تطورها وصولا الى التنظيم التناسلي النهائي ، بل يطويها زمن الكمون في جوفه وينوب منابها ، بيد أن زوالها يتم بطريقة نمطية وبالاستناد الى أحداث وخبرات تترجع بانتظام .

حين يحوّل الطفل (الذكر) اهتمامه الى عضوه التناسلي ، فانه يشي باهتمامه هذا بملاعبته عضوه بسخاء ، ثم لا يلبث ان يتحقق بالتجربة من أن الكبار لا يوافقونه على سلوكه هذا . وسرعان ما يرتسم في الافق تهديد متفاوت في وضوحه وفجاجته : فهذا الجزء من جسمه الذي يعلق عليه اعظم الاهمية سيُسلب منه . ويصدر هذا التهديد بالخصاء في اكثر الاحيان عن النساء : إذ يغلب ان يسعين الى تعزيز سلطتهن بالاستعانة بالأب أو بالطبيب الذي سيتولى ، كما يجزمن ، تنفيذ العقوبة . وفي عدد معين من الحالات تلطف النساء انفسهن رمزيا من حدة التهديد ، باعلانهن ان المقصود ليس بتر العضو التناسلي ، الذي هو في الحقيقة سالب ، وانما بتر اليد التي تقارف الذنب ايجابيا . وكثيرا ما يتعرض الصبي الصغير للتهديد بالخصاء لا لأنه يلاعب قضيبه بيده ، وانما لأنه يبلل في كل ليلة فراشه ولأن أهله يعجزون عن حمله على أن « ينظف » . ويتصرف الاشخاص الذين يتعهدونه بالعناية كما لو أن سلس البول الليلي هذا هو عاقبة لافراطه في ملاعبته قضيبه ودليل عليها ، وهم بوجه الاحتمال محقون في ذلك . ومهما يكن من أمر ، فان دوام عادة تبليل الطفل فراشه حقيق بأن يُربط باحتلام الراشد كتعبير عن التهيج التناسلي عينه الذي كان حدا بالطفل عهدئذ الى الاستمناء .

اننا نؤكد على هذا الاساس ان التنظيم التناسلي القضيبي عند الطفل ينحل على إثر ذلك التهديد بالخصاء . على انه لا يضمحل للحال ، وبدون ان يقترن ذلك التهديد بمؤثرات اخرى . فالطفل لا يصدق التهديد في بادىء الامر ولا ينصاع له على الاطلاق . وقد أضفى التحليل النفسي قيمة جديدة على نوعين من الخبرات لا بد ان يمر بهما كل طفل ومن شأنهما أن تهيئاه لخسارة أجزاء مثمنة عالي التثمين من جسمه : أعني بهما سحب ثدي الأم بصورة مؤقتة في البدء ثم ذات

يوم بصورة نهائية ، والانفصال المطلوب يوميا لمحتوى المعي . لكن لا شيء يبيح لنا الجزم بأن هاتين الخبرتين يسري مفعولهما بالتواقت مع التهديد بالخصاء . فالطفل لا يبدأ يحسب حسابا لاحتمال الخصاء إلا بعد أن يمر بخبرة جديدة ، ولكنه يبقى هذه المرة ايضا مترددا ، على مضض من أمره ، جاهدا الى التخفيف من أهمية مشاهدته الخاصة .

ان المشاهدة التي تنتهي الى تحطيم حاجز عدم التصديق لدى الطفل هي مشاهدة العضو التناسلي المؤنث . إذ يأتي يوم يقع فيه نظر الطفل ، المعتز بامتلاكه قضيباً ، على المنطقة التناسلية لبنت صغيرة ، فيجد نفسه مكرهاً بالتالي على الاقتناع بفقدان القضيب لدى كائن مشابه له الى أقصى حدود الشبه . ومن ثم يغدو فقدان عضوه هو نفسه أمراً يمكن تصوره هو الآخر ، وبذلك يكون التهديد بالخصاء قد آتى مفعوله آجلاً .

لا يجوز أن يصل بنا ضيق الافق الى الحد الذي يصل إليه لدى الاشخاص الذين يتوعدون الطفل ، وقد اوكل اليهم أمر العناية به ، بالخصاء ، كما لا يجوز ان يغيب عنا ان حياة الطفل الجنسية في تلك السن لا يستغرقها على الاطلاق الاستمناء . فبوسعنا ان نقيم البرهان على أن قوام هذه الحياة الجنسية هو الموقف الاوديبي حيال الوالدين ، وان الاستمناء إن هو إلا تفريغ تناسلي للتهيج الجنسي المتصل بهذه العقدة وأنه يدين لهذه العلاقة بالاهمية التي سيتلبسها في الاطوار اللاحقة من العمر . ان عقدة اوديب تتيح للطفل امكانيتين للاشباع ، واحدة ايجابية والاخرى سلبية . فبوسعه ، وفق النمط المذكر ، أن يضع نفسه موضع الأب وان يتطلع الى ان يعاشر على منواله الأم ، وفي هذه الحال يصير يستشعر الأب وكأنه عقبة ، او قد يتطلع الى أن يحل محل الام وأن يستأثر بحب الأب ، وفي هذه الحال تغدو الأم فائضة

عن الحاجة . أما ما كنه المعاشرة الحبية التي تحمل بين طياتها الاشباع ، فإن الطفل لا يستطيع ان يكوّن لنفسه عنها إلا تصورات شديدة الإبهام ؛ على ان الشيء الاكيد هو ان القضيب يلعب دوراً على نحو ما تنم عنه احاسيسه المتصلة بهذا العضو . ولا تكون الفرصة قد سنحت بعد للطفل للشك في عدم وجود القضيب لدى المرأة . وقبول امكانية الخصاء ، قبول فكرة ان المرأة مخصية ، يضع حداً عندئذ لإمكانيتي الإشباع في إطار عقدة اوديب . فالامكانيتان كلتاهما تنطويان على خسران القضيب : الاولى ، أي المذكرة ، كنتيجة للعقاب ؛ والثانية ، أي المؤنثة ، كافتراض ومسلمة . وان يكن الإشباع الحبي ، على أرضية عقدة اوديب ، يتكلف لا محالة القضيب ، فعندئذ ينشب بصورة محتمة ايضاً صراع بين الاهتمام النرجسي بذلك الجزء من الجسم وبين التوظيف الليبيدوي للمواضيع الوالدية . وفي هذا الصراع تكون الغلبة في العادة لأولى هاتين القوتين ؛ فيشيح انا الطفل من ثم عن عقدة اوديب .

لقد شرحت في نص آخر بالتفصيل كيف يتم ذلك . فالتوظيفات الموضوعانية تهمل وتستبدل بعملية تماهٍ . وسلطة الأب او الاهل يستبطنها الانا ، فتؤلف فيه نواة الانا الاعلى الذي يستعير من الأب الصرامة ويديم حظره للعلاقة المحرمية ، وعلى هذا النحو يؤمّن الانا ضد خطر عودة التوظيف الليبيدوي للموضوع . اما النوازع الليبيدوية المتصلة بعقدة اوديب فتُجرَّد جزئياً من صفتها الجنسية وتُصعَّد ـ وهذا ما يحدث بوجه الاحتمال لدى كل تحول الى تماهٍ ـ وتُكف جزئياً من حيث الهدف وتُبدَّل الى حاجات حنو ومحبة . وهذه السيرورة بمجملها تنقذ ، من ناحية اولى ، العضو التناسلي ، وتدفع عنه خطر خسرانه ، ومن ناحية ثانية تشله وتعطل اشتغاله . ومع هذه السيرورة يبدأ زمن الكمون الذي يعطل النمو الجنسي للطفل .

لست ارى من داعٍ على الاطلاق لإنكار اسم « الكبت » على واقعة انصراف الانا عن عقدة اوديب ، على الرغم من أن كبوتات لاحقة تحدث في اغلب الاحيان بمساعدة من الانا الاعلى الذي يكون لا يزال في تلك المرحلة قيد التكوين . غير ان السيرورة التي وصفناها هي اكثر من مجرد كبت ، إن هي تكافىء ، اذا ما جرت الاشياء بصورة مثلى ، تدميراً للعقدة وتصفية لها . واننا لنميل الى الافتراض بأننا نواجه هنا خط الحدود الفاصل ، الذي لا يتم تخطيه ابداً بصورة تامة ، بين السوي والمرضي . فإن لم يتوصل الانا فعلاً الى ما هو اكثر بكثير من مجرد كبت للعقدة ، فإن هذه الاخيرة تبقى مقيمة في هذه الحال بصفة لاشعورية في الهذا ، وسوف يظهر في وقت لاحق مفعولها الإمراضي .

تتيح لنا الملاحظة التحليلية ان نعرف أو نحدس بارتباطات كهذه بين التنظيم القضيبي ، وعقدة اوديب ، والتهديد بالخصاء ، وتكوين الانا الاعلى ، ومرحلة الكمون . وتبرر هذه الارتباطات الاطروحة التي مؤداها ان عقدة اوديب تضمحل من جراء التهديد بالخصاء . غير ان المشكلة لا تكون قد سوِّيت بنتيجة ذلك ؛ فثمة مجال بعد لتأمل نظري يقلب النتيجة المتحصلة او يسلط عليها ضوءاً جديداً . لكن قبل أن نمضي في هذا الطريق يتعين علينا ان نلتفت الى مسألة كنا أثرناها في معرض مناقشاتنا السابقة ثم نحيناها جنباً . ذلك ان السيرورة التي وصفناها تتصل فقط ، كما اكدنا ذلك بصريح العبارة ، بالطفل الذكر . فكيف يتم نظير هذا التطور لدى البنت الصغيرة ؟

هنا تغدو معطياتنا ـ على نحو لا سبيل الى فهمه ـ أشد إبهاماً واكثر امتلاء بالثغرات بكثير . فالجنس المؤنث يعرف هو ايضاً عقدة اوديب ، وأنا أعلى ، وزمن كمون . فهل بوسعنا ان نعزو اليه ايضاً تنظيماً قضيبياً وعقدة خصاء ؟ ان الجواب لبالايجاب ، ولكن من غير

الممكن أن يكون الشيء هنا مماثلاً لما هو عند الصبي . والمطالبة النسوية بمساواة في الحقوق بين الجنسين لا يعتد بها هنا ، إذ لا مناص من ان يتظاهر الفارق المورفولوجي في فوارق في النمو النفسي . ونعدِّل هنا قولة نابليون فنقول : التشريح هو القدر[1] . فبظر البنت يسلك في بادىء الأمر مسلك القضيب تماماً ، ولكن الطفلة إذ تقارن بينه وبين رفيق ذكر لها في اللعب يتضح لها انه « قصير بعض الشيء » ، وتستشعر من جراء ذلك غبناً وسبباً للدونية . وتؤاسي نفسها لأجل آخر من الزمن بالتعلل بالأمل في الحصول في طور لاحق ، حينما تكبر ، على استطالة تضاهي في الكبر استطالة الصبي . وهنا تكمن نقطة تمفصل عقدة الذكورة لدى المراة . فالطفلة لا تفطن الى ان فقدانها الحالي للقضيب هو خاصية جنسية ، بل تفسره بافتراضها أنه كان لها فيما مضى عضو كبير هو الآخر وأنها فقدته بالخصاء . ولا يبدو عليها انها تسحب هذا الاستنتاج على إناث أُخر ، على نساء راشدات ، بل تفترض بالاحرى أن لهؤلاء عضواً تناسلياً كاملاً كبيراً ، بمعنى يتساوق تماماً مع المرحلة القضيبية ، وبكلمة واحدة : عضواً مذكراً . وهذا ما يترتب عليه الفارق الأساسي التالي : ان البنت تقبل بالخصاء باعتباره واقعة تمت في الماضي ، على حين أن ما يتسبب في خوف الصبي هو احتمال وقوعها مستقبلاً .

وباستبعاد قلق الخصاء يتعطل ايضاً دافع قوي الى بناء الانا الاعلى والى تهديم التنظيم التناسلي الطفلي . فهذان التحولان يبدوان لدى البنت اكثر مما لدى الصبي بكثير نتيجة للتربية وللترهيب الخارجي الذي يتهددها بألا تعود محبوبة . وعقدة اوديب لدى البنت احادية المعنى اكثر بكثير من عقدة الحامل الصغير للقضيب . وبحسب

(١) كان نابليون قد قال : الطبع هو القدر . « م » .

خبرتي ، فإنها نادراً ما تتعدى الحلول محل الأم ووقوف موقف أنثوي من الأب . ولا تتحمل البنت فقدان القضيب بدون محاولة للتعويض . فهي تتزلق ـ كان ينبغي ان نقول : على طول معادلة رمزية ـ من القضيب الى الطفل ، وتبلغ عقدتها الاوديبية ذروتها في رغبتها ـ التي طالما اعتقلتها ـ في ان تتلقى من الأب طفلاً على سبيل الهدية ، في ان تنجب له طفلاً . ويساورنا الانطباع بأن عقدة اوديب تُهجر عندئذ على مهل لأن هذه الرغبة لا تتحقق أبداً . وتبقى الرغبتان المشرَبتان الى امتلاك قضيب وامتلاك طفل موظفتين بقوة في اللاشعور وتساعدان على إعداد الكائن الأنثوي برسم دوره الجنسي المقبل.والمساهمة الضئيلة للمقوّم السادي في الغريزة الجنسية ـ وهذا أمر نستطيع الربط بينه وبين الضمور القضيبي ـ تسهِّل تحول الميول الجنسية المباشرة الى ميول حنو ومحبة مكفوفة من حيث الهدف . ولكن يتعين علينا بالإجمال ان نقر بأن فهمنا لسيرورات النمو لدى البنت لا يبعث على الرضى ، وأنه كثير الفجوات والنقاط المعتمة .

انني لا اشك في ان العلاقات الزمنية والسببية التي نصفها هنا بين عقدة اوديب والترهيب الجنسي (التهديد بالخصاء) وتكوين الانا الاعلى ومجيء زمن الكمون هي من نوع نمطي ؛ لكني لا اريد ان اجزم بأن هذا النمط هو الوحيد الممكن . وأي تغيرات في التسلسل الزمني وفي ترابط هذه السيروات لا بد ان تترتب عليه نتائج خطيرة بالنسبة الى تطور الفرد .

ومنذ ان نشر أ . رانك دراسته المثيرة للاهتمام حول رضة الميلاد ، صار لا يسعنا القبول بلا نقاش بنتيجة هذا البحث المقتضب ، وهي أن عقدة اوديب عند الصبي تتلاشى من جراء خوف الخصاء . لكن يبدو لي انه من السابق لأوانه الدخول الآن في هذا النقاش ، وأنه ربما كان من غير المناسب الشروع هنا بنقد تصور رانك أو كيل الثناء له .

الفصل التاسع

بعض النتائج النفسية للفارق التشريحي بين الجنسين (١٩٢٥)

ان مباحثي ومباحث تلاميذي تزعم بصورة جازمة اكثر فاكثر ان تحليل المعصوبين لا بد ان ينفذ حتى الى الحقبة الاولى من الطفولة ، أي الى عهد التفتح المبكر للحياة الجنسية . وانما متى ما تقصينا التظاهرات الأولى للجبلّة الغريزية الفطرية وآثار انطباعات الخبرات الحياتية الابكر عهداً تأتّى لنا ان نتعرف بدقة القوى الغريزية للأعصبة اللاحقة وندرأ عنا الاخطاء التي قد تسوقنا الى الوقوع فيها التشكلات الجديدة لمرحلة التضوج وتراكباتها . ومدّعانا هذا لا ينطوي على دلالة نظرية فحسب ، بل على دلالة عملية ايضاً لأنه يميز جهودنا عن عمل اولئك الاطباء الذين لا يستخدمون إلا بمقدار معلوم الطرائق التحليلية بالنظر الى أن توجههم الوحيد هو توجه علاجي . وان تحليلاً كهذا للطفولة الاولى يستغرق امداً طويلاً ويقتضي جهوداً شاقة ، وما يستلزمه من الطبيب والمريض معاً ليس مما يتحقق على الدوام عملياً . ثم إنه يفضي الى نقاط معتمة تعوزنا على الدوام لاجتيازها لافتات إرشادية . وإنني لاعتقد اعتقاداً جازماً انه يوسعنا ان نطمئن المحللين الى انهم لن يجدوا أنفسهم ، خلال العقد القادم ايضاً ، عرضة لخطر تحول عملهم العلمي الى عمل ميكانيكي ، مما هو قمين بأن يفقده طابعه

المتع .

في الصفحات التالية سأقدم بياناً بواحدة من النتائج التي انتهى اليها البحث التحليلي ، وهي نتيجة ستكون لها أهميتها قصوى إذا ما ثبت انها قابلة لتطبيق عام . فلماذا لم أؤخر نشرها الى أن تمدني خبرات ثرة بالبرهان عليها ، هذا ان كان ثمة برهان ؟ لأن شروط عملي طرا عليها تبدل لا أستطيع المماراة في نتائجه . فقد مر حين من الزمن لم اكن فيه من اولئك الناس الذين لا يستطيعون أن يحتفظوا في سرهم بما يفترضون أنه طرفة جديدة ، الى ان تظفر بتوكيد او تبرير . فقد احتجزت **تفسير الاحلام ونبذة من تحليل حالة هستيريا** (حالة دورا) ، ان لم يكن تسع سنوات بحسب وصفة هوراسيوس[1] ، فعلى أي حال اربع سنوات او خمس سنوات ، قبل ان اسلمها الى الناشر . ولكن الزمن كان يمتد امامي آنئذ على مدى النظر ـ **اوقيانوس من الزمن**[2] على حد تعبير شاعر لطيف ـ وكانت المادة تتدفق علي ثرة الى حد كان يشق علي معه أن أرد عني إغراء التجارب العملية . وكنت ايضاً الباحث الوحيد في ميدان جديد ، ولم يكن تحفظي ينطوي على أي خطر بالنسبة إلي ، كما لم يكن يلحق بالآخرين أي ضرر .

اما اليوم فالامر مختلف الاختلاف كله . فالزمن امامي محدود ؛ وما عدت استنفده كله في العمل ؛ وما عادت تسنح لي مثل تلك الفرص الواسعة للقيام بتجارب جديدة . وحينما يتراءى لي أني وقعت على شيء جديد ، أجدني غير متيقن كما من قبل من أنه سيكون في وسعي ان انتظر ثبوت صحته . ثم إن كل ما هو على السطح قد تم احتلابه ، وما

(١) كوانتوس هوراسيوس فلاقوس : شاعر لاتيني (٦٥ ـ ٨ق.م) ، حبا الآداب الرومانية بنتاج متكامل ،قومي وديني معاً ، ومن القواعد التي سنها في مطولته فن الشعر وجوب تمثل الشاعر لقصيدته على مدى اعوام تسعة قبل أن يصدرها للناس . م . .

(٢) بالانكليزية في النص : OCEANS OF TIME . م . .

تبقى لا بد من ان يُغترف من الاعماق أياً ما كان الثمن . وأخيراً ، انني ما عدت وحيداً مفرداً ، فثمة فريق كثير التعداد من المعاونين المخلصين يقف على أهبة الاستعداد لاستثمار ما هو غير مكتمل ناجز ، وما هو غير محقق ثابت ، وبوسعي أن أتخلى لهم عن جانب من العمل الذي لم يكن امامي مناص في الماضي من أن أتولاه كله بنفسي . وهكذا أشعر انه من المباح لي أن أقدّم هذه المرة بياناً بما يقتضي مراقبة عاجلة قبل إثبات صحته أو الطعن فيها .

يوم درسنا التشكلات النفسية الاولى للحياة الجنسية لدى الطفل ، كان الموضوع الذي اعتمدناه على الدوام هو الطفل من الجنس المذكر ، أي الصبي الصغير . وكنا نعتقد أن الأمر لا بد ان يصدق على البنات الصغيرات ، وان بطريقة مختلفة الى حد ما . ولم يكن في مستطاعنا آنئذ ان نتبين بوضوح اين يتكشف هذا الفارق في مجرى النمو .

ان موقف عقدة اوديب هو أول موقف نتعرفه على وجه اليقين لدى الصبي . ومن السهل علينا ان نفهمه لان الطفل يبقى متشبثاً بذلك الموضوع الذي سبق له أن وظف فيه في الطور السابق ، حين كان رضيعاً وطفلاً صغيراً ، ليبيدواه الذي لم يكن قد صار بعد تناسلياً . ثم ان وقوع الاب من نفسه موقع الغريم المزعج ، الذي يطيب له لو انه ينحيه ويود لو أنه ينوب منابه ، واقعة تحتمها بيسر وسهولة ظروف عينية . وقد شرحت في غير هذا المكان[3] ان الموقف الاوديبي للصبي الصغير ينتمي الى المرحلة القضيبية ويضمحل بفعل الخوف من الخصاء ، اي بفعل الاهتمام النرجسي بالعضو التناسلي . بيد ان فهم الموقف يغدو أشد عسراً من جراء تعقيد معين : وآية ذلك ان عقدة

(٣) **افول عقدة اوديب** (انظر ص ١٦٥ من هذا الكتاب . م .) .

اوديب نفسها تكون لدى الصبي مزدوجة التوجه، ايجابياً وسلبياً ، وهو ما يتناظر مع جبلته الجنسية الثنائية . فالصبي يرغب ايضاً في ان ينوب مناب الام كموضوع حبي للأب ، وهذا ما نحدده بانه موقف أنثوي .

ان ما قبل تاريخ عقدة اوديب لن يتضح لنا، لردح طويل من الزمن بعد ، بجلاء كامل . فنحن نعلم انه يتضمن تماهياً من طبيعة حانية مع الاب ، تماهياً ليس له بعد معنى التنافس على الام . ومن العناصر الاخرى في ما قبل التاريخ هذا النشاط الاستمنائي على مستوى الاعضاء التناسلية ، وهو في رايي نشاط لا ينعدم وجوده ابداً : ومن شأن القمع المتفاوت القوة لاونانية الطفولة الاولى هذه من قبل الاشخاص الذين يتولون العناية بالطفل ان يحرك عقدة الخصاء . واننا لنسلم بان هذه الاونانية منوطة بعقدة اوديب ومعناها تفريغ التهيج الجنسي . فهل تقوم هذه العلاقة من البداية أم ان الاستمناء يظهر بالاحرى عفوياً كنشاط عضواني ولا يرتبط إلا في وقت لاحق فحسب بعقدة اوديب ؟ الحق ان المسألة تبقى معلقة ، غير ان الاحتمال الاخير يبقى الى حد بعيد هو الارجح كفة . ومن الإشكالات الاخرى بعد دور سلس البول وزوال هذه العادة بفعل تدخل التربية . واننا لنميل الى الاخذ بالتركيب البسيط التالي : ان سلس البول المستديم هو نتيجة الاونانية ، وقمعه يعني عند الطفل كفاً لتناسليته ، أي أنه عنده بمثابة تهديد بالخصاء . لكن ما من شيء يبيح لنا الجزم بأننا محقون في ذلك . واخيراً ، يتيح لنا التحليل ان نتبين على نحو مبهم أن واقعة مراقبة الجماع بين الوالدين ، في الطفولة الصغرى ، قد ينشأ عنها التهيج الجنسي الأول وقد تصبح ، بفعل تأثيراتها الآجلة ، نقطة انطلاق للنمو الجنسي بجملته . وترتبط الاونانية لاحقاً ، مثلها مثل موقفي العقدة الاوديبية ، بذلك الانطباع الذي يقوم الطفل فيما بعد بتأويله .

بيد أنه لا يسعنا الافتراض بأن مثل هذه المشاهدات للجماع هي خبرة مطردة ، ومن ثم نصطدم هنا بمشكلة «التخييلات الابتدائية» . وهكذا ينطوي ما قبل تاريخ عقدة اوديب لدى الصبي على جوانب كثيرة غير مفسرة تنتظر من يدرسها ويبت في ما اذا كان من الواجب الافتراض بأن مسارها هو على الدوام متماثل أم في ما اذا كانت أطوار قبلية بالغة الاختلاف تفضي الى نقطة تلاقي الموقف النهائي نفسه .

اما عقدة اوديب عند البنت الصغيرة فتنطوي على مشكلة اضافية اخرى بالقياس الى عقدة الصبي . ففي البداية تكون الأم ، للصبي كما للبنت ، الموضوع الاول ، وليس لنا أن نعجب ان وجدنا الصبي يحتفظ بها برسم عقدته الاوديبية . لكن ما الذي يحمل البنت الصغيرة على العزوف عنها وعلى اتخاذ الأب موضوعاً لها ؟ لقد تسنى لي ، وأنا أدرس هذه المسألة ، ان اتثبت من بعض الوقائع التي من شأنها ، تحديداً ، ان تلقي ضوءاً على ما قبل تاريخ العلاقة الاوديبية لدى البنت الصغيرة .

ان كل محلل يعرف اولئك النساء اللائي يتشبثن بقوة وعناد بالغين برابطتهن بأبيهن ، وبرغبتهن ، التي هي ذروة هذه الرابطة ، في إنجاب طفل من أبيهن . ولدينا من الاسباب الوجيهة ما يحملنا على الافتراض بأن هذا التخييل الرغبي هو ايضاً القوة الحافزة لاونانيتهن الطفلية ،ويراودنا بسهولة انطباع بأن ما نواجهه هنا هو واقع ابتدائي في الحياة الجنسية ، لا سبيل الى المضي الى ابعد من ذلك في تحليله .

بيد ان التحليل الدقيق لهذه الحالات عينها يزيح النقاب عن شيء آخر : إذ يظهر ان عقدة أوديب لها هنا ما قبل تاريخ طويل ، وأنها بنوع ما تشكيل ثانوي .

وبحسب ملاحظة أبداها طبيب الاطفال لندنر[٤] LINDNER ، فإن الطفل يكتشف في اثناء لذة المص (التمصص) المنطقة التناسلية مصدر اللذة ـ القضيب او البظر . وسادع مفتوحة المسألة المتعلقة بمعرفة ما اذا كان الطفل يتخذ حقاً من هذا المصدر الذي المقتنى حديثاً بديلاً عن ثدي الام الذي خسره مؤخراً ، وهذا ما قد تنم عنه التخييلات اللاحقة (مص القضيب) . وخلاصة القول أن المنطقة التناسلية يتم اكتشافها ، بطريقة او بأخرى ، ولا يبدو أنه من المبرر ان نعزو الى الانشطة الاولى ذات الصلة بها مضموناً نفسياً . على ان الخطوة التالية في المرحلة القضيبية ، التي على ذلك النحو يكون مبتداها ، ليست ربط هذه الاونانية بالتوظيفات الموضوعانية لعقدة اوديب ، وانما هي اكتشاف تترتب عليه عواقب جسيمة بالنسبة الى البنت الصغيرة التي تقوم به . فهي تلاحظ القضيب الكبير البارز للنظر لدى اخ لها أو رفيق في اللعب ، وتتعرف فيه للحال نسخة متفوقة عن عضوها الصغير الخبيء ، وتقع منذئذ ضحية حسد القضيب .

ان ثمة تعارضاً مثيراً للاهتمام بين سلوك كل من الجنسين : ففي حالة مماثلة ، ومتى ما وقع نظر الصبي الصغير لأول مرة على المنطقة التناسلية للبنت الصغيرة ، تصرّف تصرُّف من لم يثبت عند رأي ، وفي المقام الاول تصرف من لم يثر له اهتمام : فهو لا يرى شيئاً ، او انه يخفف بالإنكار من وقع إدراكه البصري ، ويفتش عن معلومات تتيح له ان يوفق بينه وبين ما يأمل فيه . وفي وقت لاحق فحسب ، وحينما يقع تحت التأثير الآجل لتهديد بالخصاء ، تغدو تلك الملاحظة حافلة بالمعنى بالنسبة اليه : فإن استعادها في ذاكرته أو

(٤) انظر ثلاثة مباحث في نظرية الجنس (الطبعة العربية ، ص ٥٤ ـ ٥٥ ، م ، ن) .

كررها وقع فريسة عاصفة انفعالية عنيفة وطفق يؤمن بواقعية تهديد كان قد سخر منه الى ذلك الحين . ومن هذا التلاقي تتولد استجابتان قابلتان لأن تتثبتا فتحددا من ثم ، إما على حدة ، وإما بالمعية ، وإما ايضاً بالترابط مع عوامل اخرى ، سلوكه الدائم ازاء النساء : التقزز من هذه الكائنات الشائهة البتراء أو الازدراء المظفر حيالهن .بيد أن هذه التطورات هي بنت المستقبل ، حتى وإن لم يكن مستقبلاً نائياً جداً .

وليس الامر بالمثل بالنسبة الى البنت الصغيرة . فهي تحكم وتبت دفعة واحدة . فقد رأت ذلك ، وتعرف أن ليس لها منه ، وتريد ان يكون لها منه[٥] .

هنا تحديداً تكمن نقطة تمفصل ما يسمى بعقدة الذكورة لدى المرأة ، وهي عقدة من شأنها احتمالاً أن تنصب عقبات كأداء في طريق نمو البنت النظامي إن لم تفلح في الظهور عليها بسرعة .فالامل في ان تحصل ذات يوم ، وبالرغم من كل شيء ، على قضيب ، وفي أن تغدو بالتالي عديلة الرجال ، قد يبقى قائماً الى زمن متأخر فوق الحد ، ليتحول من ثم الى دافع الى افعال غريبة كان سيعز بغير ذلك فهمها . أو فلنقل إن تلك العملية التي أحبذ ان أسميها **إنكاراً** تتدخل هنا : وهي لا تبدو لا نادرة ولا شديدة الخطورة على الحياة النفسية للطفلة ، ولكنها قد تتمخض لدى الراشدات عن ذهان . فالبنت الصغيرة ترفض

(٥) هي ذي مناسبة لمراجعة رأي كنت افصحت عنه قبل سنوات . فقد ذهبت الى ان الاهتمام الجنسي عند الاطفال لا يبتعثه كما يبتعثه عند اولئك الذين يدنون من سن النضوج الفارق بين الجنسين ، وانما توقظه بالاحرى مشكلة أصل الاطفال . والحال ان هذا قد لا يطابق واقع الحال بصفة مؤكدة بالنسبة الى البنت الصغيرة على الاقل : اما عند الصبي فقد تجري الامور في هذا المجرى ، واحياناً في مجرى آخر : او ان مناسبات محكومة بالمصادفة هي التي تبت في الامر بالنسبة الى الجنسين كليهما .

القبول بواقع خصائها ، وتعاند في يقينها بأنها تمتلك قضيباً ، وتجد نفسها مكرهة من ثم على ان تتصرف كما لو انها رجل .

ان العواقب النفسية لحسد القضيب ، وذلك بقدر ما لا يتمخض عن ذلك التشكيل الارتجاعي الذي يعرف باسم عقدة الذكورة ، عديدة وبعيدة المدى . إذ يستقر شعور بالدونية ، كما الندبة ، لدى المرأة التي تعترف بجرحها النرجسي . ومتى ما تغلبت على محاولتها الاولى التي فسرت بموجبها فقدان القضيب لديها بعقاب شخصي . وفهمت على العكس عمومية هذه الخاصية الجنسية ، تطفق تشارك الرجل ازدراءه لجنس يعاني من مثل هذا الاختزال الفادح ، وتلح ، في هذا الحكم على اي حال ، على تكافئها مع الرجل[٦] .

وحتى عندما يتخلى حسد القضيب عن موضوعه الخاص ، فإنه لا ينتفي من الوجود ، بل يستمر عبر السمة الطبيعية : **الغيرة** مقرونة بانزياح طفيف . صحيح ان الغيرة ليست وقفاً على جنس بعينه وانها ترتكز الى أساس أوسع ، لكني أعتقد انها تلعب دوراً اكبر بكثير في حياة المرأة النفسية ، لأنها تتلقى مدداً ضخماً من تحول مجرى حسد القضيب . وقبل ان أعرف بعد اشتقاق الغيرة هذا ، كنت افترضت ان

(٦) كنت في أول نص نقدي لي ، مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي ، ١٩١٢ ، قد أوضحت ان تلك هي نواة المقيقة في النظرية الادلرية التي لا تتردد في تفسير الكون باسره بدءاً من هذه النقطة اليتيمة (الدونية العضوانية ، الاحتجاج الرجولي ، التنائي عن خط السلوك الانثوي) ، والتي تتباهى بأنها جردت الجنسية من أهميتها وأعلت مكانها من شأن الطموح الى السلطة ! وعلى هذا الأساس ، يكون العضو « الدوني » الوحيد الذي يستأهل بلا لبس تسمية كهذه هو البظر . ومن جهة اخرى يقال ان ثمة محللين نفسيين يدعون انهم ، بعد عشرات من السنين من الجهود ، لم يقعوا على شيء يثبت لهم وجود عقدة خصاء . والحق انه يتعين علينا ان ننحني بإعجاب امام عظمة هذه التجلية ، وان تكن لا تعدو ان تكون تجلية سلبية ، تجلية في العماء والتجاهل . والنتيجة التي تتمخض عنها النظريتان هي المقابلة الطريقة التالية : هنا لا اثر اطلاقاً لعقدة خصاء ، وهناك لا شيء سوى عواقبها .

للتخييل الاوناني الكثير التواتر لدى البنت الصغيرة ، **تخييل الطفل الذي يُضرب** ، طوراً أول تكون له الدلالة التالية ، وهي ان طفلاً آخر ، تغار منه البنت الصغيرة لانه منافس لها وغـريم ، هو الذي ينبغي ان يُضرب . ويبدو ان هذا التخييل رسابة من المرحلة القضيبية عند البنت الصغيرة . والتصلب الشديد الذي استرعى انتباهي في الصيغـة الرتيبة : طفل يُضرب ، يفسح في المجال بعد امام احتمال تأويل ذي طابع خاص . فالطفل الذي يُضرب ويُداعب معاً آنئذ قد لا يكون في واقع الحال سوى البظر ، بحيث أن هذا التصريح يتضمن، في أعمق جوانبه ، إقراراً بالاستمناء الذي يرتبط من البدايـة ، في المرحلة القضيبية ، وحتى زمن متأخر ، بمضمون تلك الصيغة .

وثمة نتيجة ثالثة لحسد القضيب تتجلى ، فيما يبدو ، في تراخي علاقة المحبة بالام بصفتها موضوعاً . وهذا الترابط ليس مفهوماً لنا اوضح الفهم . ولكننا لا نجد بدأ من الاقتناع بأن الام هي التي تحمَّل على الدوام تقريباً في خاتمة المطاف تبعة فقدان القضيب ، تلك الام التي زجت بطفلتها في خضم الحياة بعدَّة غير كافية . والتسلسـل التاريخي لهذه الحالة هو في الغالب كالتالي : بعد اكتشاف الاذى اللاحق بالاعضاء التناسلية بوقت قليل ، تظهر الغيرة حيال طفل آخـر يبدو أنه يحظى بقدر اكبر من الحب من جانب الأم ، مما يقدم ذريعة لفك الارتباط مع الأم . وان يكن الطفل الاثير لدى الأم هو الذي يغدو الموضوع لتخييل الضرب بالسوط ـ وهو التخييل الـذي يفضي الى الاستمناء ـ فإن هذه واقعة تتمشى على اكمل وجه مع ما تقدم .

ان لحسد القضيب ـ أو لاكتشاف دونية البظر ـ مفعولاً مدهشاً آخر ، وهو بلا أدنى شك أهم المفاعيل إطلاقاً . فكثيراً ما تهيأ لي من قبل أن المرأة لا تطيق الاستمناء بوجه عام بقدر ما يطيقه الرجل ، وأنها تنفر منه وتصد عنه ولا تجد في نفسها قبلاً للجوء اليه ، على

حين ان الرجل يلجأ بلا تردد الى هذه الوسيلة في ظل الظروف عينها . ومن المؤكد اننا لو شئنا ان ننزل هذه الدعوى منزلة القاعدة العامة ، فلن تلبث التجربة أن تسوق لنا استثناءات لها لا يحصى لها عد . فاستجابات أفراد البشر من كلا الجنسين تتألف في آن معاً من سمات ذكرية وسمات انثية . على أن الاستمناء فيما يبدو اشد نأياً عن طبيعة المرأة ، وقد يمكننا ، حلاً لهذه المشكلة ، أن نعتبر الاستمناء البظري نشاطاً مذكراً ، وان نعد استبعاد الجنسية البظرية شرطاً لنمو الانوثة . وقد تبين لي الآن من تحاليل المرحلة القضيبية الاكثر تبكيراً أنه يظهر لدى البنت ، بعد زمن وجيز من ظهور علامات الحسد القضيبي ، رد فعل شديد على الأونانية لا نملك ان نرده الى تأثير الاشخاص المولجين بالتربية وحده . فجلي للعيان أن هذه الحفزة هي مقدمة لاندفاعة الكبت التي ستنحي جانبا ، ساعة البلوغ ، شطراً لا يستهان به من الجنسية المذكرة لتفسح في المجال امام نمو الأنوثة. وقد يتفق الا تبلغ هذه المعارضة الاولى للنشاط الايروسي الذاتي هدفها . وهذا ما حدث في الحالات التي توليتها بالتحليل . فالصراع يستمر في هذه الحال ، وتروح البنت الصغيرة تبذل قصاراها ، في ذلك الحين كما من بعد ، لتنعتق من هاجس الاونانية ذاك . وان العديد من التظاهرات اللاحقة الاخرى في حياة المرأة الجنسية يبقى مستغلقاً على الفهم بالنسبة الى من لم يتعرف قوة ذلك الدافع .

انني لا أستطيع تفسير ثورة البنت الصغيرة هذه على الاونانية القضيبية إلا بالفرض التالي : اشمئزازها الشديد من ذلك النشاط الذي هو مصدر للذة بعامل مواز . وما علينا ان نوغل في البعد بحثاً عن هذا العامل : فهو لا بد ان يكون ذلك الإذلال النرجسي المرتبط بالحسد القضيبي ، ذلك التحذير من أنه لا سبيل بالرغم من كل شيء الى الدخول في تحدٍ بصدد هذه النقطة مع الصبي ، وأنه من الافضل

بالتالي الامتناع عن التنافس وإياه . وعلى هذا النحو ينأى اكتشاف الفارق التشريحي بين الجنسين بالبنت الصغيرة عن الذكورة والاونانية المذكرة ويزج بها في دروب جديدة تتأدى الى نمو الانوثة .

الى الآن لم يرد ذكر لعقدة أوديب ، وهي لا تكون لعبت بالاصل دوراً الى هذا الحين . ومن الآن فصاعداً ينزلق ليبيدو البنت الصغيرة ـ على طول ما لا يمكن أن نسميه إلا بالمعادلة الرمزية : القضيب = الطفل ـ نحو موقع جديد . فهي تتخلى عن الرغبة في القضيب لتستبدلها بالرغبة في طفل ، **وبهذا القصد** تتخذ الاب موضوع حب لها . أما الام فتغدو موضوع غيرتها ؛ فالبنت الصغيرة في سبيلها الى أن تصير امرأة . ولو اخذت بنتائج استبار تحليلي منفرد ، لقلت إن هذا الموقف الجديد قد يتمخض عن احاسيس بدنية ينبغي ان نرى فيها يقظة سابقة لأوانها للجهاز التناسلي المؤنث . وحينما تأفل فيما بعد شمس هذه الرابطة بالأب ويتعين التخلي عنها ، فقد تخلي مكانها لتماه مع الأب تعود البنت من خلاله الى عقدة الذكورة التي يُحتمل ان تتثبت عليها .

لقد أنجزت الآن قول جوهر ما كنت اريد قوله ، وسأتوقف هنيهة لتملي النتيجة . لقد بدأنا بالتعرف الى ما قبل تاريخ عقدة اوديب لدى البنت . وما يناظره لدى الصبي لا يكاد يكون مجهولاً . وعقدة اوديب لدى البنت تشكيل ثانوي . تسبقها وتمهد لها آثار عقدة الخصاء . وفيما يتصل بالعلاقة بين عقدة اوديب وعقدة الخصاء ، ثمة تعارض أساسي بين الجنسين . **فعلى حين تضمحل عقدة اوديب لدى الصبي تحت تأثير عقدة الخصاء**[7] ، **تجعل عقدة الخصاء من عقدة اوديب ممكنة لدى البنت وتكون بمثابة مدخل اليها** . ويغدو هذا

(٧) انظر : افول عقدة اوديب

التناقض مفهوماً متى ما اخذنا في اعتبارنا ان عقدة الخصاء تفعل على الدوام فعلها في الاتجاه المتعين بمضمونها : فهي تكفّ الذكورة وتحدها وتشجع الانوثة . والفارق الذي يكمن في هذا الجانب من النمو الجنسي لكل من الرجل والمرأة هو نتيجة طبيعية لتمايز اعضائهما التناسلية والموقف النفسي المرتبط بهذا التمايز ؛ فهو الفارق بين خصاء ناجز وبين مجرد تهديد بالخصاء . وهكذا فإن النتيجة التي انتهينا اليها هي في الواقع من بدهيات الامور ، وكان يمكن لنا ان نتوقعها .

بيد ان عقدة اوديب امر بالغ الاهمية بحيث أن الكيفية التي يتم بها الدخول فيها والخروج منها لا يمكن إلا ان تترتب عليها نتائج وعواقب . فلدى الصبي ـ وهذا ما اوضحته في المقال الذي ذكرته لتوي والذي به يرتبط جوهر ملاحظاتي هذه ـ لا تُكبت العقدة فحسب ، بل تنفجر وتتطاير شظاياها بملء معنى الكلمة تحت صدمة التهديد بالخصاء ، ومن ثم فإن توظيفاتها الليبيدوية تُهجر ، وتُجرد من طابعها الجنسي ، ويتم إسماؤها جزئياً ؛ كما ان مواضيعها تُستدمج في الانا حيث تؤلف نواة الانا الاعلى وتسبغ على هذا التشكيل الجديد خواص مميزة . وفي الحالات السوية ، او بالاحرى في الحالات المثالية ، لا يتبقى عندئذ شيء من عقدة اوديب، ولا حتى في اللاشعور ، ويصبح الانا الاعلى هو وريث العقدة . وما دام القضيب ـ على حد قول فيرنزي ـ يدين بتوظيفه النرجسي المرتفع الى حد خارق للمألوف لما له من دلالة عضوية بالنسبة الى استمرار النوع البشري ، فبوسعنا ان نعتبر الكارثة التي تلمّ بعقدة اوديب (التحول عن المحارم وتوطد الضمير والاخلاق) بمثابة انتصار للنوع على الفرد . وهذه وجهة نظرة مثيرة للاهتمام ، ان اخذنا في اعتبارنا أن العصاب يرتكز الى تمرد الانا على متطلبات الوظيفة الجنسية . غير أن التخلي عن وجهة نظر علم النفس الفردي لا يتيح لنا حالاً أن نفسر العلاقات المعقدة .

أما الدافع الى تدمير عقدة اوديب لدى البنت فلا يقع في متناول ادراكنا . فالخصاء قد آتى مفعوله الذي تمثل في إرغام البنت على الدخول في الموقف الاوديبي . اذن فعقدة اوديب تفلت من المصير الذي ينتظرها لدى الصبي : فمن الممكن أن يتم التخلي عنها ببطء ، وان تُصفّى عن طريق الكبت ، ومن الممكن ان ترجأ آثارها الى زمن متأخر جداً في الحياة النفسية السوية للمرأة . وقد نتردد في الجهر برأينا ، ولكننا لا نملك ان ندفع عن أنفسنا فكرة ان ما هو سوي اخلاقياً له عند المرأة مستوى آخر . فأناها الاعلى لن يكون ابداً متصلباً ، لاشخصياً ، مستقلاً عن أصوله العاطفية الى الحد الذي نتطلبه من الرجل . وربما كان هذا الاختلاف في تكوين الانا الاعلى ، الذي اوضحنا لتونا مصدر اشتقاقه ، علة كافية لتلك السمات الطبيعية التي انتقدت لدى المرأة واخذت عليها في كل آن وزمان: تدليلها على حس بالعدل أوهى مما هو عليه لدى الرجل ، وعلى ميل اوهى ايضاً الى الخضوع لضرورات الوجود الكبرى ، وعلى استعداد اقوى بالمقابل للانسياق في قراراتها وراء عواطف الحب والكره لديها . ولن تجعلنا نشيح عن هذه الاستنتاجات حجج أنصار المرأة الذين يريدون ان يفرضوا علينا مساواة تامة في وضع الجنسين وتقييمهما . على أننا نسلم عن طواعية بأن معظم الرجال يبقون دون مستوى المثال الذكر ، وبأن جميع أفراد النوع البشري يملكون ، بحكم جبلّتهم الجنسية الثنائية ووراثتهم المتصالبة ، سمات ذكرية وسمات أنثية في آن معاً ، بحيث ان مضمون الانشاءات النظرية للذكورة الخالصة وللأنوثة الخالصة يبقى محفوفاً بالريَب .

إنني أميل الى ان أعلق أهمية على العرض الذي قدمته عن النتائج النفسية للفارق التشريحي بين الجنسين ، لكني أعلم أن هذا التقييم لن يكون جديراً بالاعتبار ما لم يثبت ان الكشوف التي انتهيت

اليها من خلال عدد ضئيل من الحالات هي ذات دلالة عامة ونمطية ، وإلا فلن يبقى من كل ما تقدم سوى مساهمة في معرفة الطرق المتعددة لنمو الحياة الجنسية .

ان المباحث القيّمة والأساسية لكل من ابرهام ABRAHAM وهورني HORNEY وهيلين دويتش DEUTSCH حول عقدة الذكورة وعقدة الخصاء لدى المراة[8] تنطوي على أشياء كثيرة قريبة للغاية مما تقدمت به ، ولكن لا شيء فيها يتطابق مطلق التطابق معه ، ومن ثم فإن مقالي الذي انشره هنا له هو الآخر ما يبرره .

(٨) ابرهام : الاشكال التي تتجلى بها عقدة الخصاء لدى المراة ، في المجلة الدولية في التحليل النفسي، السنة ٧ ؛ هورني : حول تكوين عقدة الخصاء لدى المراة ، المصدر نفسه،السنة ، ٩ ؛ هيلين دويتش : التحليل النفسي للوظائف الجنسية لدى المراة ، في مجلة مباحث جديدة في التحليل النفسي التطبيقي ، العدد ٥ .

الفصل العاشر

الصنمية

(١٩٢٧)

أتيحت لي الفرصة ، في السنوات الاخيرة ، لادرس تحليلياً عدداً من الاشخاص كان يهيمن على اختيارهم الموضوعاني صنم FETICHE. وليس لنا ان نتوقع ان هؤلاء الاشخاص طلبوا التحليل بسبب الصنم ؛ فصحيح أن هذا الاخير يقر به اتباعه على أنه ضرب من الشذوذ ، ولكن يندر ان يكون استشعارهم له عرضاً مؤلماً ؛ فغالبية اتباعه راضون به مسرورون ، بل يغبطون أنفسهم على التسهيلات التي يرفد بها حياتهم الحبية . ومن ثم كان من العادة أن يلعب الصنم دور اكتشاف هامشي .

ان خصائص هذه الحالات ـ وهذا مفهوم ـ ليست مما يمكن ان يكون صالحاً للنشر . كذلك لا يسعني ان أوضح ما الظروف العارضة التي تأدت الى اختيار الصنم . ولقد كانت أُلفت الحالات للنظر حالة شاب رفع الى منزلة الصنم « لماناً معيناً على الانف » . وكان التفسير المدهش لذلك ان مريضنا هذا كان قد أنشىء في دار حضانة انكليزية ، ثم قدم بعد ذلك الى المانيا وقد نسي بصورة شبه تامة لغته الام . وهذا الصنم الذي كان أصله يكمن في الطفولة الاولى ينبغي أن يُفهم بالانكليزية لا بالالمانية ؛ وبالفعل ، كان « اللمعان على الانف » في

حقيقته « نظرة على الانف »[1] ؛ وهكذا كان الانف ذلك الصنم الذي يستطيع ، متى شاء ، أن يخلع عليه ذلك اللمعان الذي ما كان الآخرون يستطيعون تبيُّنه .

لقد كانت المعلومات التي زودنا بها التحليل بصدد معنى الصنم ومرماه واحدة في الحالات كافة . وكان بالامكان استخلاصها بمنتهى العفوية ، وقد بدا لي انها تفرض نفسها من تلقاء نفسها الى حد بت معه أتوقع أن يكون لجميع حالات الصنمية حل عام واحد . ولا ريب في أنني مخيب الآمال إذا ما قلت إن الصنم بديل للقضيب . وعليه أسارع فأضيف أنه ليس بديلاً لأي قضيب كان ، وانما لقضيب من نوع خاص تكون له دلالة كبرى في مقتبل الطفولة ثم لا يلبث ان يزول ، اي أنه كان يفترض فيه في الحالة السوية ان يُهجر ، ولكن الصنم ينوجد تحديداً كيما يكون له بمثابة ضمانة ضد الزوال . وبمزيد من الوضوح سأقول إن الصنم بديل فالوس المرأة (الام) الذي آمن به الصبي الصغير والذي لا يريد ـ ونحن نعلم السبب ـ ان يتخلى عنه[2] .

لقد كانت السيرورة كما يلي إذن : فقد أبى الطفل أن يقر بواقعية ادراكه أن المرأة ليس لها قضيب . كلا ، لا يمكن ان يكون صحيحاً ، إذ لو كانت المرأة مخصية فإن الخطر سيحدق بامتلاكه هو نفسه لقضيبه ، الأمر الذي لا بد ان تنتفض ضده تلك القطعة من النرجسية التي حبت بها الطبيعة البصيرة ذلك العضو تحديداً . ولعل ذعراً كهذا سيستولي على الراشد متى ما طرق مسامعه صياح

(١) يقال للمعان بالالمانية GLANZ ، والحال ان GLANCE تعني بالانكليزية « نظرة » . « م » .

(٢) كنت أوردت من قبل هذا التأويل ، دون ان اعلله ، في نصي الصادر عام ١٩١٠ : ذكرى من طفولة ليوناردو دافنشي .

الصائحين : « العرش والهيكل في خطر » ، ذعراً من شأنه ان يدفع به الى نتائج براء هي الاخرى من المنطق . واذا كنت لا أجانب الصواب ، فإن لا فورغ سيقول في حالة مشابهة إن الطفل « يعتّم بصرياً » ادراكه لفقدان القضيب لدى المرأة[3] . من الصواب اذن اختيار مصطلح جديد لوصف واقعة جديدة أو لتسليط الضوء عليها ، لكننا لسنا هنا أمام حالة من هذا القبيل . فاقدم لبنة في بنيان مصطلحاتنا التحليلية النفسية ، أعني لفظة « الكبت » ، تطال اساساً هذه السيرورة المَرَضية . فان شئنا ان نميز فيها بمزيد من الوضوح مصير التمثل من مصير الوجدان وأن نحتفظ بمصطلح « الكبت » للوجدان ، فقد يكون من الصواب أن نقول بالالمانية عن مصير التمثل : VERLEUGNUNG[4] . ولا يبدو لي مصطلح « التعتيم » موائماً بصورة من الصور ، إذ انه يوحي بفكرة مؤداها أن الادراك قد محي تماماً ، كما في الحالة التي يقع فيها انطباع بصري على النقطة العمياء في الشبكية . وعلى العكس من ذلك ، يدل الموقف الذي نصفه ان الإدراك باق ، وأن ثمة مجهوداً قوياً للغاية قد بذل للتشبث بإنكاره . وليس من الصواب ان نقول ان الطفل الذي شاهد امرأة قد أنقذ ، دونما تعديل ، اعتقاده بأن للمرأة قضيباً . فهو يحافظ على هذا

(٣) اصحح نفسي بنفسي بقولي إن لدي من الاسباب ما يحملني على الاعتقاد بان لافورغ ما كان ليقول ذلك تحديداً . فقد أوضح هو نفسه ان « التعتيم البصري SCOTOMISATION » مصطلح يكمن اصله في وصف الخبل المبكر ، وأنه غير متأت من نقل التصور التحليلي النفسي الى الاذهنة . وأنه غير قابل للتطبيق على سيرورات تكوين الاعصبة وتطورها . والنص يجاهد ليجعل هذا التنافي واضحا جلياً .

(٤) الانكار . والانكار مفهوم اساسي طرحه فرويد ابتداء من عام ١٩٢٤ . وهو عنده آوالية من آواليات الدفاع يرفض بموجبها الفرد الاعتراف بواقعية إدراك رضّي ، وعلى الاخص إدراك غياب القضيب لدى المرأة . والتمييز بين الكبت والانكار يتيح لفرويد التمييز بين العصاب والذهان : فالعصابي يكبت مطالب الهذا ، بينما الذهاني ينكر الواقع . « م » .

الاعتقاد ، لكنه يهجره أيضاً . ففي خضم الصراع بين ثقل الادراك غير المرغوب فيه وبين قوة الرغبة المضادة ، يتوصل الى حل توفيقي على نحو لا يتأتى له نظيره إلا تحت سلطان قوانين الفكر اللاشعوري ـ السيرورات الاولية . فالمرأة تملك بكل تأكيد ، من المنظور النفسي لهذا الفرد ، قضيباً ، لكن هذا القضيب لا يعود هو القضيب عينه الذي كانه من قبل ، فثمة شيء آخر قد أخذ مكانه ، قد جرت تسميته ، ان جاز القول ، بديلاً عنه ، وصار وريث الاهتمام الذي كان ينصب عليه آنفاً . بيد ان هذا الاهتمام قد زاد زيادة خارقة للمألوف لأن خوف الخصاء قد ابتنى لنفسه نصباً ضخماً بخلقه ذلك البديل . والذهول امام الاعضاء التناسلية الفعلية للمرأة ـ وهو الذهول الذي لا نعدم وجوده لدى اي صنمي ـ يبقى **شهادة دامغة**(*) على حدوث الكبت . هنا يتضح لنا ما يحققه الصنم وما الذي يبقي عليه قائماً . فالصنم علامة انتصار على التهديد بالخصاء وحماية من هذا التهديد . كما أنه يجنب الصنمي الايلولة الى جنسي مثلي إذ يعير المرأة تلك الخاصية التي بفضلها تغدو محتملة كموضوع جنسي . ويعتقد الصنمي ، في الآتي من ايام حياته ، انه ينعم ايضاً بمزية اخرى من مزايا هذا البديل عن العضو التناسلي . فالصنم لا يحظى ، في دلالته ، بالاعتراف من قبل الآخرين ، ولهذا فإنهم لا يرفضونه ، ومن ثم يكون ميسوراً الدنو منه ، وميسوراً ايضاً الفوز بالاشباع الجنسي المرتبط به . فما ينشده الآخرون من الرجال وما يتجشمون في سبيله عناء ومشقة لا يقتضي اي مجهود من جانب الصنمي .

ارجح الظن أن ما من كائن مذكر يفلت من معاناة الرعب من الخصاء حينما يقع نظره على العضو التناسلي المؤنث . فلأية أسباب

(*) باللاتينية في النص STIGMA INDELEBILE م .

يتأدى هذا الانطباع ببعضهم الى ان يصيروا من الجنسيين المثليين ، وببعضهم الآخر الى أن يدرأوا عنهم هذا الخطر بخلقهم صنماً ، بينما تظهر الغالبية الساحقة على هذا الذعر وتتغلب عليه ، فذلك بالتأكيد ما نقف عاجزين عن بيانه . ومن المحتمل اننا ما نزال نجهل ، بين جملة الشروط التي تفعل فعلها في آن معاً ، الشروط التي تتحكم بالسيرورات النادرة الآيلة الى المرض . ولزام علينا ، على أي حال ، ان نقنع بالقدرة على تفسير ما حدث ، وأن ننحي جانباً بصورة مؤقتة مهمة تفسير لماذا أن هذا الشيء أو ذاك لم يحدث .

وربما كان يفترض بنا ان نتوقع ان يقع الاختيار ، كبديل عن ذلك الفالوس الذي تفتقر اليه المرأة ، على أشياء أو اعضاء تمثل بدورها رموزاً للقضيب . وكثيراً ما يكون هذا هو بالفعل واقع الحال ، ولكن ليس هذا على كل حال هو الامر الحاسم . بل يبدو بالاحرى ، في عملية تأسيس الصنم ، اننا امام سيرورة تشبه تعطل الذاكرة في النساية الرضية . فهنا ايضاً يبقى الاهتمام وكأنـه علّق في وسط الطريق : فآخر انطباع مما هو مقلق ، مما هو راضّ بنوع ما ، هو الذي سيُحتفظ به ليكون صنماً . وهكذا فإن القدم أو الحذاء أو جزءاً منهما تكون هي الاصنام المفضلة ، وتدين بذلك لواقع ان الصبي قد راقب ،مدفوعاً بفضوله ، عضو المرأة التناسلي من أسفل ، من بين الساقين ؛ والفرو والساتان يثبتان ـ وهذا كان موضع تخمين منذ زمن بعيد للغاية ـ مشهد الوبر التناسلي الذي كان يفترض ان يعقبه العضو المؤنث المشتهى بحرارة وتوق؛ والاختيار الكثير التواتر لقطع الملابس الداخلية لتكون صنماً انما مرده الى الاحتفاظ بذكرى تلك اللحظة الاخيرة من التعري التي أمكن فيها الاستمرار في الاعتقاد بأن المرأة قضيبية. لكنني لا اشاء التوكيد انه في مستطاعنا في كل مرة أن نتوصل الى معرفة اكيدة بتعيين الصنم . ولزام علينا أن نوصي حالاً

بدراسة الصنمية جميع اولئك الذين لا يزالون يشكون في وجود عقدة الخصاء أو اولئك الذين قد يتهيأ لهم ان الذعر إزاء العضو التناسلي للمرأة له أساس آخر : كاشتقاقه على سبيل المثال ، من الذكرى الافتراضية لرضة الميلاد(٦)

على أن جلاء الصنم انطوى بالنسبة إلي على اهمية نظرية اخرى بعد .

فعن طريق تأملي صرف اكتشفت مؤخراً ان العصاب والذهان يختلفان اختلافاً اساسياً من حيث أن الانا ، العامل في خدمة الواقع ، يقمع في العصاب قطعة من الهذا ، بينما ينقاد في الذهان وراء الهذا وينفصل عن قطعة من الواقع . وفيما بعد ، عدت مرة ثانية الى هذه الموضوعة(٧) . لكنني سرعان ما أسفت على اجترائي على التوغل الى مثل هذه المسافة البعيدة . فقد اتضح لي من تحليل شابين ان اياً منهما لم يأخذ علماً بموت ابيهما الحبيب في سنتهما الثانية والعاشرة ؛ فكلاهما قد « عتّم » على هذا الموت ـ ومع ذلك لم يتجه اي منهما نحو الذهان . إذن ثمة قطعة لها بكل تأكيد شأن ودلالة من الواقع قوبلت في هاتين الحالتين بالانكار من قبل الأنا ، تماماً كما يُقابل واقع خصاء المرأة المستكره بالانكار من قبل الصنمي . وعلى الاثر افترضت أن خبرات كهذه ليست نادرة على الاطلاق في الطفولة ، وتسنى لي من ثم أن اقتنع بما وقعت فيه من خطأ في توصيفي للعصاب وللذهان . على أنه بقي مع ذلك ثمة مخرج : فصيغتي لا يمكن أن تثبت صحتها إلا

(٦) إشارة انتقادية الى اوتو رانك ونظريته ذات الطابع الحصري في رضة الميلاد . م . ف .

(٧) العصاب والذهان ، ١٩٢٤ ، وكذلك : ضياع الواقع في العصاب والذهان ، ١٩٢٤ ، المؤلفات الكاملة ، م ١٣ .

متى ما بلغ الجهاز النفسي درجة من التمايز اعلى ؛ فمن الممكن ان يباح لدى الطفل ما سيُعاقب عقاباً صارماً لدى الراشد . غير أن التعمق في البحث افضى الى حل آخر للتناقض .

لقد اتضح ان الشابين المذكورين « عتما » على وفاة والدهما مثلما يعتم الصنميون على خصاء المرأة . فقد كان تيار واحد فقط من حياتهما النفسية لا يعترف بتلك الوفاة ، بينما كان تيار آخر يقيم لها كامل الاعتبار . وكان الموقفان كلاهما ، الموقف المبني على الرغبة والموقف المبني على الواقع ، يتعايشان . وكان هذا الانفلاق ، في واحدة من الحالتين ، هو في أساس عصاب وسواسي متوسط الشدة ؛ ففي جميع الظروف والاوضاع كان المريض يتأرجح بين فرضيتين : واحدة تصور له ان اباه لا يزال حياً ويقف حائلاً دون نشاطه ، وثانية تصور له ، انطلاقاً على العكس من أن اباه قد توفي ، أن في مستطاعه بحق أن يعتبر نفسه خليفته . وهكذا امكن لي أن اتشبث بفرضي القائل ان احد التيارين ، وهو ذاك المبني على الواقع ، قد اضمحل حقاً .

فان عدت الى وصف الصنمية وجدت لزاماً علي ان اذكر ان ثمة حججاً كثيرة ، وحججاً ذات وزن ، تؤيد واقع الموقف الانفلاقي الذي يقفه الصنمي من مسألة خصاء المرأة . ففي حالات بالغة الدقة واللطافة وجد إنكار الخصاء وتوكيده معاً منفذاً لهما في بناء الصنم بالذات . ومن قبيل ذلك حالة رجل كان صنمه مشداً عانيًا كان في مقدوره ايضاً ان يرتديه كلباس للبحر . وكانت قطعة الثياب هذه تخفي تماماً الاعضاء التناسلية ، وبالتالي الفارق بين الاعضاء التناسلية . وبحسب مستندات التحليل كان هذا يعني على حد سواء واحداً من أمرين : إما أن المرأة مخصية وإما أنها غير مخصية ، وكان هذا يفسح في المجال ، علاوة على ذلك ، امام افتراض الخصاء في الرجل ، إذ أن هذه الاحتمالات جميعها كان يمكن ان تختفي تمام الاختفاء

خلف المشد الذي كان نموذجه الأول ورقة التوت الساترة لعورة تمثال وقع عليه نظره في طفولته . وطبيعي ان صنماً كهذا مزدوج الارتباط بأضداد يكون على قدر كبير من المتانة والصلابة . وفي حالات اخرى يظهر انشقاق بين ما يفعله الصنمي بصنمه في الواقع وفي خياله . ولا نكون قد قلنا كل شيء ان قلنا إنه يعبد صنمه : فغالباً ما يعامله بطريقة تمثل على نحو ظاهر للعيان الخصاء . وهذا ما يحدث في دور الأب بوجه خاص حينما يكون التماهي مع الأب على درجة كبيرة من القوة ، إذ يكون الطفل قد عزا اليه خصاء المرأة . وفي بعض الحالات تمتزج المحبة أو العدائية اللتان يعامل بهما الصنمي صنمه - وهما تناظران إنكار الخصاء والاعتراف به - امتزاجاً متفاوتاً ، بحيث يكون من الأسهل تعرف إحداهما تارة ، والاخرى طوراً آخر . وعلى هذا النحو نفهم ، فيما نعتقد ، ولو من زاوية بعيدة للغاية ، سلوك قصّاص الضفائر الذي تبرز لديه على نحو لا يحتمل لبساً الحاجة الى تنفيذ الخصاء المنكر . فعمله يوفق بين توكيدين متناقيين : المرأة حافظت على قضيبها والاب قد خصى المرأة . وربما جاز لنا ان نرى صيغة اخرى من الصنمية - ولكنها ستكون هذه المرة ايضاً مقايسة مقتبسة من علم النفس المقارن - في تلك العادة التي درج عليها الصينيون في تشويه قدم المرأة اولاً ثم في عبادة هذه القدم المشوهة كما لو انها صنم . وقد يجوز لنا ان نفترض ان الصيني يريد بذلك ان يشكر المرأة على رضوخها للخصاء .

وفي نهاية المطاف نرانا مباحاً لنا ان نصرح ان النموذج الاول الطبيعي للصنم هو قضيب الرجل ، مثلما ان النموذج الاول للعضو الادنى هو قضيب المرأة الفعلي الصغير ، اي البظر .

حول الجنسية المؤنثة
(١٩٣١)

(١)

في طور عقدة اوديب العادية نجد الطفل وقد تعلق حبياً تعلقاً حانياً بالوالد الذي من الجنس الآخر ، بينما تهيمن على علاقته بالوالد الذي من الجنس عينه العدائية . وليس عسيراً علينا ان نصل الى هذه النتيجة مع الصبي . فقد كانت أمه موضوعه الحبي الاول ؛ وكذلك بقيت ؛ وبحكم تعزيز نوازعه الحبية وتعمق إدراكه للصلة التي تجمع بين ابيه وامه يغدو الأب لا محالة غريمه ومنافسه . لكن الأمر ليس بالمثل بالنسبة الى البنت الصغيرة . فقد كان موضوعها الاول امها ؛ فكيف تهتدي الى الطريق الموصل الى ابيها ؟ كيف ومتى ولماذا تنفصل عن امها ؟ لقد ادركنا منذ زمن بعيد أن نمو الجنسية المؤنثة يتعقد بحكم المهمة الموجبة للعزوف عن المنطقة التناسلية الراجحة في الأصل ، وأعني البظر ، لصالح منطقة تناسلية جديدة ، هي المهبل . ويبدو لنا اليوم ان تحولاً ثانياً من الطراز نفسه ، ونعني به مقايضة الموضوع الاصلي - الام - بالاب ، ليس سمة اقل اهمية وتمييزاً لتطور المرأة . بيد اننا لا نعرف بعد الكيفية التي تترابط بها هاتان المهمتان واحدتهما بالاخرى .

يغلب جداً ان نلتقي ، كما هو معلوم ، نساء تصلهن بأبيهن

رابطة متينة ؛ وهذا لا يوجب إطلاقاً ان يكنَّ من المعصوبات . وانما على نساء كهؤلاء أجريت الملاحظات التي أنشرها هنا والتي تأدت بي الى تصور معين للجنسية المؤنثة . وأول ما استرعى انتباهي واقعتان : اولاهما أنه حيثما دل التحليل على وجود رابطة شديدة القوة بالأب ، تكون قد سبقتها مرحلة من الارتباط بالأم ، قاصرة عليها ، وبقدر متماثل من الشدة والشغف . وباستثناء تبديل الموضوع ، لم تحمل المرحلة التالية سمات جديدة ، ان جاز القول ، الى الحياة الحبية . فالعلاقة الاولية بالأم كانت منظمة على نحو بالغ الغنى والتنوع .

أما الواقعة الثانية فقد نبهتني الى ان مدة هذا التعلق بالأم كانت لقيت منا سوء تقدير بالغ . ففي العديد من الحالات كان التعلق يمتد حتى السنة الرابعة ، وفي واحدة من الحالات حتى السنة الخامسة ، ويشغل بالتالي شطراً من التفتح الجنسي المبكر اطول بكثير . وفي الواقع كان يتحتم علينا ان نقبل بفكرة أن بعض النساء يبقين متشبثات بعلاقتهن الاصلية بالأم ولا يتوصلن ابداً الى تحويلها حقاً باتجاه الرجل .

وبحكم ذلك تكتسب المرحلة القبأوديبية لدى المرأة أهمية ما عزوناها اليها قط حتى الآن .

وبما ان هذه المرحلة تفسح في المجال امام جميع ضروب التثبيت والكبت التي نرد اليها أصل الاعصبة ، يبدو ضرورياً لنا أن نعدل عن اطلاقية الاطروحة التي تقول إن عقدة اوديب هي نواة الاعصبة . لكن ان وجد من ينفر من هذا التصحيح فلا شيء يرغمه على القيام به . فمن الممكن ، من جهة اولى ، سحب مضمون عقدة اوديب على جميع علاقات الطفل بوالديه ؛ ومن الممكن ، من جهة ثانية ، أخذ كشوفنا الجديدة هذه بعين الاعتبار والقول بأن المرأة لا تبلغ الموقف الاوديبي العادي والايجابي إلا متى ما تغلبت على طور سابق كانت تهيمن عليه

العقدة السلبية . وفي الحق ، ان الأب لا يعدو ان يكون بالنسبة الى البنت الصغيرة ، في هذه المرحلة ، غريماً مزعجاً ، ولكن دون ان يبلغ العداء له ابداً مبلغه الذي يتميز به سلوك الصبي تجاه أبيه . ولقد اقلعنا منذ زمن بعيد عن توقع تواز وثيق في النمو الجنسي لدى الذكور والاناث .

إن النفاذ الى المرحلة القبأوديبية لدى البنت الصغيرة يفجؤنا كما فجأنا ، في مضمار آخر ، اكتشاف الحضارة الميتوسية ـ الميقينية خلف حضارة الاغريق .

إن كل ما يتصل بمجال هذه الرابطة الاولى بالأم قد بدا لي عسيراً أشد العسر فهمه تحليلياً ، فالسنون قد محت آثاره محواً يكاد يكون تاماً ، فأمسى غائماً ، غير قابل تقريباً للانبعاث ، فلكأنه رزح تحت نير كبت شديد الوطأة . ولكن قد لا يكون هذا الانطباع ساورني إلا لأن النساء اللائي توليت تحليلهن كان في مستطاعهن ان يحافظن على هذه الرابطة عينها بالأب ، وهي الرابطة التي لذن بملاذها منذ تلك المرحلة القبأوديبية التي عنها يدور الكلام . ويظهر في الحقيقة ان النساء المحلِّلات ـ من امثال حنة لامبل دي غروت LAMPL DE GROOT وهيلين دويتش ـ قد تسنى لهن ان يفطنَّ بمزيد من اليسر وبقدر اكبر من الجلاء الى هذه الواقعة ، يعينهن على ذلك التحويل لدى مريضاتهن على بديل مناسب للأم . كما انني لم اتوصل بعد الى استكناه حالة بعينها تمام الاستكناه ؛ ولهذا السبب سأقتصر على بسط أعم النتائج ولن أضرب إلا أمثلة قليلة على الافكار الجديدة التي انتهيت اليها . وهاكم واحدة من تلك النتائج : انني أشتبه في وجود علاقة وثيقة للغاية بين مرحلة الارتباط بالأم وبين اتيولوجيا الهستيريا . وليس في هذا ما يبعث على العجب اذا اخذنا بعين الاعتبار ان الشيئين كليهما ، اعني المرحلة والعصاب ، يندرجان في عداد خصائص

الانوثة ؛ وأشتبه ، علاوة على ذلك ، في ان بذرة البارانويا اللاحقة لدى المرأة تكمن في هذه التبعية ازاء الام[1] . ويبدو بالفعل أن هذه البذرة هي خوف البنت من ان تغتالها (او تفترسها) الام ، وهو خوف يبعث على العجب ، ولكنه مطرد الوجود . واننا لنميل الى التوكيد بأن هذا الخوف يناظره عداء تجاه الأم يتمخض لدى الطفلة من جراء القيود العديدة التي تفرضها عليها التربية والعناية البدنية ، وبأن آوالية الاسقاط ييسرها كون التنظيم النفسي ما يزال في بدايته .

(٢)

لقد عرضت الواقعتين اللتين استرعتا انتباهي بجدتهما: كون تبعية المرأة الشديدة إزاء أبيها هي مجرد وراثة لرابطة بالام لا تقل قوة ، وكون هذه المرحلة الأقدم عهداً تدوم وتستمر على امتداد حقبة غير متوقعة . وأريد الآن أن أعود الى الوراء لأدرج هاتين النتيجتين في الصورة المعروفة لدينا جيداً عن النمو الجنسي الانثوي : وإني إذ افعل ذلك لا أملك ان اتفادى تكرار اقوالي . وليس من شأن المقارنة المتواصلة مع الوقائع الذكرية إلا ان تعود بالفائدة على عرضنا هذا .

من الواضح للعيان بادىء ذي بدء اننا حين تؤكد أن جبلّة الكائنات البشرية تنطوي على جنسية ثنائية ، فإن هذه الجنسية الثنائية اشد بروزاً لدى المرأة منها لدى الرجل . فالرجل لا يملك ، في حاصل الكلام ، سوى منطقة تناسلية غالبة واحدة : العضو الجنسي ، بينما تملك المرأة منطقتين : المهبل الذي هو انثوي محض والبظر الذي يماثل آلة الرجل . واننا لنعتقد اننا لا نجانب الصواب إذ نفترض أن

(١) في حالة روث ماك برونشفيك المعروفة جيداً «تحليل لهذاء غيرة» في المجلة الدولية للتحليل النفسي ، السنة ١٤ ، ١٩٢٨ ، نشأ المرض مباشرة عن التثبيت القبأوديبي (على الأخت) .

المهبل يكون غائباً عن الوجود ، ان جاز القول ، على مدى سنوات عديدة ؛ ومن الجائز أنه لا يشـــرع بتوليد أحاسيس إلا مع البلوغ . صحيح أنه تتكاثر في الآونة الأخيرة أصوات المراقبين الذين يرجعون زمن الحاثات المهبلية ايضاً الى تلك المرحلة الابتدائية . غير أن جوهر ما يتصل بالتناسلية في فترة الطفولة يبقى وثيق الصلة بالبظر . وفي العادة تنقسم حياة المرأة الجنسية إلى مرحلتين ، اولاهما ذات طابع مذكر ، وثانيتهما هي وحدها المؤنثة نوعياً . وعلى هذا ينطوي نمو المرأة على سيرورة انتقال من مرحلة الى اخرى ، ولا وجود لشيء من هذا لدى الرجل . ومن أوجه التعقيد الاخرى ان وظيفة البظر الذكري تستمر في الاطوار اللاحقة من حياة المرأة الجنسية على نحو شديد التنوع ، وعلى وجه لا يُعتبر بكل تأكيد باعثاً على الرضى . ونحن لا نعرف بطبيعة الحال ما هو الأساس البيولوجي لخاصية المرأة هذه ؛ كما أنه يشق علينا اكثر أن نعين لها قصداً غائياً .

بالتوازي مع هذا الفارق الكبير الاول يظهر الفارق الثاني المتصل باكتشاف الموضوع . فالأم هي الموضوع الاول للحب لدى الرجل ـ على اعتبار انها هي التي تقيته وتبذل له العناية البدنية ـ وتبقى كذلك الى ان يحل محلها موضوعاً آخر يشبهها بطبيعته او يشتق منها . وبالنسبة الى المرأة ايضاً لا بد ان تكون الام بالضرورة هي الموضوع الاول . وبديهي ان الشروط الأولية للاختيار الموضوعاتي واحدة بالنسبة الى الاطفال جميعاً . لكن الرجل ـ الأب لا بد ان يغدو ، في نهاية النمو ، الموضوع الحبي الجديد للمرأة ؛ وبعبارة اخرى ، ان تغير جنس المرأة لا بد ان يناظره تغير في جنس الموضوع . وهنا تبرز بالنسبة الى البحث مهام جديدة : ومنها مسالة معرفة ما الطريق الذي يسلكه هذا التحول ؟ وهل يتم بصورة جذرية او ناقصة ؟ وما مختلف الاحتمالات التي يتمخض عنها هذا النمو ؟

لقد سبق لنا أن رأينا أن ثمة فارقاً آخر بين الجنسين يتصل بعلاقتهما بعقدة اوديب . ويخيل الينا أن كل ما قلناه عن عقدة اوديب يرجع على وجه الدقة الى الطفل من الجنس المذكر ، وأننا في حل بالتالي من رفض اسم عقدة إلكترا الذي يبغي الالحاح على التشابه بين الجنسين . فعلاقة التزامن المحتومة بين حب احد الوالدين وكراهية الوالد الآخر ، المنظور اليه على أنه غريم ، لا تقوم إلا بالنسبة الى الطفل المذكر .وعندئذ يأتي اكتشاف امكانية الخصاء ، لدى مرأى هذا الآخر العضو التناسلي المؤنث ، ليرغمه على تحويل عقدته الاوديبية ؛ ويتأدى به هذا الاكتشاف الى خلق الانا الاعلى والى إطلاق جميع السيرورات التي ترمي الى اندماج الفرد في الجماعة المتحضرة . وبعد استدخال السلطة الابوية في صورة أنا اعلى ، تكون المهمة التي ما تزال تتطلب التنفيذ فصل هذا الانا الاعلى عن الاشخاص الذين كان في الاصل ممثلهم النفسي . وفي مجرى هذا التطور الجديد بالتقدير ،فإن الاهتمام التناسلي النرجسي ، اي الاهتمام بصيانة القضيب والمحافظة عليه ، هو على وجه التحديد ما يُحوِّل اتجاهه نحو تقييد الجنسية الطفلية .

ان مقداراً من الازدراء حيال المرأة التي يجري تعرُّفها باعتبارها مخصية هو ما يتبقى ايضاً لدى الرجل من تأثير عقدة الخصاء . وقد يترتب عليه ، في الحالات القصوى ، كف للاختيار الموضوعاتي ، وبمساندة عوامل عضوية نزوع الى جنسية مثلية مانعة . والحال ان نتائج عقدة الخصاء مختلفة تماماً لدى المرأة . فالمرأة تعترف بواقع خصائها وتعترف ايضاً الى جانب ذلك بتفوق الرجل وبدونيتها هي ، ولكنها تتمرد ايضاً على هذا الوضع المستكره . وتترتب على هذا الموقف المنقسم ثلاثة اتجاهات في التطور . اتجاه أول يتأدى بالمرأة الى الانصراف بصفة عامة عن الجنسية . فالمرأة الصغيرة التي ارعبتها

المقارنة مع الصبي تمسي غير راضية عن بظرها ؛ فتمسك عن نشاطها القضيبي وتعزف فوق ذلك عن الجنسية بصفة عامة ، وكذلك ، وفي مضامير اخرى ، عن جانب لا يستهان به من ذكورتها . اما الاتجاه الثاني فيتأدى بها الى عدم التنازل ، بوثوق صفيق ، عن ذكورتها المهددة : فالأمل في ان تتلقى من جديد قضيباً يظل يداعبها الى مرحلة متأخرة فوق الحد ، فيغدو هدف حياتها ، ويبقى تخيلها بأنها بالرغم من كل شيء رجل عاملاً مكوِّناً لفترات مديدة من حياتها . و « عقدة الذكورة » هذه لدى المرأة يمكن ان تنتهي ايضاً الى اختيار موضوعاتي جنسي مثلي سافر . واتجاه التطور الثالث ، الشديد التعرج ، هو وحده الذي يفضي الى الموقف الانثوي السوي النهائي الذي يختار الاب موضوعاً ويتلبس على هذا النحو الشكل المؤنث لعقدة اوديب . هكذا تكون عقدة اوديب لدى المرأة المحصِّلة النهائية لتطور طويل الأمد ؛ وهي لا تتدمر تحت تأثير الخصاء بل على العكس تتكون؛ثم انها تفلت من التأثيرات المناوئة القوية التي قد يكون من شأنها،لدى الرجل،أن تدمرها ؛ وفي الكثير الغالب جداً من الاحيان قد يتفق ألا تتغلب عليها المرأة على الاطلاق . ولهذا ايضاً تكون النتائج الثقافية(٢) لفصمها زهيدة وغير ذات شأن . وأرجح الظن اننا لا نجانب الصواب اذا قلنا إن هذا الفارق في العلاقة المتبادلة بين عقدة اوديب وعقدة الخصاء يسبغ على الشخصية الانثية صفتها ككينونة اجتماعية(٣) .

(٢) الثقافة عند فرويد ، وفي اللغة الالمانية ايضا ، ليست هي جملة الآداب والفنون فحسب بل لها ايضا مدلول الحضارة اي كل ما انجزته البشرية منذ ان تخطت الحالة الوحشية . م .

(٣) يمكن لنا ان نتوقع هنا ان انصار المرأة من الرجال وكذلك المحلِّلات من النساء لن يوافقوا على هذا الكلام . وهم لن يتوانوا عن الاعتراض بأن امثال هذه النظريات انما يكمن أصلها في « عقدة الذكورة » لدى الرجل وأن لا شأن لها غير ان تفيد في تقديم =

ان مرحلة الارتباط المانع بالام ، وهي المرحلة التي يمكن أن توصف بانها **قباوديبية** ، تتلبس على هذا النحو لدى المرأة اهمية أعظم بكثير من تلك التي تعود اليها لدى الرجل . والكثير من ظاهرات الحياة الجنسية المؤنثة ، التي ما كانت تحظى بفهم جيد من قبل ، تجد تفسيرها التام بالإحالة الى هذه المرحلة . فقد لاحظنا منذ زمن بعيد ، مثلاً ، ان الكثيرات من النساء اللاتي اخترن ازواجهن وفق النموذج الاول الابوي ، او اعطيناهم مكان الأب ، يكررن معهم ضمن اطار الزواج علاقتهن السيئة بالأم . فقد كان المفروض بالزوج ان يرث العلاقة بالأب فإذا به يرث في الواقع العلاقة بالام . ويسير علينا ان ندرك ان هذه حالة قريبة من النكوص . فالعلاقة بالام كانت العلاقة الاصلية التي على اساسها شيدت الرابطة بالأب ، ولكن ها هو ما كان هو الاصل يعاود ضمن اطار الزواج انبثاقه من الكبت . والحق أن إحالة الروابط الوجدانية بالموضوع الاموي الى الموضوع الابوي تؤلف المضمون الرئيسي للنمو والتطور لدى المرأة .

ولئن كانت الكثيرات من النساء يخلفن لدينا انطباعاً بأن مرحلة النضج في حياتهن حافلة بالشاحنات مع أزواجهن ، مثلما كان شبابهن حافلاً بالمشاحنات مع أمهاتهن ، فإننا سنخلص من ذلك الى الاستنتاج ، على ضوء الملاحظات السابقة ، بأن موقفهن العدائي من الام ليس نتيجة للتنافس في طور عقدة اوديب ، بل ينبع على العكس من

ـ تبرير نظري الى الميل الفطري لدى الرجل الى احتقار المرأة واضطهادها . عن ان محاجة تحليلية نفسية كهذه من شأنها ان تذكرنا في هذه الحالة ، كما في الكثير من الحالات ، بسلاح دوستويفسكي ذي الحدين الشهير . اما المعارضون فسيرون ، من جانبهم ، انه من المفهوم الا يقبل الجنس المؤنث بما من شأنه ، في ظاهر الامر ، أن ينقض تلك المساواة التي طالما تاق اليها مع الرجل . والحق ان استخدام التحليل كسلاح للمساجلة لا يمكن ان يفضي الى حسم واضح للمسألة .

الطور السابق ، وكل ما فعله الموقف الاوديبي أنه عززه واستغله . ومن الواجب أن نوجه اهتمامنا نحو الاواليات التي فعلت فعلها باتجاه التخلي عن الموضوع الاموي الذي كان من قبل موضع حب شديد ومانع . وإننا لنتوقع أن سلسلة من العوامل ، لا عاملاً وحيداً ، هي التي تفعل فعلها هنا مجتمعة برسم الهدف النهائي ذاته .

ان من جملة هذه العوامل عوامل مشروطة بوجه خاص بظروف الجنسية الطفلية ، ومفعولها يسري بالتالي على الحياة الحبية لدى الصبي ايضاً . وينبغي أن نخص بالذكر في المقام الاول الغيرة من أشخاص آخرين ، من إخوة وأخوات منافسين ، ممن يتسع بينهم مكان للاب . فالحب الطفلي مسرف لا يعرف حدوداً ، وهو يطالب بالقصورية ولا يكتفي بنتف وكسور . على انه يتصف ايضاً بصفة ثانية : فهو حب لا هدف له ، يعجز عن الوصول الى اشباع تام ، ولهذا السبب يكتب عليه أساساً أن ينتهي بخيبة وتثبيط وأن ينوب منابه موقف عدائي . وفي طور لاحق من الحياة يمكن لغياب إشباع نهائي ان يفضي الى مخرج آخر . ففي مقدور هذا العامل ، كما في العلاقات الحبية المكفوفة من حيث الهدف ، أن يضمن الدوام الهادىء للتوظيف الليبيدوي ؛ لكن يحدث بصورة مطردة ، تحت ضغط سيرورات النمو والتطور ، ان يتخلى الليبيدو عن الموقع غير الإشباعي ليبحث عن واحد آخر .

ثمة حافز آخر ، من طبيعة اكثر خصوصية ، يدفع باتجاه التحول عن الام وينبع من تأثير عقدة الخصاء على الكائن الذي بلا قضيب . ففي يوم من الايام تكتشف البنت الصغيرة دونيتها العضوانية ؛ وهي تصل الى هذا الاكتشاف في وقت ابكر بطبيعة الحال ان كان لها اخوة أو ان كان في جوارها صبيان . وقد رأينا من قبل ما هي الاتجاهات الثلاثة التي تبرز الى حيز الوجود عندئذ : ١ـ

الاستنكاف عن كل حياة جنسية ؛ ب - الإلحاح الصفيق على ذكورتها ؛ جـ - بدايات الانوثة التي ستكون نهائية . وليس من اليسير لا تعيين المواقيت الدقيقة لكل ذلك ولا تقرير مسارات التطور . وحتى زمن اكتشاف الخصاء يتفاوت من حالة الى اخرى ، كما ان العوامل الاخرى تبدو متقلبة ومنوطة بالمصادفة . وينبغي أن نأخذ في اعتبارنا شروط النشاط القضيبي المحض ، وكذلك واقع اكتشافه او عدمه ، وعدد مرات المنع التي كابدت منها البنت الصغيرة بعد هذا الاكتشاف .

ان البنت الصغيرة تكتشف عفوياً في غالب الاحيان نشاطها القضيبي الخاص ، اي الاستمناء على مستوى البظر ، الذي لا تصاحبه في أول الأمر تخييلات . والتخييل الكثير التواتر ، الذي يلبس الأم أو المرضع أو المربية ثوب المغوية ، يشف عن مدى تأثير العناية البدنية في هذه اليقظة . أما مسألة معرفة ما اذا كانت اوثانية البنت أندر ، ومن البداية أوهى شأناً من اوثانية الصبي ، فتبقى معلقة ، وان يكن ذلك محتملاً جداً . والاغواء الفعلي متواتر هو الآخر : وقد يأتي إما من جانب اطفال آخرين وإما من جانب أشخاص مكلفين بالاهتمام بالطفلة ممن يريدون تسكينها أو إنامتها أو يريدون شد وثاقها اليهم . والإغواء ، حيثما يقع ، يعكر المسار الطبيعي لسيرورات النمو والتطور ؛ وتكون عواقبه في الغالب جسيمة ودائمة .

ان منع الاستمناء يغدو ، كما رأينا ، سبباً للإقلاع عنه ، لكنه يمسي ايضاً حافزاً الى التمرد على الشخص الذي ينهى عنه ، سواء أكان الأم أم بديل الأم الذي لا يلبث بصورة مطردة أن يندمج بشخص الأم . ويبدو أن المثابرة العنيدة على الاستمناء تشق الطريق الى الذكورة . ولكن حتى حيثما لم تفلح الطفلة في كبح الاستمناء ، فإن تأثير المنع ، الذي لا وزن له في الظاهر ، يتجلى في الجهود التي تبذلها

البنت لاحقاً لتتحرر ، لقاء تضحيات كبرى ، من ذلك الاشباع الذي أفسد عليها . وناهيك عن ذلك فإن الاختيار الموضوعاني لدى الفتاة الناضجة يمكن ان يتأثر بديمومة هذا التصميم . والضغينة على منع النشاط الجنسي الحر تلعب دوراً كبيراً في الانفصال عن الأم . وهذا الدافع نفسه سيسري مفعوله مجدداً ، عقب البلوغ ، يوم تدرج الأم في عداد واجباتها لزوم حماية عفة ابنتها . ولا يجوز لنا أن ننسى بطبيعة الحال أن الأم تعارض بالطريقة نفسها استمناء الصبي وتتيح له ، بنتيجة ذلك ، دافعاً قوياً الى العصيان والتمرد .

حين تختبر البنت الصغيرة ما بها من نقص لدى مرآها العضو التناسلي المذكر ، فإن اختبارها هذا لا يتم بغير ما تردد وبلا تمرد . لقد رأينا انها تحافظ بقوة على الأمل في ان تتلقى ذات يوم عضواً كذاك ، والرغبة في ذلك تستمر طويلاً بعد انقطاع الرجاء ، وفي الاحوال جميعاً تحمل الطفلة هذا الخصاء على محمل سوء الطالع الفردي ؛ وفي طور لاحق فحسب تسحبه على طفلات آخر فرادى ، وفي خاتمة المطاف على راشدات آخر فرادى . وحينما تتأكد لها فكرة عمومية هذه الصفة السلبية تنظر بعين الانتقاص الشديد الى النساء ، وكذلك الى أمها .

من المحتمل تماماً أن الوصف الذي أوردته للكيفية التي تتصرف بها البنت الصغيرة حيال الخصاء وحظر الاوثانية يترك لدى القارىء انطباعاً مشوشاً وحافلاً بالتناقضات . وتبعة ذلك لا تقع كلها على عاتق الكاتب . والحق أنه يكاد يكون من المتعذر تقديم عرض ذي دلالة عامة . فلدى مختلف الافراد تختلف الاستجابات أشد الاختلاف ؛ ولدى الفرد الواحد تتجاور مواقف متناقضة . ومن المداخلة الاولى للحظر يظهر النزاع ليرافق مذاك فصاعداً نمو الوظيفة الجنسية . ومما يزيد في صعوبة فهم هذه الفكرة وجوب بذل جهود

كبرى لتمييز السيرورات النفسية التابعة لهذا الطور الأول من السيرورات اللاحقة التي تحجبها وتحرّفها في الذاكرة . هكذا تُفهم واقعة الخصاء في وقت لاحق ، مثلاً ، على انها عقاب على النشاط الاستمنائي ، ويُعزى تنفيذها الى الأب . والشيئان كلاهما ليسا بالتأكيد اوليين . ويخشى الصبي هو الآخر الخصاء على يد الاب ، وان كان التهديد يأتيه في غالب الاحيان من الام .

ومهما يكن من أمر فإن أقوى دافع للابتعاد عن الام يبرز الى حيز الوجود في نهاية هذه المرحلة الاولى من الصلة بالأم هو انها لم تهب الطفلة عضواً تناسلياً حقيقياً ، أي أنها ولدتها انثى . ويقدر من الدهشة نكتشف مأخذاً آخر يرجع عهده الى زمن ابكر قليلاً : إن الام لم تعط الطفلة كفايتها من اللبن ولم ترضعها زمناً طويلاً بما فيه الكفاية . وفي شروط حضارتنا قد يحدث هذا تكراراً ، ولكن بالتأكيد ليس بالتواتر الذي يشف عنه التحليل . ويبدو هذا الاتهام اقرب بكثير الى ان يكون تعبيراً عن عدم الاشباع العام للطفل الذي يفطم،في الشروط الحضارية للزواج الاحادي ،بين الشهر السادس والتاسع،بينما تنذر الأم نفسها لطفلها لدى البدائيين على مدى سنتين أو ثلاث سنوات ؛ فلكأن أطفالنا يبقون أبد حياتهم على جوع وطوى ، ولكأنهم لم يرضعوا زمناً طويلاً بما فيه الكفاية ثدي الأم . ولكني لست متيقناً من اننا لن نصطدم بالمأخذ نفسه فيما لو حللنا اطفالاً نالوا حظهم من الرضاع امداً طويلاً يضاهي ما هو عليه الحال لدى البدائيين . فما اعظم نشاط الليبيدو الطفلي ! لننظر الآن في جملة التحفيزات التي يكشف عنها التحليل والتي تفسر واقعة الاشاحة عن الأم : لقد اهملت الام تزويد البنت الصغيرة بالعضو التناسلي الصحيح الوحيد ؛ ولم ترضعها بما فيه الكفاية ؛ وقد ارغمتها على مشاطرة آخرين الحب الاموي ؛ ولم تف على الدوام بما كانت تتوقعه منها ؛ واخيراً ، فإنها

نبهت في أول الأمر ثم حظرت النشاط الجنسي الخاص بالبنت الصغيرة . وجميع هذه الدوافع تبدو غير كافية لتبرير العداء النهائي . وبعض هذه الدوافع نتائج محتومة لطبيعة الجنسية الطفلية ، وبعضها الآخر لا يعدو ان يكون تصورات تالية لتغير العاطفة الذي لا تعليل له . ولعل الأمر لكذلك بالاحرى ، ولعل التعلق بالأم مقدر عليه التلاشي لانه الأول ولانه بالغ الشدة . وهذا ما قد تمكن ملاحظته لدى المرأة الصبية في زواجها الأول الذي يتوج ذروة حبها . ففي الحالين كليهما تكون خيبات الأمل محتومة ، ويؤدي تكدس الحاثات العدوانية الى تقويض الموقف الحبي . وفي العادة تكون الزيجات الثانية احسن مآلاً .

لا يسعنا ان نمضي الى حد التوكيد بأن ازدواجية التوظيفات قاعدة سيكولوجية ذات صلاحة عامة ، وبانه من المستحيل على الاخص الشعور بحب كبير تجاه شخص من الاشخاص من غير ان يقترن بكره قد لا يقل عنه شأناً ، او العكس بالعكس . وما من شك في ان الانسان السوي والراشد يفلح في تمييز الموقفين واحدهما من الآخر ، فلا يكره موضوعه الحبي ، ولا يعد نفسه ملزماً بأن يحب عدوه . لكن هذا يبدو ناجماً عن تطورات لاحقة . أما في الاطوار الاولى من الحياة الحبية فإن الازدواجية تكون على نحو مكشوف هي السارية المفعول ،ولدى الكثيرين من الاشخاص تبقى هذه السمة الأثرية ملازمة لهم طوال حياتهم ؛ وإنه لمن العلامات الفارقة للاشخاص المصابين بالعصاب الوسواسي أن الحب والكره يتوازنان في علاقاتهم الموضوعاتية. وفي مقدورنا ان نؤكد لدى البدائيين غلبة الازدواجية ايضاً .وعلى هذا فإن صلة البنت الصغيرة الوثيقة بأمها لا بد ان تكون على اساس هذا الفرض مطبوعة بقوة بطابع الازدواجية ؛ ومن ثم لا بد أن تجد البنت الصغيرة نفسها مضطرة ، من جراء هذه الازدواجية تحديداً ، وبتضافر عوامل اخرى ، الى الاشاحة عن امها ؛ وهذه هي مرة اخرى

نتيجة الخاصية العامة للجنسية الطفلية .

في مواجهة محاولة التفسير هذه ينهض للحال سؤال : كيف يمكن ، والحال هذه ، للصبيان الصغار ان يحافظوا ، دون اعتراض ، على صلتهم بالام مع انها بكل تأكيد لا تقل شدة ؟ ونحن على أهبة للاجابة حالاً : لانه في مستطاعهم ان يصفّوا تصفية كاملة كل ازدواجيتهم إزاء الام بإلقائهم بكل مشاعرهم العدائية على الأب . ولكن لا يجوز لنا ، اولاً ، ان نعطي هذا الجواب قبل ان ندرس بعمق المرحلة القبأوديبية لدى الصبي ، ومن الاحصف بكثير في ارجح الظن ان نقر باننا لا نفهم عميق الفهم هذه السيرورات التي تعرفنا اليها الآن فحسب .

(٣)

لدينا سؤال آخر : ماذا تطلب البنت الصغيرة من أمها ؟ وما طبيعة أهدافها الجنسية في زمن صلتها المانعة بامها ؟ ان الجواب الذي نقبسه من معين المادة التحليلية يطابق كل المطابقة توقعاتنا . فالاهداف الجنسية للبنت الصغيرة حيال أمها هي من طبيعة ايجابية وسلبية ، إذ انها متعينة بالمرحلة الليبيدوية التي تجتازها الطفلة . وعلاقة الايجابية بالسلبية تستأهل هنا ان نوليها اهتماماً خاصاً . فمن اليسير ان نلاحظ ان الانطباع الذي يكون له في نفس الطفل وقع سلبي يولّد لديه ميلاً الى رد فعل ايجابي ، وهذا ليس في المضمار الجنسي وحده ، وانما ايضاً في سائر مضامير الحياة النفسية . فهو يسعى الى ان يفعل هو نفسه ما كان فُعل به أو معه من قبل . وهذا جانب من المهمة المفروضة عليه في السيطرة على العالم الخارجي ، والتي قد تقود الطفل هي نفسها الى محاولة تكرار الانطباعات التي من صالحه ان يتحاشاها بسبب مضمونها المستكره . ويخدم اللعب الطفلي ايضاً هذا التصميم على تكميل تجربة سلبية بسلوك ايجابي ، وبنوع ما على إلغاء

هذه التجربة . فحين يفتح الطبيب فم الطفل الذي يتمنع ليرى ما بداخل حلقه ، فإنه ما ان يبارح الطبيب المكان حتى يبادر الطفل الى لعب دوره ويكرر امتحان القوة هذا على اخ له أو اخت اصغر منه سناً ولا حول لهما ولا قوة في مواجهته مثلما كان هو نفسه بلا حول ولا قوة امام الطبيب . ولا نستطيع أن نتجاهل ما ينطوي عليه هذا الموقف من تمرد على السلبية وعلى ايثار للدور الايجابي . بيد ان هذا القلب للسلبية الى ايجابية غير مطرد التكرار ، وبالقوة ذاتها ، لدى جميع الاطفال ؛ وقد ينعدم لدى بعضهم بالمرة . وبوسعنا أن نستخلص من سلوك الطفل هذا استنتاجات بصدد القوة الجنسية للذكورة والانوثة اللتين سيظهرهما في حياته الجنسية .

ان اولى الخبرات الجنسية أو الملونة بصبغة جنسية ، التي يعرفها الطفل مع أمه ، هي بطبيعة الحال ذات صفة سلبية . فهي ترضعه وتطعمه وتنظفه وتلبسه وتوجهه في افعاله كافة . ويبقى جزء من ليبيدو الطفل مثبّتاً على هذه الخبرات ويتمتع بالاشباعات المرتبطة بها ، ويسعى جزء آخر الى تحويل هذه الخبرات الى ايجابية . فهو يستبدل بادىء ذي بدء إرضاع ثدي الام له بمص ايجابي لهذا الثدي ، ويكتفي الطفل في الميادين الاخرى إما بالاستقلال الذاتي ، فينجز بمفرده ما كان يُفعل معه الى ذلك الحين ، وإما بالتكرار الايجابي في اللعب لخبراته السالبة ، وإما باتخاذ أمه موضوعاً بملء معنى الكلمة ، فيتصرف ازاءه باعتباره ذاتاً فاعلة . ولأمد طويل من الزمن بدا لي هذا السلوك الاخير ، الذي يدور في مضمار الايجابية الخالصة ، مما لا يصدق ، الى ان قشعت التجربة هذا الشك .

يندر أن نسمع أن بنتاً صغيرة تريد ان تغسل أمها او ان تلبسها او ان تعلمها النظافة . صحيح أنه قد يتفق لها أن تقول : « لنلعب الآن لعبة الماما ، أنا الام وانت الطفلة » ، لكنها تحقق في اغلب

الاحيان هذه الرغبات الايجابية بصورة غير مباشرة ، من خلال لعبها مع دميتها ، إذ تتصور نفسها هي الأم ، والدمية هي الطفلة . وإن إيثار البنات ، على العكس من الصبيان ،ان يلعبن مع دُماهن يُفسر في العادة على انه علامة على أنوثة بكرت الى الاستيقاظ . وهذا التفسير لا يجانب الصواب ، بيد أنه لا يجوز ان يغرب عنا ان الجانب الايجابي من الانوثة هو الذي يفصح عن نفسه على هذا النحو ، وأن إيثار البنت هذا يتم بوجه الاحتمال عن حصرية علاقتها بالأم مع الاغفال الكامل للموضوع الابوي .

ان النشاط الجنسي الباعث على عظيم الدهشة للبنت في علاقتها بأمها يتجلى بالتسلسل الزمني في نوازع فموية ، وسادية ، واخيراً قضيبية ، تُوجه نحو الام . ومن العسير بيان ذلك بصورة مفصلة ، إذ ان هذه النوازع لا تعدو ان تكون في اغلب الاحيان حاثات غريزية غامضة مبهمة ؛ والطفلة لا تستوعب نفسياً هذه الحاثات لحظة ظهورها، ولهذا السبب لا تستطيع ان تعطيها تأويلاً إلا آجلاً ؛ وعلى هذا النحو تتجلى في التحليل في شكل تعبيري لا يعود اليها بكل تأكيد في الاصل . وقد نلتقيها احياناً في صورة تحويلات نحو الموضوع الابوي اللاحق حيث لا مكان لها ، فتشوش علينا بصورة محسوسة الفهم . ونلتقي الرغبات الفموية العدوانية والرغبات السادية في الصورة التي اتخذتها تحت وطأة الكبت ، أي في صورة خوف لدى البنت من ان تقتلها الأم ، وهذا الخوف يبرر بدوره الرغبة في موت الأم ، متى ما اخذت هذه الرغبة طريقها الى الشعور . ومن المستحيل أن تحدد مدى ارتكاز هذا الخوف من الأم الى العدائية من جانب هذه الأم عينها ، وهي عدائية ترهص بها الطفلة حدساً (لم التق حتى اليوم إلا لدى الرجال بالخوف من ان يُفترسوا ؛ ويرتبط هذا الخوف بالاب لكنه ينتج في أرجح الظن عن تحول العدوان الفموي الموجه نحو الام . فالطفل

يرغب في أن يفترس الأم التي تقيته ؛ أما الأب فلا يمكن ان يكون دافعاً الى مثل هذه الرغبة) .

إن الاناث اللائي تاتى لي ان ادرس المرحلة القبأوديبية عندهن ، واللائي تتسم رابطتهن بالأم بالقوة والمتانة ، قد اتفقن على القول إنهن واجهن بمقاومة شديدة الغسول والحقن المعوية التي كانت الام تريد إعطاءها لهن وإنه كان من عادتهن ان يقابلن ذلك بالقلق وبصراخ حانق . وقد يكون هذا سلوكاً دارجاً جداً أو مطرداً جداً لدى الاطفال . وانني ادين لروث ماك برونشفيك brunswick ، التي اهتمت بهذه المشكلة في وقت واحد معي ، بفهمي لأساس هذا التمرد البالغ القوة : فقد قارنت روث ماك برونشفيك ذلك الصراخ الحانق بعد الحقنة الشرجية بالرعشة بعد الاثارة التناسلية . اما القلق فينبغي فهمه على أنه تحول للذة العدوان التي نبهتها تلك الحقن . واعتقادي أن هذا كله مطابق للواقع : فالحث القوي السلبي للمنطقة المعوية ، في المرحلة السادية ـ الشرجية ، يستتبع كاستجابة تفجراً للذة العدوان التي تفصح عن نفسها مباشرة في صورة غضب ، او من جراء قمعها في صورة قلق . ويبدو أن هذه الاستجابة تتوقف في السنوات اللاحقة .

ان احدى الحاثات السلبية للمرحلة القضيبية تتقدم على ما عداها : فالبنت تتهم الأم باطراد بغوايتها لأنها استشعرت احاسيسها التناسلية الاولى ، أو على كل حال الاقوى ، في اثناء تغسيلها أو في اثناء بذل العناية البدنية لها من قبل الأم (أو من يمثلها من الاشخاص المكلفين بالاطفال) . وكثيراً ما اخبرتني الامهات انهن لاحظن ان بناتهن الصغيرات اللائي لهن من العمر سنتان او ثلاث سنوات تطيب لهن تلك الاحاسيس وانهن يسألن امهاتن ان يكررن تلك الملامسات والمحكات . ولئن ظهر الاب باطراد في تخييلات السنوات اللاحقة على أنه هو المغوي الجنسي ، فالتبعة في ذلك تقع ، في رأيي ،

على الأم التي لا يمكنها أن تتحاشى افتتاح المرحلة القضيبية لدى الطفلة . ففي وقت واحد والاشاحة عن الأم ، يتم ايضاً تسجيل الدخول في الحياة الجنسية في حساب الأب .

في المرحلة القضيبية اخيراً تتحقق ايضاً حاثات رغبية ايجابية قوية ضد الأم . فالنشاط الجنسي لهذه المرحلة يبلغ اوجه في الاستمناء البظري ؛ وارجح الظن ان ذلك يترافق بتصور للأم ، لكن خبرتي لا تأذن لي بأن أخمّن ما اذا كان ذلك يتأدى بالطفلة الى تصور هدف جنسي وما كنه هذا الهدف . وليس في مستطاع الطفلة ان تتعرف بوضوح الى مثل هذا الهدف إلا متى جاء ميلاد اخ صغير أو اخت صغيرة ليعطي اهتماماتها كافة حفزة جديدة . فالبنت الصغيرة ، مثلها مثل الصبي الصغير،تود لو كانت هي التي استولدت أمها هذا الطفل الجديد . ورد فعلها ازاء هذا الحدث وسلوكها حيال الطفل مماثلان لما هما عليه لدى الصبي . قد يبدو هذا بعيداً عن المعقول ، ولكن ربما كان ذلك فقط لأنه يبدو غير مألوف .

ان واقعة إشاحة البنت الصغيرة عن الأم خطوة بليغة الدلالة في طريق نمو البنت وتطورها ، وهي اكثر من مجرد تغيير للموضوع . وقد سبق لنا ان وصفنا اصل هذه الواقعة وتعدد تحفيزاتها المزعومة ، ونضيف الآن أنه ينبغي ، جنباً الى جنب مع هذه الواقعة ، ان نلاحظ انخفاضاً قوياً في الحاثات الجنسية الايجابية وزيادة في الحاثات الجنسية السلبية . صحيح ان النوازع الايجابية عانت من الاحباط بقوة أشد ، إذ اتضح انها غير قابلة على الاطلاق للتحقيق وسيكون بالتالي من الأسهل على الليبيدو ان يتخلى عنها ، غير ان النوازع السلبية عانت هي الاخرى من الخيبة وانقشاع الوهم . وغالباً ما يتم الاقلاع ، في آن واحد مع واقعة الاشاحة عن الأم ، عن الاستمناء البظري ؛ وفي كثير من الاحيان ، وعقب كبت الذكورة التي كانت نمت

حتى ذلك الحين لدى البنت الصغيرة ، يصاب بتلف دائم شطر لا يستهان به من نوازعها الجنسية بوجه عام . ويتم الانتقال الى الموضوع الابوي بمعونة النوازع السلبية بقدر ما تنجو هذه الاخيرة من الكارثة . ويصبح طريق نمو الانوثة الآن سالكاً بالنسبة الى البنت ، وذلك بقدر ما لا تعيقه مخلفات الرابطة بالام ، أي الرابطة القبأوديبية التي تم لها الظهور عليها .

إذا استعرضنا الآن ذلك الشطر من النمو الجنسي المؤنث الذي اتينا بوصفه هنا ، نجدنا غير مستطيعين إلا ان نصدر حكماً معيناً على الانوثة في جملتها . فقد رأيناها مسرحاً تفعل فيه فعلها القوى الليبيدوية عينها التي تنشط لدى الطفل من الجنس المذكر ، وقد امكن لنا ان نقتنع بأن الطريق الذي يتم اجتيازه ، في هذه الحالة كما في تلك ، واحد ، وبأن النتائج التي يتم الوصول اليها واحدة .

عندئذ تتدخل عوامل بيولوجية لتحرف تلك القوى عن الاهداف التي كانت لها في بداية الامر ، موجِّهة نحو طريق الانوثة نوازع ايجابية ، مذكرة بكل معاني الكلمة . وبما اننا لا نستطيع أن نرفض عزو التهيج الجنسي الى تأثير بعض المواد الكيماوية ، فقد نجدنا ميالين الى أن نتوقع أن تكشف لنا الكيمياء الحيوية ذات يوم عن مادة من شأنها فيما اذا وجدت ان تولّد التهيج الجنسي المذكر وعن مادة اخرى تفعل الشيء نفسه بالنسبة الى التهيج الجنسي المؤنث . بيد أن هذا الامل لا يبدو أقل سذاجة من الامل ـ الذي تم تجاوزه لحسن الحظ اليوم ـ في التوصل بواسطة المجهر الى اكتشاف العوامل المفردة التي تتسبب في الهستيريا والعصاب الوسواسي والسوداء ، الخ .

ان الامور لا بد ان تكون في الكيمياء الجنسية ايضاً اشد تعقيداً ، ولكن سيان عند علم النفس ان يكون في الجسم مادة واحدة للاثارة الجنسية او مادتان أو جملة كبيرة من مواد من هذا القبيل .

والتحليل النفسي يعلمنا أن نتدبر أمرنا ونقتنع بوجود ليبيدو واحد يعرف على كل حال اهدافاً ـ أي انماط اشباع ـ ايجابية وسلبية . وانما في هذا التناقض ، وقبل كل شيء في وجود نوازع ليبيدوية ذات اهداف سلبية ، تكمن بقية المشكلة .

(٤)

اذا درسنا الادبيات التحليلية المتصلة بموضوعنا ، فقد نقتنع بان كل ما محصته هنا بصورة مفصلة موجود فيها أساساً . وربما ما كانت لتكون هناك جدوى من نشر هذا البحث لولا أنه من المفيد دوماً، في مضمار يعسر أشد العسر النفاذ اليه ، إيراد تجارب شخصية وتصورات شخصية . وهناك ، فضلاً عن ذلك ، نقاط كثيرة قد أوضحتها وافردتها عن غيرها على نحو افضل . وفي بعض البحوث الأخرى جاء عرض الوقائع محفوفاً بالالتباس نظراً الى مناقشة مشكلات الأنا الاعلى والشعور بالذنب في الآن نفسه . وهذا ما تحاشيته هنا ؛ وفي وصفي لمختلف مخارج هذه المرحلة من النمو لم أعالج ايضاً التعقيدات التي تظهر متى ما عادت الطفلة ، وقد خيب ابوها أملها ، إلى صلتها بالأم بعد ما كانت فصمتها ، أو متى تنقلت تكراراً على مدى حياتها بين موقف وآخر . ولكن على وجه التحديد لأن بحثي هذا لم يكن إلا مساهمة ضمن جملة مساهمات ، فقد امكنني ان اوفر على نفسي مشقة المراجعة الدقيقة للادب المكتوب في الموضوع ، وتيسر لي ان احدّ بحثي بإبراز اهم نقاط الاتفاق مع بعض من البحوث الاخرى وكذلك اهم نقاط الاختلاف مع بعضها الآخر .

كنت أحبذ لو ان بحث أبراهام ABRAHAM الذي ما تخطاه أحد بعد عن « تظاهرات عقدة الخصاء لدى المرأة » ، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** ، السنة ٧ ، ١٩٢١ ، تضمن عامل الرابطة المانعة والاولية بالام . ولا بد لي كذلك من أن افصح عن اتفاقي ، بصدد

النقاط الاساسية ، مع حنة لامبل دي غروت[٤] في بحثها المهم[٥] . فهذه الكاتبة تقول بتماثل المراحل القبأوديبية لدى كل من الصبي والبنت ، وتؤكد وجود النشاط الجنسي (القضيبي) لدى البنت تجاه الأم ، وتغتنيه بالملاحظات . فهي ترد واقعة الاشاحة عن الام الى تأثير المعرفة بالخصاء التي ترغم الطفلة على العزوف عن الموضوع الجنسي ، وفي الوقت نفسه عن الاونانية ايضاً في احيان كثيرة . وتجمل النمو كله في الصيغة التالية : ان البنت تجتاز مرحلة « سلبية » من عقدة اوديب قبل ان تدخل في المرحلة الموجبة . لكن هذا البحث يبقى غير كاف من حيث أنه يصور واقعة الاشاحة عن الام على أنها مجرد تغيير للموضوع من دون أن يسلّم بأن ذلك يتم مصحوباً بأجلى علائم العدائية .وعدائية الام هذه تقدرها حق قدرها هيلين دويتش في مقالها الاخير: «المازوخية المؤنثة وصلتها بالبرودة » ، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** ، السنة ١٦ ، ١٩٣٠ . وفيه تقر ايضاً بالنشاط القضيبي لدى البنت وبشدة تعلقها بأمها . وتشير هـ . دويتش كذلك الى ان واقعة التحول نحو الاب تتم بطريق النوازع السلبية (التي سبق استخدامها في العلاقة مع الام) . اما في المؤلَّف الذي نشرته سابقاً : **التحليل النفسي للوظائف الجنسية المؤنثة** ، ١٩٢٥ ، فلم تكن قد أعفت نفسها بعد من تطبيق المخطط الاوديبي على المرحلة القبأوديبية : ومن ثم أوّلت نشاط البنت القضيبي على أنه تماهٍ مع الاب .

يلح فينخل FENICHEL بسداد في مقاله حول « التاريخ القبتناسلي لعقدة اوديب » ، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** ، السنة ١٦ ،

(٤) أصحح هنا ، بحسب رغبة الكاتبة ، اسمها الذي كانت المجلة اوردته كما يلي: ال.دي غر .

(٥) تاريخ تطور عقدة اوديب لدى المرأة ، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** ، السنة ١٣ ، ١٩٢٧ .

١٩٢٠ ، على صعوبة التمييز في المعطيات التي تجمع في اثناء التحليل بين ما هو مضمون لا تغيير فيه للمرحلة القبأوديبية وبين ما جرى تحريفه نكوصياً (او بطريقة اخرى) . وهو لا يعترف بنشاط البنت القضيبي كما وصفته حتة لامبل دي غروت ، ويحتج ايضاً على ما صورته ميلاني كلاين KLEIN في مقالها عن « الاطوار الابتدائية للعقدة الاوديبية » ، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** ، السنة ١٤ ، ١٩٢٨ ، على انه، تسبيق لعقدة اوديب التي ترجع زمنها الى مطلع السنة الثانية من العمر . والحق أن هذا التاريخ ، الذي يبدل بالضرورة تصور جميع ظروف النمو ، لا يتفق مع نتائج تحليل الراشدين ، ويتناق بوجه خاص مع كشوفي عن طول مدة التعلق القبأوديبي بالأم لدى البنت . ومن الممكن التلطيف من حدة هذا التناقض اذا ما لاحظنا اننا لا نستطيع بعد ، في هذا المضمار ، التفرقة بين ما هو مثبَّت بحكم القوانين البيولوجية وما هو قابل لان يتبدل ويتنوع تحت تأثير صروف الحياة . وكما نعلم منذ عهد بعيد بخصوص أثر الغواية ، فإن ثمة عوامل اخرى قد تتسبب في تسريع نمو الطفل الجنسي وإنضاجه ، ومنها : أوان ولادة إخوة له واخوات ، وأوان اكتشاف الفارق بين الجنسين ، والمشاهدة المباشرة للعلاقة الجنسية ، وتصرف الأهل التشجيعي أو التحظيري .

يميل الكثيرون من الباحثين الى الانتقاص من اهمية حاثات الليبيدو الأولى الاكثر ابتدائية لصالح سيرورات النمو المتأخرة ، بحيث لا يبقى لهذه الحاثات من دور - في الحالات القصوى - سوى الإشارة الى بعض الاتجاهات ، على حين ان نكوصات وتشكيلات ارتجاعية لاحقة هي التي تكون على درجة كافية من الشدة لتسلك هذه الطرق . هكذا ترى هورني HORNEY ، مثلاً ، في مقالها عن « الهرب خارج الانوثة » ، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** ، السنة ١٢ ، ١٩٢٦ ،

اننا نغالي كثيراً في اهمية الحسد القضيبي الاولي لدى البنت ، على حين أنه ينبغي ان تعزو شدة النازع المذكر الذي يفصح عن نفسه لاحقاً الى حسد قضيبي ثانوي يفيد في توفير الحماية ضد الحاثات المؤنثة ، وعلى وجه الخصوص ضد الرابطة المؤنثة بالاب . وهذا لا يتوافق مع انطباعاتي . فمهما تكن مؤكدة واقعة التعزيزات اللاحقة عن طريق النكوص والتشكيل الارتجاعي ، ومهما يكن عسيراً تقييم الاهمية النسبية للمقومات الليبيدوية التي تتسائل وتتلاقى ، فإني اعتقد انه لا يجوز لنا ان ننسى أن هذه الحاثات الليبيدوية الابتدائية تتسم بدرجة من الشدة أعلى من تلك المتاحة للحاثات اللاحقة ، والى حد نستطيع ان نقول عنه بكل معنى الكلمة انه لا يضاهى . ومن المحقق أنه من الصواب القول إن هناك تضاداً بين الرابطة بالاب وبين عقدة الذكورة - وذلك هو التعارض العام بين الايجابية والسلبية ، بين الذكورة والانوثة - لكن ذلك لا يعطينا البتة الحق في ان نقول إن واحدة منهما فحسب هي الأولية بينما لا تدين الثانية بقوتها إلا للدفاع . فلئن أفلح الدفاع ضد الانوثة في ان يكون على ذلك القدر الكبير من القوة ، فمن اين له أن يستمد هذه القوة ان لم يكن من النازع المذكر الذي وجد تعبيره الاول في الحسد القضيبي الذي تفصح عنه الطفلة والذي يستأهل بالتالي ان يسمى بعده ؟

ان اعتراضاً كهذا يثور ضد تصور جونز JONES في مقاله عن « النمو الاول للجنسية المؤنثة » ، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** ، السنة ١٤ ، ١٩٢٨ ، إذ يرى ان الطور القضيبي لدى البنت لا بد ان يكون استجابة حمائية ثانوية اكثر منه طوراً حقيقياً من اطوار النمو. والحال انَّ هذا لا يتمشى لا مع الشروط الدينامية ولا مع الشروط الزمانية .

الفصل الثاني عشر

انماط ليبيدوية

(١٩٣١)

تدلنا مشاهدتنا ان الكائنات البشرية تحقق فردياً الصورة العامة للانسانية بتنوع يكاد يكون غير محدود . فإن سلمنا بضرورة التمييز بين انماط فردية في هذا الحشد ـ وهي ضرورة لها ما يبررها ـ فسيكون خيارنا الاول أن تحدد أية خصائص ومن أي منظور ينبغي أن نقوم بتلك التفرقة . ومن المؤكد ان السمات البدنية ليست أقل قابلية للتعويل عليها ، لبلوغ هذا الهدف ، من السمات النفسية ؛ فأثمن التمايزات إطلاقاً هي تلك التي تجمع قياسياً بين الميزات البدنية والنفسية معاً .

انه من المشكوك فيه ان نتمكن من الآن من العثور على انماط ليبيدوية تستجيب لهذه الشروط ، ولكننا سنتوصل بالتأكيد الى العثور في زمن لاحق على أنماط كهذه على أساس لا يزال مجهولاً بعد . اما اذا قصرنا جهودنا الآن على رسم انماط سيكولوجية خالصة ، فإن مضمار الليبيدو سيكون اول من يطالب باتخاذه قاعدة للتوزيع . وبوسعنا ان نتطلب الا يتحدد هذا التوزيع بما نعرفه او نفترضه بخصوص الليبيدو فحسب ، بل ان نتمكن ايضاً من الاهتداء بسهولة اليه على الصعيد الاختباري ، وأن يسهم ، من جانبه ، في توضيح كتلة ملاحظاتنا ومشاهداتنا ، وأن يدعم اطروحتنا . وينبغي ان نسلم ، لا

اكثر ، بأنه لا حاجة البتة حتى في المضمار النفسي ، الى ان تكون هذه الانماط الليبيدوية هي الوحيدة الممكنة ، وبأننا لو انطلقنا من صفات وكيفيات اخرى فلربما امكننا ان نقرر مجموعة بكاملها من انماط سيكولوجية اخرى . على أنه من المهم الا تتطابق هذه الانماط مع صور مَرَضية ، بل ينبغي على العكس ان تشمل جميع الاصناف التي يدرجها تقييمنا ، الموجه توجيهاً عملياً ، في عداد ما هو سوي ، بيد انها تبقى قابلة ، في تشكيلاتها القصوى ، لان تضارع اللوحة السريرية وتساعد من ثم على ردم الهوة المزعومة بين السوي والمرضي .

بوسعنا أن نميز ، عندئذ ، ثلاثة انماط ليبيدوية رئيسية ، بحسب المكان الذي يشغله الليبيدو في مناطق الجهاز النفسي . وليس من اليسير أن نعطيها اسماً ؛ على أنه في مقدوري ، طبقاً لنظريتنا عن الاعماق النفسية ، أن أصفها بانها نمط **ايروسي** ونمط **وسواسي** ونمط **نرجسي** .

من الممكن تحديد مواصفات النمط **الايروسي** بسهولة . فالايروسيون اشخاص ينصب اهتمامهم الاساسي ـ الشطر الاكبر نسبياً من الليبيدو عندهم ـ على الحياة الحبية . فالأهم الأهم في نظرهم ان يحِبوا ، وبوجه أخص ان يحَبوا . وهم يرزحون تحت هاجس الخوف من أن يفقدوا الحب ، ومن ثم فإنهم يعيشون في تبعية الآخرين الذين يمكن لهم ان يحرموهم من هذا الحب . وهذا النمط غالباً ما نلتقيه حتى في شكله الخالص . وتوجد له تنوعات تبعاً لتمازجه مع نمط آخر ولنسبة العدوان المزامنة له . ويمثل هذا النمط ، من وجهة النظر الاجتماعية كما من وجهة النظر الثقافية ، المطالب الغريزية الابتدائية للهذا الذي تكون سائر الهيئات النفسية قد أمست طوع بنانه .

اما النمط الثاني الذي أطلقت عليه اسماً قد يبدو غريباً للوهلة الاولى ـ النمط **الوسواسي** ـ فيتميز بغلبة الأنا الاعلى الذي ينفصل

عن الانا في حالات التوتر المرتفع . ويرزح هذا النمط تحت هاجس القلق الاخلاقي بدل ان يرزح تحت هاجس القلق من فقدان الحب ، وهو يدلل على تبعية داخلية ان جاز التعبير ، لا على تبعية خارجية ، ويبدي عن مقدار مرتفع من الثقة بالنفس ويغدو ، من المنظور الاجتماعي ، الركيزة الحقيقية ، وعلى الاخص المحافظة ، للثقافة .

ويتميز النمط الثالث ، المسمى بحق **بالنرجسي** ، اكثر ما يتميز بعوامل سلبية . فلا وجود عنده لتوتر بين الانا والانا الاعلى - فعلى اساس نمط كهذا يكاد يتعذر الوصول الى تشييد انا اعلى - كما لا غلبة عنده للحاجات الايروسية ، إذ أن اهتمامه الرئيسي منصبٌ على الحفاظ على نفسه ، فهو مستقل بذاته ، ولا سبيل الى ترهيبه . ويكون في متناول الأنا كمٌ كبير من العدوان يتمثل ايضاً في وقوفه على أهبة الاستعداد للعمل . اما في الحياة الحبية فيؤثر ان يحِب على أن يكون محبوباً . ومن ينتمِ الى هذا النمط من الناس يفرض نفسه على الآخرين باعتباره « شخصية » ؛ وهو أهل ليكون للآخرين سنداً ، وليتولى دور القائد ، وليعطي التطور الثقافي حفزة جديدة أو ليتعدى على ما هو قائم .

إن هذه الانماط الخالصة لن تفلت إلا بلأي من شبهة تفرعها عن نظرية الليبيدو . ولكن لو التفتنا الى الأنماط المزيجة التي يمكن رصدها بأسهل بكثير من الانماط الخالصة ، لشعرنا بأننا نقف فوق أرضية التجربة الموثوقة . وبالفعل ، إن هذه الانماط الجديدة ، واعني بها النمط **الايروسي - الوسواسي** والنمط **الايروسي - النرجسي** والنمط **النرجسي - الوسواسي** ، تتيح لنا فيما يبدو أن نحدد بدقة مواقع البنى النفسية الفردية كما تعلمنا ان نتعرفها في التحليل . فإذا تتبعنا هذه الانماط المزيجة انتهينا الى صور طبائعية مألوفة لدينا منذ زمن بعيد . ففي النمط **الايروسي - الوسواسي** تبدو غلبة الحياة الغريزية

محدودة بتأثير الانا الاعلى ؛ ولدى هذا النمط تدرك التبعية المتزامنة لموضوعات انسانية حديثة ولمخلفات الوالدين والمربين والقدرات اعلى درجاتها . اما النمط **الايروسي - النرجسي** فربما كان النمط الذي ينبغي ان نفترض أنه الاكثر تواتراً . وهو يجمع بين متناقضات يخفف الواحد منها من غلواء الآخر ؛ واذا ما قارنا بينه وبين النمطين الايروسيين الآخرين(١) ، فقد يفيدنا بأن العدوان والايجابية يتمشيان تماماً مع غلبة النرجسية . واخيراً ، فإن النمط **النرجسي - الوسواسي** ينتج نوعاً هو من وجهة النظر الثقافية الاعظم قيمة ، إذ أنه يضيف الى الاستقلال الخارجي ومراعاة المقتضيات الاخلاقية القدرة على التصرف الحازم ، علاوة على أنه يعزز الأنا في مواجهة الانا الاعلى .

قد يذهب بعضهم الى الظن بأنه لن يكون إلا مازحاً فيما لو سألنا لماذا لا نذكر هنا نمطاً آخر ممكناً من الناحية النظرية ، ونعني به النمط **الايروسي - الوسواسي - النرجسي** . غير ان الجواب عن هذا المزاح سيكون جواباً جاداً ؛ فنمط كهذا لن يعود في هذه الحال نمطاً ، بل سيكون هو الشكل المطلق ، التساوق الامثل . وهنا ندرك أن ظاهرة النمط تنبع تحديداً من واقع أن واحداً او اثنين من الاستعمالات الرئيسية الثلاثة لليبيدو في التنظيم النفسي قد رُجحت كفته على حساب الباقي .

من الممكن للمرء ان يتساءل ايضاً عن العلاقة بين هذه الانماط الليبيدوية وبين علم الأمراض : فهل لدى بعض هذه الانماط استعداد اكثر من سواها للاصابة بالعصاب ؟ وفي هذه الحال ما الانماط التي تتأدى الى هذا الشكل أو ذاك من أشكال العصاب ؟ وسيكون الجواب أن عرضنا لهذه الانماط الليبيدوية لا يلقي ضوءاً جديداً على تكوين

---

(١) يقصد النمط الايروسي الخالص والنمط الايروسي - الوسواسي المزيج . « م »

الاعصبة . فالخبرة تدل على أن جميع هذه الانماط يمكن ان توجد بلا عصاب . ويبدو ان الانماط الخالصة ، أي تلك التي تكون الغلبة فيها بلا منازع لهيئة(٢) نفسية واحدة ، تتمتع بحظ موفور في ان تكون مجرد صور وصفية ، على حين انه من المباح لنا ان نتوقع أن تقدم الانماط المزيجة ارضية اكثر مواءمة لشروط العصاب . غير انني أعتقد على كل حال انه لا يجوز لنا ان نبت في أمر هذه العلاقات قبل ان نقوم بتحقيق خاص ومدقق .

يبدو سهلاً ان نحدس بأن الانماط الايروسية تنتهي ، في حال المرض، الى الهستيريا ، والانماط الوسواسية الى الاعصبة الوسواسية ، غير ان ذلك كله يبقى عرضة للتشكك الذي تقدمت الاشارة إليه . أما الانماط النرجسية ، التي يعرّضها استقلالها المعتاد الى احباط العالم الخارجي ، فتنطوي على استعداد مسبق خاص للذهان ، بيد أنها تتسم ايضاً ببعض الشروط الاساسية للإجرام .

معلوم ان الشروط الاتيولوجية للأعصبة لم تُعرف بعد على وجه يقيني . أما الاذهنة فتتولد عن الاحباطات والصراعات الداخلية ، اي الصراعات بين الهيئات النفسية الثلاث الكبرى ، والصراعات في داخل بنية الليبيدو بحكم الجبلّة الجنسية الثنائية ، والصراعات بين المقومات الغريزية الايروسية والعدوانية . ويبذل علم نفس الاعصبة قصاراه ليهتدي الى ما يجعل من هذه السيرورات التي تنتمي الى المجرى السوي للحياة النفسية سيرورات إمراضية .

---

(٢) تتألف النفسية في طبوغرافيا فرويد الثانية من ثلاث هيئات : الهذا والانا والانا الاعلى « م » .

الفهرس